المركز القومى للترجمة

لامرتين

ميراث الترجمة

رافائيل
صحائف العشرين

ترجمة: أحمد حسن الزيات

تقديم: حلمى النمنم

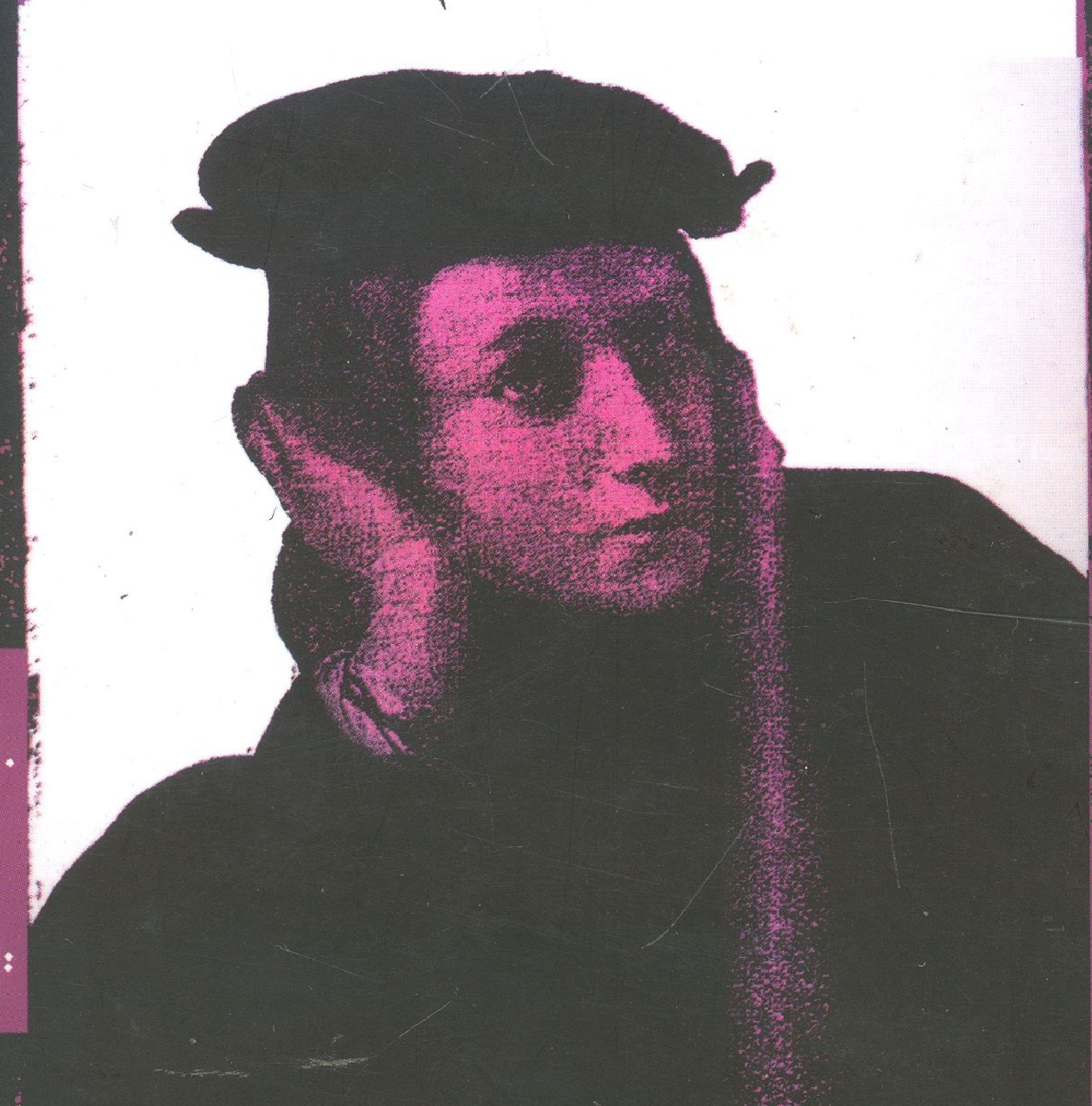

الطبعة الثانية

2/1050

المشروع القومى للترجمة

رفائيل
(صحائف سن العشرين)

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: طلعت الشايب

- العدد: ١٠٥٠/ ٢
- رفائيل (صحائف سن العشرين)
- ألفونس لامرتين
- أحمد حسن الزيات
- حلمى النمنم
- ٢٠٠٩

هذه ترجمة

Raphaël

Alphonse de Lamartine

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

رفـائيـل

(صحائف سن العشرين)

تأليف: ألفونـــس لامرتيـــن

ترجمة: أحمد حسن الزيات

تقديم: حلمــى النمنـــــم

٢٠٠٩

رقم الإيداع: ٢٠٠٩/١١٤٥٦

الترقيم الدولى: 0 - 370 - 479 - 977 - 978

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

مقــدمة

الزيــات ورافــائيل

غطت شهرة مجلة الرسالة وأهميتها على بقية جوانب حياة مؤسسها أحمد حسن الزيات وإنتاجه الأدبى والثقافى .. الزيات هو مؤسس "الرسالة" ورئيس تحريرها سنوات صدورها العشرين ، وكأنما أراد لها الزيات أن تكون صوت جيل بعينه ، الجيل الذى ازدهر وتألق فى أعقاب ثورة ١٩١٩ ودستور ١٩٢٣ ؛ فلم يكن مصادفة أن يغلق الزيات "الرسالة"، وأن تتوقف عن الصدور فى العام نفسه والتوقيت الذى تم فيه إلغاء دستور ١٩٢٣، وحل جميع الأحزاب المصرية فى ١٩٥٢ ، وعلى الرغم من تعدد المجلات الثقافية والأدبية سنوات الثلاثينيات والأربعينيات فإن "الرسالة" كانت فى المقدمة منها بمعيار العمق والتنوع وحتى بمعيار التوزيع أيضاً ؛ فقد بلغ توزيعها بعد أقل من عام إلى ثلاثين ألف نسخة من العدد الواحد .

تأسست الرسالة في بداية سنة ١٩٣٣ ، تحديداً ١٥ يناير ، فى وقت مهم ، قبلها بعام كانت "السياسة الأسبوعية" ، قد توقفت عن الصدور ؛ فقد انشغل رئيس تحريرها د . محمد حسين هيكل بالسياسة اليومية، وفى ١٩٣٢ أيضاً كانت "البلاغ الأسبوعى" قد توقفت ، وكان قد رحل عن دنيانا كل من أمير الشعراء أحمد شوقى وشاعر النيل حافظ إبراهيم ، وبدا أن الحياة الثقافية تتجه إلى حالة من الفقر ، خاصة وأن د . طه حسين قد أبعد عن الجامعة المصرية ، وكان الزيات قد عاد من بغداد : حيث كان قد انتدب من الحكومة العراقية فى ١٩٢٩ لتدريس الأدب العربى بدار المعلمين العليا فى بغداد ، وظل هناك لمدة ثلاث سنوات ، ورفض أن يتم التجديد له هناك ثلاث سنوات أخرى ،

وقد حقق نجاحًا ، وألقى العديد من المحاضرات فى المحافل والمنتديات الثقافية ببغداد ، وعاد فى ١٩٣٢ ليجد ما سُمى فى الثقافة المصرية باسم " عام الحزن " ، وحلَّ محله فى المعلمين العليا ببغداد بعد ذلك د . زكى مبارك ثم عبدالوهاب عزام .

وبدأ هو هنا فى القاهرة محاولاً الخروج من تلك الحالة بأن اقترح فى نوفمبر ١٩٣٢ على د . طه حسين إصدار مجلة ثقافية أو أدبية تملأ الفراغ الذى تركته "السياسة الأسبوعية" و"البلاغ الأسبوعى"، ولم يجد الزيات لدى د. طه حماسًا ، والحقيقة أن د . طه كان متخوفًا ؛ لأن ثقافة النخبة المصرية آنذاك تكاد أن تكون ثقافة أوروبية والعامة من المصريين تحكمهم الأمية ، ولكن الزيات كان يراهن على فئة أو طبقة وسطى بين أولئك وهؤلاء ، تلك الفئة التى تريد أن تقرأ ولعلها لا تجد ما تقرأه ، وكان رأى طه حسين أن تلك الفئة الوسطى التى يبحث عنها الزيات ، يكتفى أفرادها بالقراءة العابرة لمقال هنا أو رأى هناك ، ومع ذلك تعاونا معًا فى إصدار "الرسالة" ، وصدرت إعلانات العدد الأول عن "الرسالة" بعبارة (مجلة الرسالة يحررها الأستاذان الزيات ود . طه حسين) ثم تم تعيين د . طه فى مجلة " كوكب الشرق "، وتفرغ الزيات وحده للرسالة .

ولد الزيات فى الثانى من أبريل سنة ١٨٨٥ فى قرية كفر دميرة التابعة لمركز طلخا بمديرية الدقهلية ، وكشأن أطفال الريف تلقى تعليمه الأولى بكُتَّاب (مكتب) القرية ، ولما لم يكن هناك مدارس لمواصلة التعليم فقد أرسلته أسرته إلى القاهرة حيث الأزهر لمواصلة تعليمه ؛ التحق بالرواق العباسى سنة ١٨٩٧، وكان يتولى التدريس به وقتها الشيخ محمد عبده ، وكانت تلك سنوات ألق محمد عبده فى الإصلاح وتجديد الفكر الدينى ، وقد أصابت جنوة محمد عبده الكثيرين وقتها داخل الأزهر ، والواضح أن الزيات كان واحداً منهم ، فلم يتمكن من مواصلة المسيرة بعده فى الأزهر ، فقد كان عتاه رجال الأزهر يضيقون بأفكار محمد عبده ومن ثم بتلاميذه والمتأثرين بتلك الأفكار ، واقع الأمر أن قدامى رجال الأزهر كانوا قد رموا أفكار محمد عبده بالخروج والمروق ، بل والكفر ، وكان لابد أن تنتقل تلك الاتهامات إلى تلاميذه أو على الأقل يكونون موضع شك وريبة، وكان الزيات من هؤلاء ، يُضاف إلى ذلك أن التعليم الحديث كان يخايل

هؤلاء التلاميذ ويجذب عقولهم إلى مدارسه ومعاهده ، كانت هناك "دار العلوم" التى أسسها على مبارك وكانت تجذب إليها المتطلعين إلى العلوم الحديثة والرافضين لطرق التعليم بالأزهر ووسائله، وقد ألقى فيها محمد عبده محاضرات عن ابن خلدون ، وكانت هناك مدرسة القضاء الشرعى التى اجتذبت من بين من اجتذبت أحمد أمين ، وكانت الجامعة المصرية على وشك التأسيس . وهكذا ترك الزيات الأزهر سنة ١٩٠٧ دون أن يحصل على "العالمية" ، والحق فإنه أجبر على ترك الأزهر، ولنقل طُرد كما طرد معه فى الوقت نفسه طه حسين ومحمود زناتى ، وفى السنة نفسها تأسست مدرسة القضاء الشرعى، وفى العام التالى مباشرة تبدأ الجامعة المصرية عملها ، ويلتحق بها مباشرة الزيات وأيضاً طه حسين .

تخرج الزيات فى الجامعة عام ١٩١٢ ولم يتجه إلى الدراسات العليا ونيل الماجستير والدكتوراه كما اتجه صديقه طه حسين ، فقد ذهب مباشرة إلى ميدان الحياة العملية ، وعُيِّن فى السنة نفسها مدرساً للغة العربية بمدارس الفرير ، وبعدها بخمس سنوات بدأ فى تعلم اللغة الفرنسية وهى آنذاك إلى جوار العربية لغة صفوة المجتمع من المثقفين والمتعلمين ، تعلمها محمد عبده وأتقنها لطفى السيد وقاسم أمين ود . هيكل و د . منصور فهمى ود . طه حسين وغيرهم ، كان هؤلاء المثقفون يصرون على أن تكون الفرنسية لغة الثقافة فى مواجهة الإنجليزية ، لغة المحتل والاحتلال ، ويتم تدريسها فى المدارس الأولية بمصر ، ويبدو أن الزيات تمكن من الفرنسية ، فيلتحق فى ١٩٢٢ بالقاهرة بمدرسة الحقوق الفرنسية ، وفى ١٩٢٥ يسافر إلى فرنسا ، ويقضى عدة شهور بباريس لنيل "إجازة الحقوق" ، وإن كان د . طه حسين شكك فى أنه نال تلك " الإجازة " ، ووفقاً لرأى د . طه أن الزيات فى رحلته الدراسية طالع الحياة هناك وتابع مصادر الثقافة الفرنسية وآدابها وفنونها ، لكنه لم ينل " الإجازة " وأياً كان الأمر فإن ذلك لا يعنى شيئاً لنا الآن ، توفيق الحكيم فعل الشىء نفسه فى باريس .. وكان الزيات قد ترك التدريس بمدارس الفرير سنة التحاقه بمدرسة الحقوق ؛ حيث انتدب للتدريس ، وتولى مسئولية القسم العربى بالجامعة الأمريكية فى القاهرة ..

فور عودته من باريس شرع في ترجمة " رفائيل " ، وصدرت فى العام التالى مباشرة عن لجنة التأليف والترجمة والنشر ، التى أسسها أحمد أمين وعدد من رفاقه مثل محمد بدران ، وكانت اللجنة تنتقى وتدقق إصداراتها سواء ما كان منها تأليفًا أو ترجمة . وكان صدور كتاب مترجمًا عنها . لا يعنى فقط أننا بإزاء دقة الترجمة ، بل وأيضًا رصانة الأسلوب العربى وجمال الترجمة ، وتلك معضلة كثير من المترجمين الآن .

ولن أتحدث عن جودة الترجمة ودقتها ، فقد قام بذلك د . منصور فهمى فى تقديمه للطبعة الأولى من الترجمة ؛ حيث انتهى إلى القول (إن الأستاذ الزيات كان فنانًا فى نقله ، أمينًا فى فنه ، موفقًا فى عمله) . والواضح أن ما دفع الزيات إلى ترجمة هذا العمل ، ليس مجرد الترجمة ، بل حالة من الإعجاب بالشاعر الفرنسي وبعمله ؛ ففى غلاف الترجمة كتب عنوان الكتاب وحين أراد أن يكتب اسم المؤلف كتبه هكذا " لشاعر الحب والجمال لامرتين " ، وقد وضع لامرتين بين قوسين وكتبت ببنط أصغر قليلاً ، أى أن الأصل عنده هو صفة الشاعر ، قبل اسمه ، شاعر الحب والجمال ، ومن يقرأ الترجمة يشعر كأنما كُتب العمل أصلاً باللغة العربية : أسلوب رصين، وكلمات شاعرية ، ناعمة ، ممتلئة بالوجد .

وقد تحدث الزيات فى سنوات عمره الأخيرة عن أنه عاش فى باريس تجربة عاطفية لم يقدر لها أن تكتمل ؛ فقد عاد بسرعة ، ولعل هذا سبب إشارة طه حسين السابقة إلى أن الزيات اهتم بمعرفة باريس ومعايشتها فترة إقامته بها ، فيؤخذ التجربة نحو أشعار لامرتين، وأوقفته أمام صحائف رفائيل ، وربما دفعته هذه ويقرر نقلها إلى اللغة العربية وقرائها .

ويتذكر الزيات من (يسميهما أخوىَّ الحبيبين ع . س و ح . س) فيهدى إليهما الترجمة ، تحديداً إلى (حبكما الخالد هذا الكتاب الخالد) ويقول لهما فى نهاية الإهداء المطول (ولولا أن عليكما طابع الشرق الجميل ، لقب إنكما جوليا ورفائيل) ، والمعنى أننا لسنا بإزاء مترجم يقدم عمله إلى قرائه وإلى لغته ، بل بإزاء تجربة حية وعمل مرتبط بالحياة وبالوقائع المعاشة وأشخاص يراهم المترجم ويعرفهم بل يعايشهم .

صدرت ترجمة " رفائيل " سنة ١٩٢٦ ، أي في العام نفسه الذي شهد أزمة أو معركة كتاب د . طه حسين " في الشعر الجاهلي " وقبلها بشهور كانت هناك معركة كتاب الشيخ علي عبد الرازق " الإسلام وأصول الحكم " كانت مصر قد دخلت عهد دستور ١٩٢٣ وبدأت المرحلة التي ستُعرف لاحقًا باسم " المرحلة الليبرالية في مصر ، وكان العقل المصري يشق طريقه في اتجاهين مترابطين متكاملين ، التعامل النقدي مع الأفكار القديمة ؛ المتوارثة والمرتبطة بالتراث الإسلامي ، وكذلك الانفتاح بوعي وبروح نقدية على الأدب والفكر الغربي ، تمثل ذلك في صدر أعمال متميزة في التراث العربي تحقيقًا وشرحًا وانتقادًا ، بالإضافة إلى ترجمة عدد من الأعمال والدراسات المهمة عن بعض اللغات الأجنبية ، خاصة الفرنسية والإنجليزية ، وفي هذا الصدد قام الزيات ، بالإضافة إلى رفائيل ، بترجمة عمل آخر لا يقل أهمية ، وهو للشاعر الفيلسوف الألماني المعجب بالشرق الإسلامي وحضارته "جيته" ، وقد ترجم الزيات "آلام فرتر" عن اللغة الفرنسية وليس عن الأصل الألماني، وانقطعت صلته تمامًا بالترجمة بعد ذلك؛ حيث شُغل بالتأليف وإصدار الكتب العربية إلى أن أصدر "الرسالة " في ١٩٣٣ .

وقد حققت الرسالة نجاحًا كبيرًا ، وكذلك مؤلفاته العربية خاصة (تاريخ الآداب العربية) وكتابه (عبقرية الإسلام) الذي يذهب بعض الدارسين إلى أن العقاد تأثر بهذا العنوان في سلسلة العبقريات ، وكتابه "دفاع عن البلاغة" الذي أشادت به اليونسكو ، وتوقف الباحثون والدارسون أمام هذه الأعمال بإهتمام كبير .

وعاش الزيات عمره معتزًا بترجمته لرفائيل، قبل وفاته صدرت طبعة جديدة منها ، وعلق عليها أنيس منصور في " الأهرام " بأن الترجمة مضى عليها أربعون عامًا ، وفهم الزيات ذلك القول على أنه غمز في الترجمة وحد من قيمتها ، وبتعبير الزيات أنه قد تراجعت أهمية الكتاب بالتقادم ، وبادر الزيات بكتابة رسالة بهذا المعنى إلى أنيس منصور مفندًا وجهة نظره ومؤكدًا أهمية الكتاب ، وأنه مازال يُقرأ ويجتذب المهتمين بالأدب والثقافة ، وقد نشر أنيس منصور رسالة الزيات بالأهرام في عدد ١٥ مايو سنة ١٩٦٨ ، وعلق عليها واصفا الزيات بأنه " أسبق أدباء مصر إلى العبارة الرشيقة

والهندســة الأدبية ، وبعد أقل من شهر على تلك الرسالة وذلك التعليق ، مضى الزيات إلى ربه فى ١٣ يونية سنة ١٩٦٨ ، راضيًا بما قدمه للأدب والثقافة العربية ، ســواء بالترجمة أو بالتأليف وما قدمه كثير ومهم وباق إلى اليوم وممتد إلى الغد .

ولعل قيام سلسلة " ميراث الترجمة " بنشر " رفائيل " بين أعدادها لدليل جديد وإضافي على أهمية هذا العمل وجودة الترجمة التى قام بهــا أحمــد حسن الزيات ، قبل أكثر من ثمانين عاماً .

حلمى النمنم

رفائيل

صحائف من العشرين

لشاعر الحب والجمال (لامرتين)

نقله الى العربية

احمد حسن الزيات

لسانسييه فى الحقوق من جامعة باريس

واستاذ الادب العربى بالجامعة الامريكية بالقاهرة

لامرتين

نشأته وحياته

ولد ألفونس د لامرتين بماكون سنة ١٧٩٠ من أبوين شريفين وقضى عهد الطفولة في (ميلي) تحت جناح أمه الرءوم ثم عهد بتقويمه وتعليمه الى القسيس دمونت وهو رجل واسع الاطلاع ، أريحي الطباع ،

خيالى النزعة . فكان له فى نفسه وحسه أثر جميل . ولما نما جسمه ، وقوى فهمه ، أرسل الى مدرسة فى ليون ثم أدخل بعد ذلك معهداً لليسوعيين فى ميلى ، فأتم به دراسته ، واستكمل ثقافته ، ونال منه اجازة فى الفلسفة . ثم عاد الى أهله سنة ١٨٠٨ ، وقضت عليه ملكيته الا يعمل فى حكومة (الطاغية) بونابرت كما كان يسميه ، فأخلد الى البطالة وسكن الى العزلة واستغرق فى المطالعة فغذى عقله وقلبه بما كتب روسو ، وتاس ، ودانتى ، و پترارك ، وشاكسبير ، وملتون ، وشاتوبريان ، وأسيان . ثم تعلم الايطالية والانجليزية . وعكف على دراسة تاسيت

ثم حركته دواعى الصبا الى الحب فنال من صفوه ومن رنقه ، وتامت قلبه فتاة من (ميلى) فأولع بها ولوعا خبل عقله ، وشف جسمه . فبعث به أهله الى ايطاليا ليبرأ ويسلو . ولما عادت أسرة (البربون) الى الملك سلك نفسه فى نظام الحرس ، ولكنه ما عتم أن ترك الجيش الى السياسة . على أن شيئاً من ذلك لم يشغله عن قرض الشعر ، فنشر منه ما أحله فى الذروة بين شعراء الغزل ، ومهد له الطريق الى الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٣٠ . وفى سنة ١٨٣٢ استأنف الرحيل . فعبر البحر مع زوجه وابنته الى الشرق ، فزار سوريا وفلسطين . وفى بيروت رزأه الموت فى ابنته . وكان لامرتين اذ ذاك قد بلغ أوج الشهرة ، وتسور شرفات المجد ، وصافح كف الثروة ، فأتاه الخبر فى بعلبك أنه انتخب نائباً عن دائرة (بيرج) فعاد الى فرنسا ودخل مجلس النواب . ولما سئل عن الجهة التى سيتخذ فيها مقعده أجاب (فى السقف) اشارة الى أنه فوق المنافسات الحزبية والاهواء السياسية . وفى سنة ١٨٤٨ رشح لرياسة الجمهورية فظهر عليه لويس

نابليون . وانقلب نظام الحكومة سنة ١٨٥١ فاعتزل السياسة . وطاردته في شيخوخته جيوش الفقر ، وفدحته أعباء الدين ، فنصب للعمل خمسة عشر عاماً لا يفتر قلمه ، ولا يكل عزمه ، حتى كسب ستة ملايين فرنك قضى بها دينه . ثم مدت له الحكومة يد المعونة فرتبت له وظيفة مقدارها خمسمائة الف فرنك يعطاها في كل سنة ما دام حياً . ولكن المنية لم تدعه يتمتع بهذا الرزق غير عامين ثم اخترمته سنة ١٨٦٩ في وحشة من الناس ، ووحدة من الأهل . فقد توفيت قبله زوجته وأولاده ، فلم يغمض عينه غير حفيدته

شعره

كان لامرتين يقدم في رأيه رجل الفعل على رجل القول ، ويقول (ان الشعر ينبغي أن يكون سلوة الفراغ وزينة الحياة ، ولكن قوت اليوم وملاك العيش هو الجهاد والعمل) على أنه خلق بالطبع شاعراً غمر البديهة فياض القريحة ينطبق عليه ما قاله هو على لسان الشاعر المحتضر : « أنا أغنى ياصحابتي كما يتنفس الانسان ، ويغرد العصفور ، ويعزف الهواء ، ويخر الماء » ولقد كان شعره الحي العميق المؤثر بدء عهد جديد للشعر الوجداني . وطالما قال بلهجة الفخور : « انه ابدل الهة الشعر من قيثارتها ذات الاوتار السبعة أعصاب القلب البشري يحركها ما لا عد له من خلجات النفس وهزات الطبيعة »

كان تأثره داخلياً ذاتياً فما فكر في غير نفسه ، ولا استمد الا من حسه. ومن قوله : « ان الشعر غناء الباطن » والحقيقة أن لامرتين أراد أن يشعر فغنى كما قال ابن الاثير في البحتري

فكان منذ صباه موسيقى الجمل ، موزون الكلم ، وثاب الخيال ، فياض الشعر ، يستمد وحيه والهامه من مصادر ثلاثة : من نوازع القلب ، وجمال الطبيعة ، وحماسة الايمان.

مؤلفاته

للامرتين مؤلفات كثيرة لا يتسع المقام لتفصيلها وتحليلها . فبحسبنا أن نسردها سرداً . فمؤلفاته النظمية هى ديوان التأملات ، وخير ما فيه ماقاله فى « القير » أو جوليا

وديوان التأملات الاولى ، ونغمات شعرية ودينية ، وتأملات شعرية ، وجوسلين ، وسقطة ملاك

ومؤلفاته النثرية هى الرحلة الشرقية ، وتاريخ الجيروندين ، والمسارات ، وهى كتابان لخص فيهما تاريخ شبابه وجملة حياته. أولهما جرازيلا ، وثانيهما رفائيل ، ثم ديوان رسائله

لامرتين والسيدة جوليا شارل

فى ربيع سنة ١٨١٦ أصيب لامرتين بمرض فى الكبد ، فأشار عليه طبيبه بالاستحمام فى اكس ، فوفد عليها فى أواخر أكتوبر . واتفق ان كان فى المصح الذى نزل به فتاة مريضة هى السيدة جوليا شارل زوج الاستاذ شارل ناموس المجمع العلمى الفرنسى . فكان يزيد حبه لها ، وعطفه عليها شحوبها البادى ، وهزالها الملح ، وعزاتها المؤلمة ، فتنه منها ملامحها الشاعرة ، وثقافتها النادرة ، ولهجتها البارعة ، وقسامتها الرائعة ، فاتصل بها ، وأغرم بحبها ، وقضى معها ثلاثة أسابيع على ضفاف بحيرة بورجيه ، ذاق

فيها حلاوة الغزل الجميل ، ولذة الحب النبيل ، ورقة الشعور المحض . ثم عادت الى باريس وعاد هو الى (ميلى) ولم يرها ثانية الا فى ينايرسنة ١٨١٧ في منزل زوجها بباريس ، فتساقيا كؤوس الحب مترعة صافية فى أرباض العاصمة الجميلة وریاضها مدة أربعة أشهر . ثم افترقا على أن

چوليا شارل حبيبة لامرتين

يتلاقيا مع الخريف فى سڤوا . ولكن القدر أبى عليهما هذا اللقاء . فذهب لامرتين الى اكس ينتظر قدوم حبيبته ، فما وجد غير النبأ الفاجع باشفائها على الموت ، فارتد الى ما كون . وهناك أتاه نعيها ، فهاله الخبر وبرح به

الحزن ، واشتد عليه الصبر ، وانبجس الدمع من عينه ، والشعر من قلبه ، فأتى فى رثائها وذكراها بالمعجب المعجز . وقصائده فى (الفير) وهو اسمها المستعار أشد ما فى ديوان التأملات استهواء للشعور وامتلاكا للنفس

كان لصلة هذه السيدة بلامرتين أثر عميق فى حياته ، وصدى داو فى شعره . وربما كان تأثيرها فيه لا يقل عن تأثير السيدة دفرنس فى روسو . وفيما نشره الأستاذ (دوميك) من رسائلها سنة ١٩٠٥ ما يؤيد ذلك

وفى سنة ١٨٤٩ . بدأ يكتب ذكرياته عن هذه الحادثة تحت اسم رفائيل مستعيناً بمذكراته ورسائله على ما ناله النسيان وعبث به الزمن . فكان من ذلك هذا الكتاب الذى ستقرأه الآن

مقدمة

بقلم الاستاذ الدكتور منصور فهمي

ألف الكتاب اذا ما وضعوا مقدمة لكتاب من الكتب ان يضمنوها بعض ما يحتويه هذا الكتاب من مبتكرات الفكر وأمهات المسائل، وحسناً يفعلون، فان مقدمات الكتب هي مداخلها التي تهيء القارىء الى ماسيقرأ، وتعد فكره لما ينساب فيه من مختلف المعاني وشتى الصور. على أنني تهيبت أن أضع مقدمة لقصة رفائيل عند ما تكرم أخي الاستاذ الزيات بدعوتي الى ذلك، لأني خشيت ان أنا نحوت في هذا الكتاب منحى الكتاب فصغرت صورته ولخصت فكرته أن أكون قد شوهت شيئاً من جماله وانقصت كثيرا من كماله. لان قصة رفائيل جمال حي وأدب راق وفن صاف، وهيهات ان ينقل المرء الى القارىء صورة من صور الجمال الحي! وهل تستطيع ريشة المصور مهما آتاها الله من الرقة والدقة ان تنقل صورة صحيحة لحسناء لابس الجمال معناها ومبناها؟ أم هل يستطيع قلم الكاتب مهما نال من حسن الصياغة وقوة البلاغة ان يلخص كتاباً فنياً من كتب الأدب، ويبسط للناس ما فيه من روعة وحسن؟ ان من حاول ذلك شق عليه الامر والتوت به السبيل. ان خير ما أنصح به لمن يريد ان يمتع نفسه بأثر الجمال الحي ان أغريه برؤية ذلك الجمال حياً. وخير ما ينتصح به من يريد ان يتذوق الادب أن يقرأ ما كتب الاديب. وعلى ذلك ينبغي أن يقرأ هذا الكتاب من فاتحته الى خاتمته

على انني فضلا عن تهيبي تلخيص ما في الكتاب تحرجت أن أدفع

بقلمى فى ميدان ليس من فرسانه ، فان الكتاب من وضع أديب كبير ، ومن تعريب أديب كبير ، وجدير بقلمى ان يدع مضمار الأدب للادباء ، و يترك مجال البلاغة للبلغاء . ولكن حرصى على اجابة الصديق سهل على ما استصعبت ، وهدى قلمى الى ما أحببت ، فبدا لى ان أقتطف من الكتاب بعض زهراته لاجعلها دليلا على ما فيه من سمو البيان ورقة الادب . ولكن اقتطاف شىء منه ليس باليسير الهين ، فان كل ما يقع عليه نظر القارىء لا يخلو من درة فكرية ، أو نكتة بيانية ، او انسجام حسن ، فكيف لايحار الانسان اذا أراد ان يتخير شيئاً دون شىء ؟ وكيف يترك قطعة فيها عظمة الفكرة الى اخرى فيها سحر اللسان ؟ فى الكتاب ما شئت من دقة الوصف ورقة الغزل وعمق الفكرة وفلسفة الشك وصدق النقد ونشوة التصوف ونغمة الموسيقى وحلاوة الايمان وطهارة الحب . وسترى فى كل صفحة من صفحات الكتاب مثالا صادقا على كل ذلك . على أن أضوأ نواحى الكتاب وأجلى مظهر فيه رفع الحب الى مستوى التقديس والعبادة . وقد يزعم نفر من الذين لا يرون فى الوجود الا الحقائق المادية ان ذلك الحب العذرى النقى هو اختلاق شاعر أو تصوير مصور ، و ينسى هؤلاء ان من خير وظائف الكتاب والفنانين ان يستنزلوا من السماء الى الارض عالماً وسطاً بين عالم هذه الارض المظلمة التى نسير عليها ونتأثر بحقائقها و بين عالم الكمال الذى تحن اليه النفس وتنزع اليه الانسانية ، وان هذا العالم السماوى الوسط يرفع الناس من حقائقهم الكدرة الى حقائق أصفى ، وان ما يبدو من الامور للناس بعيد المنال قد يدنون منه شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن ، حتى اذا ما بلغوه اصبح حقيقة من وجودهم ، وجزءاً من سلوكهم واخلاقهم . ألم تكن تلك الحقائق الخلقية من شفقة على المظلوم ،

وامتهان للرق ، واحترام لحقوق الانسان ، خيالات الشعراء فى العصر الغابر فأصبحت اليوم حقائق أو شبه حقائق ؟ ان المثُل العليا من القول والفعل لتسمو بالانسان من الارض الى السماء

وشيء آخر فى الكتاب أعلى وأجلى : ذلك هو الوصف بنوعيه الحسى والنفسى . ومنذ القدم انطوت النفس البشرية على نزعتين مخصبتين ظهرتا على اشد ما تكونان فى عصر النهضة الغربية ، وامدتا بوحيهما وهديهما حركة المدنية . فالاولى نزعة لفيف من مفكرى النهضة الى سبر اغوار النفس ليتبينوا ما فى عالمها من معان ، و يصفوا ما فى ساحاتها من مشاهد

وقدما تطاولت الرقاب الى معرفة خفايا النفس واستجلاء عالمها القدسىْ ، وجابت صحراواته طوائف الفلاسفة وفئات المتصوفين ، فاذا عادالينا احدهم بنبأ لا نستخلص منه الا ان فى هـذا العالم ما يدهش وما يحير . لذلك تلجلجت ألسـنة المحدثين عنه ، وكان جل ما نسمع من المتصوفة واضرابهم رموزاً ومتمة أشبه برقى المشعوذين والسحرة . وذلك لأن اكثر شؤون النفس مستغلق لاتجد العبارات الى تصوير معانيه سبيلا . ودام ذلك الامر حتى قيض الله للناس رجالا من عصر النهضه جالوا بألسنتهم تلك الشؤون ، ووصفوا باقلامهم تلك الحالات ، وصرفوا عنايتهم الى تجريد المعنويات ، فكسب ذلك لغات الغربيين عنصراً جديداً قواها ونماها ، لأن الكاتب الذى يغوص فى اعماق نفسه ليتصيد المعانى صافية جلية لا يلبث ان يعود الى القراء بدرر من الالفاظ ، ولا تلبث تلك الالفـاظ الدرية ان تندس فى أنسجة اللغة فتزداد نمـاء وجلاء وقوة . أما النزعة الثانية فهى امتداد العقل الى معرفة الموجودات الحسية واكتناه طبائع هذا الوجود الخارجى .

والوجود الخارجي هو هذه الاشياء المحيطة بنا ، وان عالمها ليضيق بضيق علم الانسان بميزاته ، وضئالة فهمه لصفاته، وقصور نظره عن استطلاع جهاته، ولكنه يجل و يتسع بمقدار احصاء المرء لشؤونه ، وتناول بيانه لهذه العبارات التي بمقدار وفرتها تنبيء ان الانسان على قلته قد اتصل بالكثير، وعلى ضعفه قد جابه من هذا الكون العسير، فصاغ للموجودات المسميات، وعرف منها ما كان نكرة لديه ، ووسم بألفاظه وأسمائه من مظاهرها ما كان خفياً عليه . ولا شك انه بقدر ما يبلغ الانسان من معرفة هذين العالمين ، وبقدر ما يتقصى النظر في مهامه هذين الكونين ، يكسب لسانه ويرقى بيانه . وفي الكتب المقدسة ان الله لما سوى آدم علمه الاسماء كلها . ولعل أبا البشر بلغ بتوفيق ربه درجة من العلم لا يفوقها الا علم الله . وذلك لأن معرفته لجهات النفس وعلمه باسمائها اذا أضيف اليه أسماء الموجودات الخارجية ومعرفتها كان ذلك كمال العلم . وفضل الله يؤتيه من يشاء

فكأن الاستاذ الزيات باختياره ترجمة هذه القصة التي استمدها كاتبها من جمال الطبيعة وجلال الايمان وشرف العاطفة قد حرص على ان يقرئنا صحيفتين فيهما دقائق الكونين من عالم الغيب والشهادة ، أو من عالم المعنى وعالم الحس . وبهذا الحرص قد خدم اللغة العربية أجل خدمة . وأي خدمة أعظم من ان يعين الانسان لغته على بلوغ دقة الوصف ورشاقته ، وتحليل الشعور ودقته ؟

* * *

ان الاوائل من العرب لم يغفلوا بعض الاوصاف فوصفوا الابل وسيرها والخيول وكرها ، ووصفوا أساليب القتال من مجاولة ومصاولة ، ومناظر الطبيعة

من سحاب وهضاب و بر و بحر ، ووصفوا الخمور ومزجوا بين بعض الاوصاف وألموا أحياناً بوصف حالات النفس من هيام وغرام ، أو زهادة وابتهال . لكن هذه الاوصاف التى توخوها لم تكن الاجزاء صغيرا علموا به القليل من حالات النفس ، وقدراً يسيراً كشفوه من مساحة هذا الكون الخارجى . فبعد مضى عصرهم امتدت معارف الانسان الى ارض غير هاتيك الاراضى ، والى سموات غير هاتيك السموات ، وتغيرت نفس الانسان وتطورت ، وكسبت من العلم ورقت ، وأصبحت الارض غير الارض ، والسماء غير السماء ، والنفس غير النفس. فاذا نقل الينا الناقلون كتاباً حديثاً يتضمن أوصافاً لارض غير التى ذكرها العرب ، ويحتوى مشاعر غير التى أحسها العرب ، فانهم بعملهم هذا يعدون فى لغتنا سبيلاً ، ويضيفون الى زهراتها زهراً ، والى نغماتها ألحاناً ، والى حياتها حياة

ان رفائيل أثر من آثار هذا العصر الحديث ، وثمرة من ثمار هذا الزمن المتأخر ، وهو آية من آيات فنه ، والهام نابغة من نوابغه ، قد اشتمل على التصوير الدقيق والتعبير الرقيق والخيال المتوثب . فلما تبينت ان لغتنا العربية لم تعجز عن نقل ما فيه من البدائع الحسية والمعنوية تذكرت ضجة قامت حديثا بين جماعة من أدبائنا يذهب بعضهم الى ان اللغة العربية دون غيرها من لغات الغرب فى تسمية الاشياء وتصوير المعانى . ويذهب البعض الآخر الى ان العربية قد وسعت المعانى كلها ، وتناولت جميع الاغراض من ذوات وأعراض . ويبدو لى ان الفريق الاول قد أحاطوا بالكثير مما دون الغربيون من علم وأدب وفن ، ولكنهم ألموا بالقليل مما احتوته اللغة العربية من العبارات ، وسجلته من الاصطلاحات ، فظنوا انها لا تطاول اللغات الاخرى ، فأثموا فى بعض هذا الظن ، ويئسوا من ان تحقق لهم العربية ما يجيش فى صدورهم من

المشاعر ، وما علموه وشهدوه من تباين الآيات ، وضروب الصناعات ، وشتى المخترعات . وكأن هذا الفريق فيما يراه فى أمر اللغة لايخلو بعضه من غيرة صادقة عليها ، ورغبة محمودة فى اعلاء منارها ، و بعضه عن افتتان بأدب الغرب فتنه عن لغته وأدبه ، و بعضه من جهل بما فى العربية من ثروة وقوة وعظمة ومن جهل شيئاً عاداه . أما الجماعة الذين أفرطوا فى الوثوق بخصائص اللغة العربية وحسبوا انها قاربت كمالها ، وكادوا يقولون فيها ليس فى الامكان أبدع مما كان ، فان أكثرهم ممن لم ينل حظاً من العلم بما فى آداب الامم ، وفاته ان فضل الله لم يكن ليتركز فى انسان ، ولا يحبس على مكان دون مكان . ولعل أشد ما ورط هؤلاء الجماعة فى هذه الدعوة نوع من العصبية المحمودة الاثر فى حفظ مشخصات الامم وتقوية مقوماتها ، أو نوع من التعصب عقيم ، وركون الى جمود ذميم . وعندى ان هؤلاء وأولئك لو أنصفوا أنفسهم لوجدوا انهم يقاتلون فى غير عدو ، وان ضجيجهم لو تأملوا ليس له مبرر ، لأن اللغة ليست الا نفوس الناس تتحرك فتجرى ألفاظاً على اللسان ، وتعابير فى الاذهان ، عند ماتدفعها الدوافع والحاجات ، وتهزها هزات التقدم وأسبابه ، وترنحها سكراته وتطربها نغماته . فلو ان نفوس القوم طاوعت حاجات الزمن لطاوعت لغتهم أموره ، ووسعت مراميه ، واحتالت الى ذلك بانواع النحت والاشتقاق ، و بعث ما كان مقبوراً ، وكشف ما كان مستوراً ، ولوجد كل قائل ما يقول

وخير برهان على ذلك ان قصة رفائيل التى نحن بصددها يقرأها الانسان عربية صحيحة على أسلوب العرب ، و بيان العرب ، وفيها رخامة الحانهم ورنات أوتارهم ، وهى تحمل الينا كل ما قاله وصوره كاتب من أكبر كتاب الفرنجة بلغة الفرنجة وأسلوبهم ولحنهم . أو يقول المتطرفون بعد ذلك ان اللغة جامدة ؟

أو يقول الجامدون بعد ذلك ان نفوسنا لا تتأثر بما تنقله الينا اللغة من مشاعر الغير وأساليبه فى تصوير الوجود ؟

* * *

بقى على ان أقول كلمة فى رفائيل من جهة الترجمة والتعريب . وتوطئة لذلك اثبت هنا ما نقله البستانى فى مقدمة الالياذة عن العاملى عن الصلاح الصفدى قال :

« وللترجمة فى النقل طريقان أحدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصى وغيرهما . وهو ان ينظر الى كل كلمة مفردة من الكلمات اليونانية وما تدل عليه من المعنى فيأتى الناقل بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها فى الدلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى أخرى كذلك حتى يأتى على جملة ما يريد تعريبه . وهذه الطريقة رديئة لوجهين أحدهما انه لا يوجد فى الكلمات العربية كلمات تقابل جميع كلمات اليونانية ، ولهذا وقع فى خلال التعريب كثير من الالفاظ اليونانية على حالها . الثانى ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لا تطابق نظيرها من لغة أخرى دائماً . وأيضاً يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهى كثيرة فى جميع اللغات .

الطريق الثانى فى التعريب طريق حنين بن اسحاق والجوهرى وغيرهما ، وهو ان يأتى بالجملة فيحصل معناها فى ذهنه ويعبر عنها من اللغة الاخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الالفاظ أم خالفتها . وهذا الطريق أجود . ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحاق الى تهذيب الا فى العلوم الرياضية لانه لم يكن قيماً بها . بخلاف كتب الطب والمنطق والطبيعى والالهى فان الذى عربه منها لم يحتج الى اصلاح »

ثم قال البستانى بعد ذلك : « وان هذين الطريقين اللذين أشار اليهما الصلاح الصفدى منذ زهاء ستة قرون هما المذهبان المعول عليهما فى النقل حتى يومنا . وليس وراءهما مذهب ثالث فى التعريب الصحيح »

وعندى ان الترجمة فن من أدق الفنون ينم عما للمترجم من سلامة الذوق و براعة القدرة ولا سيما فى الترجمة الادبية . وذلك لأن اللفظ الواحد فى لغة من اللغات قد يقابله لفظان أو ثلاثة فى اللغة المترجم اليها ، وقد يحصل ان اللغة المنقول اليها ليس فيها من الالفاظ ما يعبر عن معنى يحمله لفظ واحد

فى لغة أخرى . وفى هذه الظروف تظهر قوة المترجم وبراعته وفنه . اذ تراه يتخير من الالفاظ الكثيرة لفظاً دون آخر ، اما لأن ما اختاره يكون أدق من جهة المعنى ، واما لأنه فضلا عن دقته يكون أوقع من حيث الموسيقى والانسجام . وتراه أحياناً يقدم الفاعل على الفعل ، والخبر على المبتدأ ، ويؤخر جملة تقدمت ، ويقدم أخرى تأخرت ، دون ان يحيد عن القصد أو يخرج عن المعنى

ولقد وجدت فى ترجمة رفائيل ان الاخ شكر الله له جهوده جمع فى منهاجه فى الترجمة فضائل الاساليب جميعاً. فلم يفرط فى نظام الكلمات اذا سلم المعنى ، فكأنه توخى بذلك خير ما فى أسلوب ابن البطريق والحمصى ، ولم يفرط فى معنى اذا لزم الامر لتفريط فى مبنى ، فكأنه توخى بذلك خير ماجاءت به طريقة حنين والجوهرى . وبين تزويجه للطريقين قد أفاده تمكنه من اللغتين المنقول اليها والمنقول عنها ، فتخير الالفاظ وصقل الاسلوب وأدى الامانة بما يقتضيه الدقة والايجاز . والخلاصة ان الاستاذ الزيات كان فناناً فى نقله ، أميناً فى فنه ، موفقاً فى عمله

على اننى كنت أوثر ان يلتزم النقل[1] عن نسخة واحدة بعينها ، فان تفاوت الطبعات أدى لامرتين الى شىء من الزيادة والنقص فى بعض مواضع الكتاب ، ولذلك جاء بعضه منقولا عن نسخة والبعض عن أخرى ، و بين

---

(١) رأى لامرتين بعد الطبعة الاولى لرفائيل ان فى بعض الجمل شيئا من المبالغة أو بعضا من الحدة فتناولها بالحذف فى الطبعات التالية ثم غير فى تقسيم الفصول . وكان امامى ساعة الترجمة هاتان الطبعتان ، فكنت أوافقه مرة واخالفه أخرى ابتغاء الجمع بين فضيلتى النسختين . أما عناء المتعقب بجانب هذه الميزة فيهون

المترجم

الاصلين تفاوت يقتضى لمن يريد ان يراجع الترجمة ان يعالجها من نسختين وفى ذلك مافيه من مشقة . على ان عدم الحرص على نسخة واحدة لم يخرج المترجم الفاضل أبدا فى مواضع الزيادة أو مواضع النقص عن قول المؤلف وعمله . ولم يكن فيما لم يحرص عليه مقترفا صغيرة ولا كبيرة

أسأل الله للأخ الكريم ان يوفقه فى عمله ، ويمد فى أجله ، لينقل الينا كثيراً من هذه الروائع الادبية ، فان الله قد خصه بما لم يخص به الكثيرين من النقلة من الوقوف على سر اللغات ، وآتاه من القدرة على صحيح الترجمة وفصيحها ما لم يؤته الكثير من متعاطيها ، فلا يسعنى الا ان أرجوه ان ينقل الينا الكثير والكثير ، فانما ينقل بذلك لغتنا العربية الى خطوات فى سبيل تقدمها فضلا عما يغذى به عواطف شبابنا وعقول شيوخنا من هذه الثمرات الشهية ، والزهرات العطرية ، التى تفتحت فى رياض الغرب فكان لكل قطر من شذاها نصيب ؟

منصور فهمى

الإهداء

أخوىَّ الحبيبين «ع . س» و «ح . س»

اسمحا لى أن أقدم الى حبكما الخالد هذا الكتاب الخالد . فان لكما جميل الأثر فى اشراق سطوره، وانبثاق نوره : فمن عينك الساجية يا أختاه فهمت لغة الدموع ، ومن نفسك الصافية أدركت معنى الحساسة ، ومن قلبك الفياض أحسست طهر المودة ، ومن لسانك العذب اقتبست هذا البيان

أما أنت يا أخىَّ فمن نظرتك الوديعة فهمت جمال الطيبة ، ومن بسمتك الرقيقة استشعرت اخلاص الأخوة ، ومن ملامح وجهك الأبلج عرفت دلائل النبل

فأنتما صورة ما فى هذه الصحائف المشرقة من عواطف كريمة ، ومواقف عظيمة ، وشمائل حلوة ؛ ولولا أن عليكما طابع الشرق الجميل ، لقلت إنكما چوليا ورفائيل

ا . الزيات

٢٠ مارس ١٩٢٦

فاتحة الكتاب وخاتمة رفائيل

ليس رفائيلُ اسم ذلك الصديق الذى كتب هذه الصفحات ، وانما هو علَمٌ كنا كثيراً ما نطلقه عليه مزاحا ودُعابة ، لانه كان وهو فى صدر شبابه ورونق يفاعته شديدَ الشبه بصورة لرفائيل [1] وهو غلام ، تجدها بروما فى ايوان بَرْبرينى ، و بفلورنسا فى قصر بِتّى ، و بفرنسا فى متحف اللُّوفْر . كذلك كنا ندعوه بهذا الاسم لان أخص صفاته ، وأظهر مميزاته ، شعور قوى بالجمال فى الطبيعة والفن ، حتى لكأنَّ نفسه مرآة للجمال الحسى أو المعنوى المبثوث فيما خلق الله وفيما صنع الانسان . ومرجع ذلك فيه الى حساسة بارعة كادت تبلغ حد المرض لولا أن كف من غَرْبها الزمن ؛ فكنا نقول ان به مرض السماء ، اشارة الى ما يسمونه مرض الوطن ، وهو ما يأخذ الغريب من الوحشة والهم لفراق سكنه ووطنه . وكان هو يوافقنا على ذلك فى ابتسامة رقيقة

---

(١) رفائيل صنزيو هو أشهر المصورين وأقدر المثالين فى المذهب الرومانى . تمثلت فيه وفى صاحبيه ليونار دفنشى وميخائيل أنج عبقرية الفن فى عهد النهضة . وكان له المكان الاسمى فى بلاط البابيين يوليوس الثانى وليون العاشر . وقد شارك فى زخرفة الفاتيكان وترك على قصر عمره من الروائع الفنية ما ظفر بالتخليد ، وعز على التقليد . ولد بأربينو سنة ١٤٨٣ وتوفى عام ١٥٢٠ ودفن بالبنطيون .

على أن هذا الحب الذى شغف قلبه للجمال كان طريقاً الى بؤسه وشقوته ، ولو كان فى غير حاله لكان سبيلا الى نبوغه وشهرته . فلو أنه أمسك الريشة لصوَّر « عذارى فُولِجنُو[1] » ، أو استعمل المِنحت لمثَّل « بسيشّيه كانوفا[2] » ، أو كان يعرف لغة الالحان لدوَّن رفيف الريح البحرية تهبُّ آنَّة شاكية على ألياف الصنوبر فى ايطاليا ، أو أنفاسَ الفتاة الناعمة النائمة تحلم بمن لا تريد أن تسميه ؛ ولو أنه كان شاعراً لكتب مناجاة أيوب لله ، وموشحات هِرمينى لتاس[3] ، وحديث رميو وجوليت فى ضوء القمر لشكسبير ، وصورة هيدى للورد بيْرن . وكان حبه للخير لا يقل عن حبه للجمال ، الا أن حبه للفضيلة كان لجمالها لا لكمالها ، وانفاستها لا لقداستها . وما كان الطمع ظاهراً فى أعماله ، ولكنه كان باطناً فى خياله . فلو أنه عاش فى عهد الجمهوريات الاولى أيام كان الرجل ينمو كله فى جو الحرية كما ينمو الجسم المرسل فى الهواء الطلق والشمس الضحوك ، اذن لرقى رقىَّ قيصر[4] ،

---

(١) هى صور مختلفة للعذراء صورها رفائيل لكاتدرائية فولجنو احدى المدن الايطالية

(٢) فى الميتولوجيا ان بسيشيه فتاة بارعة الجمال أحبها أمور . وقد افتن المصورون والمثالون فى تصويرها وتمثيلها . ومن هؤلاء انطوان كانوفا المثال الايطالى (١٧٥٧ — ١٨٢٢ م) فقد نحت لهما تمثالين من المرمر يمثل احدهما أمور مطوقا بذراعه خصر بسيشيه وهو يريها فراشة ، ويمثله الاخر ممسكا بها يمنعها من السقوط فى هاوية

(٣) تاس شاعر ايطالى قدير له كتاب خلاص أورشليم وهو من البدائع الخالدة ولد فى سورنت سنة ١٥٤٤ وتوفى بائساً فقيراً سنة ١٥٩٥

(٤) يريد يوليوس قيصر القائد الرومانى العظيم

ولتكلم كلام ديمستين[1] ، ولمات ميتة قاطون[2] . ولكن جدّه المهيض العاثر قعد به على الرغم منه فى دَعة البطالة وعزلة التأمل ؛ فكان له جناح يبسطه و ينشره ، دون أن يجد حواليه هواء يحمله ويُطَيره . ثم مات غريضَ الشباب وهو يلتهم الفضاء بالنظر دون أن يظفر منه بمجال ومَسْبَح !

لقد كان هذا العالَم فى دنياه حُلما ، فعسى أن يكون هـذا الحلم فى أخراه حقيقة !

أرأيت صورة الفتى رفائيل التى حدثتك عنها منذ قليل ؟ انها صورة غلام ناشئ فى السادسة عشرة من عمره ، على وجهه أثر من الشحوب وسَفْعَة قليل من شمس روما ، ولكن خديه لا يزال عليهما رُواء الصبى وزَغب الطفولة ، وكأنما يتألق بريق من النور على خَمَل بشرته . مِرفقه متكئ على

(١) ديمستين اشهر خطباء اليونان . ولد بأثينا سنة ٣٨١ ق م وأعجب وهو صغير ببلاغة الخطباء وتصفيق الناس لهم فتاقت نفسه الى التشبه بهم فسخر الناس منه لسقم عبارته وضعف صوته ولثغة لسانه . فكاد ييأس من نفسه لولا أن شجعه ساتيروس الممثل الشهير وأفهمه أنه لاينقصه الا حسن الاداء واجادة الالقاء . فابتنى حجرة تحت الارض واختفى فيها ليمرن لسانه . وكان يحلق نصف رأسه ليرغم نفسه على ملازمة تلك الحجرة . وكان يصعد الجبل عدوا أو يرقى صخرا على ساحل البحر وهو يلقى ابياتا من الشعر وفى فمه بعض الحصى ليحل عقـدة لسانه . وظل على تلك الحال سنين حتى ملك اعنة القلوب بفصاحته ، ووقف فى وجه فيلبس يدافع عن حرية بلاده ، ويذود عن استقلال شعبه ، توفى سنة ٣٢٢ ق م

(٢) قاطون دوتيك هو حفيد قاطون انسين ولد سنة ٩٥ ق م وشهر بدفاعه عن الحرية أمام استبداد قيصر . ثم اخترق جسمه بسيفه على أثر هزيمة طبسوس سنة ٤٦ ق م ، فكانت حياته وموته رمزاً لشجاعة القلب ، ورباطة الجأش ، وشرف النفس

منضدة ، وساعده منتصب تحت فوْده الأيمن فاستراح الرأس على راحته ، وأصابعه الجميلة الوضع قد طبعت على الذقن والخد خطاً خفيفاً أبيض . أما الفم فرقيق ساهم حالم ، والأنف دقيقٌ ما بين العينين ضارب قليلا الى

هذه صورة رفائيل التى سيصفها لامرتين وهى من أبدع ما خطته يد فنان . نقلت عن الاصل المحفوظ فى متحف اللڤر ، ولكن لم يستطع الحفار وا أسفاه ان يظهر منها الا هذا الخيال المشوه

الزرقة ، كأنما رقة البشرة شفَّت عن لازَوَرْد الوريد ؛ والعينان ذواتا لون أزرق صاف قاتم كلوْن سماء الابينين قبـل الفجر ، تنظران الى الأمام فى

طموح قليل الى السماء ، كأنما تتبصران ما هو أسمى من الطبيعة ، وهما مشبّعتان الى أقصاهما بالنور ، مخضلّتان قليلا من الأشعة المغموسة فى رُضاب الندى أو فيض المدامع ؛ والجبهة قوس يكاد يتم عقده ، ترى من ورائها اختلاج عضلات الذهن تحت البشرة الناعمة الرقيقة ؛ والصدغ مفكر ، والاذن منصتة ، والشعر مرسل فاحم مقصوص لاول مرة على غير انتظام ، يلقى شيئا من ظلاله على الخد واليد ؛ وعلى الرأس قَلَنْسُوةٌ صغيرة مسطوحة من القطيفة السوداء تغطى أعلى الناصية ثم تسقط على الجبهة . فمن مر أمام هذه الصورة تفكر ثم اكتأب دون أن يعرف سببا لتفكره واكتئابه . تلك عبقرية ناشئة تحلم على اعتاب القدر قبل أن تدخل ، ونفس شابة واقفة على أبواب الحياة تفكر فيما تقبل عليه ، وفيما تصير اليه

اذا علمت ذلك فأضِف ستة أعوام على عمر هذا الصبي الحالم ، ثم وضّح هذه الملامح ، ولوّح هذا اللون ، وغضّنْ تلك الجبهة ، وكوّم هذا الشعر ، واكسر هذا النظر ، وارسم الأسى على تلك الشفة ، ومد هذه القامة ، وأبرز تلك العضلات ، واستبدل بهذه الحلة الايطالية التى ترجع الى عهد ليون العاشر حُلة قاتمة ذات شكل واحد لفتى نشأ فى عهد البساطة بين القرى والحقول ، لا يريد من الثوب الا أن يستره فى حشمة ؛ ثم امسح على هذه الهيئة كلها بشىء من النحول الناشئ من ادمان الفكر ، أو الحاح الألم ، يكن لك من مجموع ذلك صورة صادقة ناطقة لرفائيل وهو فى العشرين من عمره

كانت أسرته فقيرة على طول ما أقامت فى جبال فوريز منبت أرُومتها

ومدرج طفولتها . فأبوه كان من رجال الحرب ، ألقى السيف وأخذ المحراث على نحو ما يفعل أشراف اسبانيـا ، ولم يبق له من كرامة ولا وجاهة ولا اعتبار الا فى الشرف الذى رجح عنده بكل شىء . وأمه كانت لا تزال شابة جميلة يحسبها الناظر لمشابهتها اياه أختـاً له . ربيت فى حجر الترف ، وتقلبت فى أعطاف النعيم ، وشبت على أناقة الحاضرة . ولكنها لم تحتفظ من هـذه النشأة الا بعبير اللهجة وخلابة المنطق . فلما نُفيت الى هـذه الجبال وعاشت بين زوج نالت به حاجة قلبها وبغية حبها ، وأولاد وجدت فيهم كل رضاها وغاية فخرها ، لم تأس على ماض ولم تسخط على حاضر ، وانما طوت كتاب شبابها الجميل على هذه الكلمات الثلاث : ربها ، وزوجها ، وأولادها . وكانت تختص رفائيـل بحبها واعزازها ، وتود لو كانت تملك تصريف القدر فتجعل حظه حظ ملك . ولكنها وا أسفاه ! ما كانت تملك غير قلبها أداة لرفعه ، ووسيلة لنفعه . فعارض القدرُ أملها باليأس ، وقوض الدهر بناء حظها حتى الاساس من ثروة ضئيلة ، وأحلام جميلة !

وكان حينئذ شيخان من رجال الكنيسة قد اعتصما بهذه الجبال بعد عهد الارهاب بزمن يسير فرارا من المضطهدين الذين يتعقبونهما لاعتقادهما آراء فى التصوف لا أدريها . فوجدا فى بيت هذه الأم ملاذاً وحمى ، وأحبا رفائيل وهو يومئذ فى حجرها ، وتنبآ له نبوءة ورصدا له كوكبا وقالا لها : « ارعى بقلبك هذا الطفل » والأم من طبعها أن تعتقد . فكان هـذا الاعتقاد سندها فى البأس ، وأملها فى اليأس ؛ الا أنه حمّلها فى سبيل تربيته

فوق طاقتها ، ثم تكشف لها برقه عن سحاب خلَّب ووعد كذوب

عرفت رفائيل وهو فى الثانية عشرة من عمره ، فتساهمنا الوفاء ، وتقاسمنا الود ، حتى كنت أحَبَّ الناس اليه بعد أمه . ولما قضينا عهد الدراسة عدنا فتلاقينا فى باريس ثم فى روما . وكان قد أقدمه اليها قريب لأبيه لينسخ معه كتبا مخطوطة من مكتبة الفاتيكان . ومن ثَمَّ وقع فى نفسه الميل الى اللغة الايطالية وأدبها فتفقهها وأتقنها اتقانه للغته . ثم كان كثيرا ما يرتجل مقطوعات من الشعر الرقيق ، ونحن فى ظلال الصنوبر من مدينة بمفيلى ، والشمس راقدة على سرير الشفق تودع النهار ، والسهل ممتلىء بعظام روما ورفاتها ، فيهيج أشجانى و يستدر حوالب عينى . ولكنه ما كان يدون شيئا مما يقول ، فسألته مرة : « لماذا لا تكتب شعرك يارفائيل ؟ ؟ » فأجابنى قائلا : « عجبا ! وهل يكتب الهواء ألحانه التى تسمعها من هذه الأوراق المازجة ؟ أم هل يكتب البحر أنينه الذى يلفظه على كُثبانه وشُطئانه ؟ لا جمال فيما يُكتب . وان أقدس شىء وأنفسه فى قلب الرجل لهو المكنون الذى لا يظهر . الآلة من لحم واللحن من نار ! فماذا أنت صانع ؟ وان بين ما تحسه وبين ما تعبر عنه من البعد لَمَا بين النفس وحروف الهجاء ، أعنى اللانهاية . فهل تريد أن توقع على ناى من القصب أنغام الفلك ؟ »

ثم تركت رفائيل ، وعاد القدر فلف به شملى فى باريس . لقيته يبحث بحث المُغَنِّى الخائب عن عمل يخفف أعباء نفسه ، و يفرج ضائقة تحسه . وكان الشباب من أترابنا يطلبونه و يبحثون عنه ، والنساء ينظرن اليه وهو مارٌّ

بهن فى الشارع نظرة ذى علَق . ولكنه أبدا لم يغش أبهاء السمر ولم يحب من النساء غير أمه . ثم فقدنا أثره وجهلنا خبره على حين بغتة مدة ثلاث سنوات كاملة . ثم علمنا من بعد أن ناساً رأوه فى سويسرا ، وفى المانيا ، وفى سقْوا ، ثم فى باريس أثناء الشتاء يقضى هزيعا من لياليه على جسر من جسور السين ، أو على رصيف من أرصافه . وكان ظاهره ينم على الفاقة والعوز ، ولكننا لم نستبطن دخيلة أمره وحقيقة فقره الا بعد سنين . كان وهو غائب متَّجه افكارنا ، وموضوع أحاديثنا ، لانه من الافذاذ القلال الذين يتحدونك أن تنساهم ، أو تشغل عنهم بسواهم

ثم ضرب الدهر بيننا ، وصدع البين شملنا ، فلم نلتق الا مصادفة بعد فراق اثنى عشر عاما . واليك كيف كان ذلك : كان لى فى اقليمه إرث ، وكان من هذا الارث قطعة أرض أريد أن أبيعها ، فلما بلغت هذه البلاد تنسمت خبره ، فقيل لى انه فجع فى أبيه وأمه وزوجه على فترات من السنين . ثم أصيب فى ثروته ، بعد مصابه فى أسرته ، فلم يبق فى يده من ملك آبائه الا مسكن من برج عتيق مربع مهدم يشرف على واد من الأودية ، والا حديقة وبستان ومرْج فى هذا الوادى ، وخمسة أوستة فدادين من نكاد الارض يفلحها هو نفسه على بقرتين عجفاوين ، فما يميزه من جيرانه الفلاحين غير الكتب التى يحملها معه الى الحقل . ولكنه منذ بضعة أسابيع احتبس فى طلله البالى فما عاد يبصره أحد . فظن الناس أنه ربما استأنف تلك الرحلات الطويلة التى كانت تستغرق سنين . وسارت كلمات الاسف على أفواه العارفين به

والمتنفعين منه ، وقالوا : « ان فراقه بلاء على الجيرة وأهل الحى ، فقد كان على فقره يُفْضِل عليهم افضال الغنى ، وكثير من الفُرش الجميلة فى هذه البلاد منسوج من أصواف ضأنه ، وكان فى المساء يعلم أطفال الضياع المجاورة القراءة والكتابة والرسم ، ثم هو يدفئهم بناره ، ويطعمهم من خبزه ، والله يعلم هل يَفْضُل عنده بعد اطعامهم شىء يأكله اذا ما نقص التمر وقل الحصاد كهذه السنة العجفاء »

بهذا اللسان كان القوم يحدثوننى عن رفائيل . فأحببت أن أزور على الاقل مسكن هذا الصديق القديم . فاقتادنى اليه بعض الناس حتى بلغ بى سفح الاكمة التى قام عليها برجه الاسود تكتنفه اصطبلات واطئة فى وسط أيكة من شجر البقس والبندق . فاجتزت مجرًى ناضبا من مجارى السيل على جذع شجرة ، وصعدت الى البرج فى طريق لاحب[1] من الحجارة ، فرأيت على جانب جديب من الهضبة بقرتين وثلاث غنمات ترعى فى حراسة شيخ كليل البصر يذكر الله على سبحته وهو جالس فوق شعار منحوت من الحجر قد سقط من عقد الباب . فتقدمت الى هذا الشيخ واستفهمته عن رفائيل ، فقال لى : انه ما سافر ، وانما اعتراه مرض ثقيل ألزمه الفراش منذ شهرين ، وهو يرى أنه لا يخرج من هذا البرج الا الى تلك المقبرة . ثم أشار الشيخ بيد عارية الاشاجع[2] الى الهضبة المقابلة فرأيت فوقها المقبرة .

(١) الطريق اللاحب : الواضح

(٢) عارى الاشاجع : قليل لحم الكف . والاشاجع اصول الاصابع

فسألته أوَ يستطيع أحد أن يراه؟ فقال ولم لا ؟ اصعد الدرّج واجذب رتاج الباب على الشمال ينفتح لك عن القاعة الكبرى ، فادخل تجده ممدداً على سريره وديعاً كالملاك ساذجا كالطفل »

قال ذلك وهو ينهنه دمعه المسفوح بظهر يده . فصعدت سلما خارجيا وعرا يستند الى جانب البرج ، وينتهى برحبةٍ صغيرة عليها سقف من الخشب والطوب تناثرت قراميده فوق بلاط السلم ، ثم جذبت الرتاج الى الشمال ودخلت فاذا منظر لا انساه ما حييت : غرفة واسعة تشغل مساحة الفراغ الذى بين الحوائط والبرج ، بها شباكان كبيران ذوا قواطع من الحجر ، زجاجهما المغبَّر المكسر مُدْخل فى مربعات شطرنجية معيَّنة من الرصاص ، وهى مرصوفة بالطوب مسقوفة بجذوع غليظة من الخشب قد اسودت من الدخان ، ومدفأة مرتفعة ذات قوائم من الخشب المضلع فى غير دقة ، تدلى من علاقة فيها قدر مملوءة من البطاطس تحتها حطبة تحترق من طرفها . وليس فى هذه الغرفة من أثاث غير كرسيين عاليين مسندهما من الخشب المصقول ، وظهارتهما من قماش رمادى احتُمل[1] لونه فما تستطيع ان تعرف أصله ، ومنضدة كبيرة على جانب منها خبز ملفف فى خوان ، وعلى الجانب الآخر أوراق وكتب مبعثرة مهوشة ، ثم سرير ذو أعمدة نخرة ، وستور من الصوف الازرق المفوّف قد

---

(١) احتمل لونه : تغير

حصرت حول الاعمدة حتى تأذن للنسيم ان يدخل من الشباك المفتوح ، وللشمس ان تلقى اشعتها على اللحاف المنشور ، ورجل جالس على حافة هذا السرير لا يزال فى ربيع العمر ولكنما شفه السقم ، وبراه البؤس ، فماد من الهزال مثل الخيال . كان حين فتحت عليه الباب يفتت قطع الخبز لسرب من أفراخ الدُّورى والسنونو ، يضطرب ويموج على أرض الغرفة تحت قدميه . فلما أحست العصافير وقع قدمى طارت فوقعت على رفرف القاعة وفوق سماء السرير ، وعرفتُ رفائيل من خلال شحوبه ونحوله . فان صورته وان فقدت صباحتها ، لم تفقد سماحتها ، وان ذهب عنها جمال الحياة ، فقد بقى عليها جمال الموت . وكان شعره الاسود يتهدَّل حِلَقا فوق كتفيه كما يتهدل شعر الحراث بعد عناء اليوم ؛ وكانت لحيته طويلة مرسلة ، قد نبتت على نسق طبيعى متعادل ، فتركتك ترى جمال مقطع الشفتين ، وبروز الوجنتين ، وتقوّس العينين ، وتجويف الصُّدغين ، وبياض البشرة ؛ وعليه قميص مفتوح عن صدر ناحل شديد العضل والعصب ، فلو تركه الوهن ينتصب لأكسب هيأته جلالا وعظمة

عرفنى من أول نظرة ، فخطا الى خطوة وذراعاه مبسوطتان يريد أن يضمنى الى صدره ، ولكنه سقط على حافة السرير ، فبادرت اليه وكلانا لا يملك سوابق دمعه . ثم تحدثنا فقص على تاريخ حياته وهو سلسلة متصلة من الاخفاق والخيبة . فتارة بالفقر الذى قصم جناحه ، وأفسد صلاحه ، وتارة بالموت الذي حال بينه و بين اقتطاف

الزهرة أو اجتناء الثمرة ؛ ثم حكى لى فجيعته بأبيه وأمه وزوجه وولده ، وكيف وماه الدهر فى عمله بالخذلان ، وفى أمله بالحرمان ، حتى خلعه بالقهر من ملك أبيه ، وألجأه الى هذه العزلة فى هذه الانقاض الباقية من بيت الأسرة ، لا أنيس له الا هذا الراعى الهرم الذى يخدمه من غير أجر ، ابقاء لحرمة البيت وإرعاء على مجد أهله . ثم ذكر لى ذلك السقم الذى تخوّنه وأذواه وسيسقط به على الموت اذا ما سقطت أوراق الخريف ، فيدفن فى مقبرة القرية التى ضمت عظام آبائه وأحبائه . ثم قال وهو يشير بأصبعه الى صف الطيور الواقعة على رفرف السرير : « أتدرى ما الذى زاد همه على كل هم ، وفاق ألمه كل ألم ؟ هى هذه العصافير المساكين التى اتخذت منها خُلَصائى ، وجعلتها آخر أهل ولائى : انها ستبحث عنى فى الربيع المقبل فلا تجد لى ريحا ولا تحس منى حركة ، وان ترى بَعْدُ ذلك الزجاج المكسر فتدخل الغرفة من خلاله ، ولا ذلك الكتان المتساقط من حَشِيَّتى على الارض فتبنى عشها من نُساله . على أن الحاضنة التى أوصيت لها بما تركت من رزق يسير ستُعْنَى بهذه الطيور ما دامت حية ، — وفى ذلك بعض العزاء — فاذا ما فارقت الحياة بقى لها الله الذى لا يحرم الصغار ولا الضعفاء نعمة الأكل والماء . وكان الحنان باديا فى حركاته وكلماته وهو يتحدث عن هذه الطيور الصغيرة ، فكأن رقة قلبه لما عزها الخلوص الى الانسان ، لجأت بعطفها وبرها الى الحيوان . ثم قال : أتلبث فى هذه البلاد زمنا ؟ فقلت له نعم . فقال : حسن ! انك اذن ستغمض عينى ، وسأكل اليك

أن يُشَق ضريحى فى أقرب الاماكن الى ضريح أمى وزوجى وولدى » ثم طلب الى أن أدنى منه صندوقا كبيرا من الخشب المنقوش كان مطمورا تحت عِدْل من أعدال الذرة فى إحدى زوايا الغرفة . فوضعت الصندوق على السرير وأقبل هو عليه يخرج منه رِزَماً من الورق ظل يمزقها نصف ساعة وهو صامت . ثم رجا من حاضنته أن تلقى بجذاذاتها فى النار أمامه . وكان فى هذه الأوراق طائفة كبيرة من الشعر فى كل اللغات ، وصفحات كثيرة فى موضوعات متفرقة وأوقات مختلفة كأنها ذكريات . فسألته على استحياء لماذا تحرق كل هذا ؟ أليس للرجل بجانب ميراثه المادى ميراث أدبى يتركه لمن بعده ؟ ربما تحرق فيما تحرق خواطر وعواطف تبعث فى بعض النفوس الحياة والقوة » فقال : « دعنى أفعل . فحسب هذا العالم ما فيه من دموع . ولا جدوى على الناس فى أن نضيف الى تلك العبرات هذه القطرات . ان هذه الاشعار ريش قريحتى الشابة العابثة ، وقد نَسلَتْهُ من زمن واستقلت أجنحة الابد » ثم استمر يمزق ويحرّق وأنا فى أثناء ذلك أتأمل المزارع الجدباء من خلال الزجاج المحطم . ولما فرغ من ذلك دعانى اليه وقال : « خذ هذا المخطوط الصغير فانقذه وحده ، فليس لى جَلَد على إحراقه . ولو تركته بعدى لاتخذت حاضنتى من أوراقه أكياساً لبذورها ، وأنا ضنين بالاسم الذى يملأها على الهوان والدنس . خذه واحتفظ به حتى تعلم أنى مت فيكون لك الخيار حينئذ إما أن تحرقه وإما أن تتركه الى أن يبلغك الكبر فتجد فى

قراءته الحين بعد الحين ذكرى صديقك

فأخذت الملف وغيبته فى ثيابى ، ثم خرجت وفى نفسى أن أعود اليه غداً وفى كل يوم لأخفف عنه بالعناية والحديث عبء أسقامه ، فى أخريات أيامه . وما كدت أتوسط السلم حتى رأيت زهاء عشرين طفلا يحمل كل منهم بابوجه[1] فى يده ، وهم يصعدون الدَّرَج ذاهبين الى رفائيل يأخذون عنه الدروس التى حرص على تلقينهم اياها حتى على سرير موته . ثم أبصرت على بعد منهم قسيس القرية آتياً يقضى صدر الليل بجانبه ، فحييته فحيانى وبه ما بى من الأسى والحزن . ولما عدت فى اليوم التالى الى البرج كان رفائيل قد استوفى فى الليل أنفاسه وقضى نحبه ، وكان ناقوس القرية المجاورة قد بدأ يدق دقة النعى ، والنساء والاطفال قد خرجوا من دورهم باكين معولين ينظرون الى جهة البرج ، ورجلان يحفران الارض فى حقل صغير أخضر بجانب الكنيسة يشقان فيه ضريحاً تحت صليب ! . . . . . فدنوت من الباب فرأيت غمامة من عصافير السنونو تطير نائحة حول الشبابيك المفتحة ، لا تَفْتُرُ عن الدخول والخروج ، كأنما اجتاحت أعشاشَها جائحة . ولما قرأت هذا الكتاب فهمت لماذا ألِف رفائيل هذه العصافير ، وماذا كانت تبعثه من الذكرى فى قلبه ، حتى ساعة لقاء ربه !

---

(١) البابوج : القبقاب أو الصندل

رفائيل

١

ان من الأمكنة والأجواء والساعات والفصول والظروف الخارجية لَمَا يتصل سلكه بحبات القلب ومشاعره ، حتى لتخال الطبيعةَ جزءاً من النفس ، والنفسَ جزءاً من الطبيعة ؛ فاذا فصلت المسرح عن الرواية والرواية عن المسرح ذوى المشهد وانمحت العاطفة . جَرّد رِنيه من شواطئ بريطانيا الصخرية ، وأتالا من مُروج الصحراء الوسيعة ، وآلام فرتر من أندية السُّواب الكثيفة ، وبول وفرجيني من غوارب الماء المشبَعة من الشمس ، وجبالِ المرْن الناضة من الحرارة ، فانك لا تفهم شاتُبريان ولا جوتَ ولا بِرْنَرْدَنْ دُ سَنْ بيير

ان بين الأماكن والأشياء علاقة وُتقى ، لأن الطبيعة واحدة فى قلب الرجل وفى عينه . انما نحن أبناء الأرض ،

وما يجرى فى عُصارتها من الحيـاة هو نفسه ما يجرى فى عروقنا منها ، وما تحسه هى وتقوله لأعيننا بلسان مناظرها ووجوهها ، وطلاقتها وعبوسها ، يتبين فى نفوسنا رَجْعه وأثره . هيهـات أن تستـكْنهَ عاطفة فى غير موضعها الذى نبتت فيه واستقرت به !

٢

هناك لدى مدخل سفْوا — وهو ذلك التيه الطبيعى لتلك الأودية العميقـة المتحدرة الى سويسرا وفرنسا تحدُّر مدارج السيول على جبال سَمْبلون وسَنْ برنار وَسنيز — ينحلُّ من عقدة جبال الألب وادٍ فسيح الرقعة قليل الوعورة ، يشق له بين المخاضر والأنهـار والبحيرات طريقاً الى چنيف وأنيسى بين جبـل القط وجبال بُوج الحائطية . فاذا أبصرت عن شماله رأيت ضِلَعا من جبل القط قد نتأ على امتداد فرسخين ، فضرب فى السماء قاتمَ اللون ، واحد الشـكل ، موطأ الذروة ، تحسبه سوراً متسع العرض قد مرَدُوا سطحه على خيط بنّاء . ثم تكاد لا تجد ما يقطع هذا التماثل الهندسى الاسنَّين أو ثلاث أسنانٍ برزن من صخرة شهباء فى طرفه الشرقى ، فدللن الأعين على أن ليس ليـد الأنسان عمل فيـه ، وما كان لغير يد الله أن تعبث بهذِى الجروم . أما سفح هذا الجبل

من ناحية شمبيرى فيمتد فى أحشاء السهل فى سلاسة ولين ، ثم يترك وراءه وهو يهبط درجات وهضبات تُغَشيها أشجار التنُّوب والجوز والشاهبَلُّوط[١] ، وتوشّج[٢] بينها أغصان الكروم العارشة. فاذا سرحت بصرك فى هذه المَخْضَرَة الموحشة الملتفة رأيت خلالها المنازل الريفية تلوح بيضاء على مسافات بعيدة ، والقبابَ العالية تظهر شمّاء فوق القرى الحقيرة ، والابراجَ البالية تبدو سوداء فوق القصور المشَرَّفة[٣] العتيقة. وفى قرارة ذلك المنحدر الأوهد تبصر السهل وقد كان فى غابر الدهر بحيرة فيحاء لاتزال تحفظ من شكلها الأول غَوْرَها المطمئن ، وشُطْئانَها المتعرجة ورءوسها البارزة ؛ غير أنها استبدلت بأمواجها الزرقاء أمواجاً من خُضرة الجوز ، وحُوَّة المرج ، وصفرة الحصيد. ثم تقوم فى سُرَّة هذا الوادى الأبطح بضعةُ نجود كانت فى عهدها الأول جُزُراً ، وفوق تلك النجود منازل يجللها يبيس النبت، ويظللها وريق الشجر. ثم ترى من وراء هذا الحوض الناضب جبل القط وهو على أشد ما يكون إجداباً ووعورة ، قد طعن فى أديم السماء بروْقيه[٤] ، وخوَّض فى بحيرة صافية الماء بقدميه . وتلك البحيرة

---

(١) الشاهبلوط : أبو فروة (٢) توشج بينها : تشبكها (٣) المشرفة : ذات الشرفات (٤) الروق : القرن

تطول على التقريب ستة فراسخ فى عرض يتراوح بين فرسخ وثلاثة. تراها وهى تتجه الى فرنسا وعرة الشاطئ جرداء الساحل، فاذا ما اتجهت الى سَفْوَا رأيتها على النقيض من ذلك تطمئن وتندغم فى أجوان وخلجان تُغَشِّي جانبيها الغياض والرياض، وتكتنفها العرائش والكروم، حتى تنمحى عند رَجْع البصر فى صخور شاتليون، وهنالك ينصب طفح مياهها فى نهر الرون. وفى الجانب الشمالى يقوم على قاعدة من الحجر الصفوان[1] دير (الهتْكُمب) — وهو مدفن الأمراء من آل سفوا — فيُلقى بظلال أسواره على أمواج هذه البحيرة. وذلك الدير قد احتضنه جبل القط فوقاه الشمس فأمسى فى ظلمة متصلة تذكرنا ذلك الليل الأبدى الذى غَشِيَ هؤلاء الأمراء وقد هبطوا من عروشهم الى هذه الرموس، اللهم الا فى الطفَل[2] فتلقى عليه الشمس نظرة فيَمِيض فى جنباته بريقٌ من النور كأنه يُظْهر للناس مرفأ الحياة آخر اليوم

وعلى وجه البحيرة وتحت صخور الجبل تنساب زوارق الصيادين من غير شُرُع، فتتشابه ألوانها بألوان الصخور لتطاول عهدها وقِدَم حواشيها. وفى السماء ترى أسراب النسور الشهب

---

(١) الصفوان : الصلد الاملس (٢) الطفل : قبيل غروب الشمس

لا تفتُرُ عن التحليق فوق الزوارق والجنادل ، كأنما تريد أن تنازع الشباك على قنائصها ، أو تنقضُّ فوق الطيور الصائدة التى تقتفى أثر القوارب على طول الشاطئ .

٣

على مقربة من هذه البحيرة تجد مدينة إكْس ينعقد فوقها الدخان ، ويرتفع منها الضجيج ، وتسطع فى الأنوف روائح مياهها الحارة الكبريتية . وهى طبقات صاعدة على حَدورِ ربوة واسعة من الكروم والمروج والبساتين ، يصل ما بينها وبين البحيرة درب طويل مظلل الجانبين بأشجار الحور العتيقة ، تحسبه مَخْرَفَة من مخارف السَّرْوِ التى تدفع الى المقابر فى تركيا . وعن يمين هذا الدرب وعن شماله تبصر المروج والحقول تخترقها أخاديد السيل حَصِبَةً ناضبة ، وتظللها أدواح الجوز الباسقة تتدلى على أفنانها عساليجُ الكرْم وعناقيده العارشة . فاذا لقى البصر فُرْجةً بين أوراق الجوز وأعناب الكرم أخذ منظر البحيرة الزرقاء ، وقد اختلفت على وجهها ألوان السماء باختلاف ساعات النهار : فمن صفو وطلاقة ، الى عبوس وشحوب

ولما حللت هذه المدينة كان سواد المصطافين قد رحل .

وأمست الفنادق والأندية بعد ازدحامها بالسافرة وأهل البطالة خلاءً مقفرة ، فلم يبق الا بعض البائسين من ذوى العاهات جالسين فى ضوء الشمس على أعتاب الفنادق الحقيرة ، وبعض اليائسين من المرضى ينقلون خطاهم الواهنة الوانية فى حر الظهيرة على ما تساقط من الأوراق الجافة أثناء الليل

٤

بَكرَ الخريفُ رخيَّ النسيم رضيَّ الشمائل ، فلوَّن أوراق الكرم والكرز والشاهبلوط هنيهة بلون الورد ، ثم أرسل عليها صقيع الصباح يَضربُها فتَسَّاقطُ على الارض تساقُطَ الغيث الهتون . وكان الضباب يسحب رداءه الكثيف على الأفق الى وقت الظهيرة ، فتظنه سيلا طغى فغمر الأودية والسهول حتى لم يترك فوقه الا رءوس الحور الباسقة ، وقُنَن التلال الشاهقة ، وشِعَاف الجبال كأنها الرءوس الداخلة فى البحر ، أو الصخور الناتئة على سِيفِ المحيط . فاذا متَع النهار هبت رياح فاترة فتكسح هذا الزبد ، وتقشع ذلك الضباب ، ثم تتقحم مخارم الجبال وأفواه الشعاب فترتطم فى الصخور والأمواه والشجر ، فتسمع لها زفزفةً رخيمة شجية ، تعلو ثم تنخفض فتخالها فى بضع دقائق قد مرَّت على جميع

أوتارَ الطبيعة فحركتها بأنغام الفرح والقوة والكآبة ، فيبلغ أثر ذلك الى أعماق نفسك ، ويملك عليك مذاهب حِسّك . ثم تسكن هذه الريح وتفنى كما تفنى أحاديث الأملاك فى اللانهاية ، ويعقبها سكون لا عهد للآذان بمثله ، يهيمن عليك حتى تسمع دقات قلبك ، ونامّة نَفَسك ، ويعاود السماء منظرها الضاحك الطلق فتكون أشبه بسماء إيطاليا ، وتظهر جبال الألب غرقى فى رقيع من السماء لا عدّ له ولا حد . وتتساقط حبّات الضباب رنانة على سفير[1] الشجر ، أو تتلألأ وهاجة على أزهار المروج كالشرر

على أن ساعات الصحو كانت قصيرة . فما أسرع ما تسرق ظلالُ المساء النديّة خطاها فتنتشر على الآفاق انتشار الكفن وما قضت هذه الآفاق من شمسها الغاربة لُبانة ! ثم تموت الطبيعة موت الشباب والجمال على أتم ما تكون طلاقة وأناقة !

مثلُ هذا البلد ، وهذا الفصل ، وتلك الطبيعة ، وذلك الخمود الذى استولى على كل ما يحيط بى من الاشياء ، لِممّا ينسجم مع نفسى الخامدة وشبابى العاطل انسجامَ النغمات فى اللحن الجميل . ولقد زدت بهذه البيئة هموداً على همود ، وغرقت فى بحر لجى من الحزن ، غير أنه حزن حى ملِئه التصور ، والتأثر ، والاتصال الوثيق

(١) سفير الشجر : الاوراق الجافة الساقطة

باللانهاية ، والضوء الشاحب فى العين ، والأمل الخائب فى النفس ، فما كنت أرغب فى السلو عنه ، ولا الافلات منه . هو داء من أدواء الانسان ، ولكن الشعور به كان لذة مغرية لا شكاة مضنية ؛ والموت الذى يفضى اليه كان أشبه بالغيبوبة اللذيذة فى الوجود المطلق . فقررت أن استسلم اليه وأسترسل فيه ، وأن أصرف نفسى عن صوارف الحياة ، وأضرب حولى نطاقاً من الصمت والعزلة والفتور يحجبنى عن كل شىء ما عدا الله والطبيعة

وكنت قد لقيت وأنا أجتاز شمبيرى صديق لويس د . فوجدته على الحال التى أنا فيها : جبين متغضن من سخف الحياة ، وصدر منقبض من مض الحوادث ، وعبقرية مدفونة فى ضلال المجتمع ، وجثمان مُرْهَق بخواطر النفس . فدلنى على بيت منعزل فى المدينة يقوم بتدبيره طبيب بالغ السن طيب القلب هو وزوجه ، وقد جعلاه للمستشفين مَصَحّاً ومثابة . يصعد الذاهب اليه من المدينة فى طريق ضيقة بين المنابع الحارة . فاذا أخذ منظره من خلفه وجد حديقة مُسَوَّجَةً بالعرائش والأروقة ، ومن ورائها مروج حادرة ، وخمائل ناضرة ، وأدواح من شجر الشاهبلوط والحور ، يصلها بالجبال غيطان وغدران لا تبصر فيها غير قطعان المعز وسوائم الماشية

ووعدنى لويس أن يقدم الى اكس فيقيم معى اذا ما فرغ من

عمله فى شمبيرى . وسأجد ولا شك بوجوده رَوْحاً وغبطة ، فنحن اخوان جمعتنا أواصر الهم ، وألَّفت بين قلبينا وحدة الشجن . والمساهمة فيما يضر ، أجمل منها فيما يسر ، وصلة البؤس أوثق فى الصدور وأعمق فى النفوس من صلة النعيم . وليس فى الناس غير لويس من يخف خِلاطه على قلبي فى هذه الآونة . لذلك بت أترقبه بصبر فارغ وطرب نازع وشوق لجوج

٥

نزلت بدار الطبيب فلقيني أهلها لقاء جميلا ، وأفردوا لى حجرة تطل نوافذها على الحديقة وما وراءها من مروج . وكانت الحجرات الأخرى قد خلت من نازليها فما يجتمع على المائدة الا أهل الدار ومريض أو ثلاثة من فقراء شمبيرى وتورينو ، قدموا الحمامات بعد انصراف الجماهير ليجدوا العيش أخف مؤونة وأقل كلفة . فلم أجد فى الجماعة من يستطيع أن يطارحنى الحديث، أو يعقد بينه وبينى مودة . وأحس الطبيب وزوجه ذلك فأقبلا يعتذران الىّ عن ابطاء الموسم فى المدة ، أو اسراع الزائرين فى العودة . ثم أخذا يكلمانني بلسان الاعجاب والتجلّة ، ولهجة الحنان والرحمة ، عن فتاة أجنبية قعد بها عن الرحيل هزال ملِحّ يخشيان أن يحُول الى

فناء بطيء . يقولان إنها وفدت عليهما منذ شهور واتخذت مسكنها من الدار فى طابق منعزل ، وظلت فيه هى وجاريتها لا تنزل الى قاعة الاجتماع ، ولا تأكل على المائدة العامة ، وانما يحمل اليها الطعام فى غرفتها ، ولا يراها الناس الا فى شباكها مطلة من خلال الأغصان على الحديقة ، أو على السلم عائدة من نزهتها بين جواسق الجبل

فأدركتنى لهذه الفتاة رقة ورحمة. ذلك لأنى وجدت فى حظها مَشابِه من حظى : فكلانا طريد همّ ووحيد غربة ، وكلانا نِضوُ سقام وأليف وحشة ، وهى مثلى تتجنب الضوضاء وتتقى عيون الناس . على أنى بالرغم من هتاف الناس بها ، واعجابهم بظرفها وأدبها ، لم أجد من نفسى باعثا على رؤيتها . لانى لا أريد أن أرى أحداً ولا أن يرانى أحد . فقد خَبَتْ وقدة القلب وعادت جذوته رمادا ، وسئمت نفسى تلك الميول الحقيرة المُبتَسرة ، وأجِمَت الموارد الآسنة الكدرة ، وغَضَّ من طرفى الخجل والندم على خطايا ارتكبتها ، وأسباب رثّة وصلتها ، ومواقف مخزية وقفتها . وفقدت الثقة التى تدفع بعض الناس الى لقاء الناس وعقد الصلات بهم

ما كنت أفكر كثيراً فى الحب . بل كنت على النقيض من ذلك اغتبط وأزهَى بقتلى تلك الأهواء الطفلية فى قلبى ،

وقدرتى على تحمل بُؤْسَى الحياة بنفسى . أما السعادة فى هذه الدنيا فما كنت أحسب لها وجوداً

٦

كنت أقضى بُكَرَ أيامى فى غرفتى أطالع الكتب التى بعث بها الىَّ صديقى من تمبيرى ؛ وفى الأصائل أخرج فأرود وحدى ما توعر وأوحش من مواقع الجبال التى تكتنف وادى اكس من جهة ايطاليا . فاذا أمسى المساء عدت مهدود القوى مرتهك المفاصل ، فأجلس الى المائدة ثم آوى الى مخدعى فأرتقى قاعدة الشباك ساعات طويلة ، أتقصّى بالنظر وجوه السماء فأشعر بانجذاب افكارى اليها كما يشعر الواقف على شفا الهاوية بانجذاب جسمه الى قاعها . فكأنما فى السماء قوة تجذب النفوس كما أن فى الأرض قوة تجذب الجسوم . ثم أرقد فى بحر لجيٍّ من هذه الأفكار لا أبحث فيه عن ساحل ولا مرفأ . وأستيقظ على شعاع الشمس وخرير الينابيع فأستحمُّ وأستأنف بعد الفطور تجول الأمس وتأمل البارحة

فنى ذات ليلة لمحت وأنا أطل من نافذتى على الحديقة نافذة مضاءة بجانب غرفتى ، يشرق منها محيا امرأة قد اتكأت كما

اتكأت ، وأخذت تباعد بيدها عن جبينها خُصَل شعرها الفاحم المتهدل لترى هي أيضا الحديقة ، ولتنظر الى جلال الجبال وجمال السماء وقد ازدهر فيهن القمر . فما استطعت أن أميز منها فى هذا الضوء الشاحب غير صورة نقية كاسفة فى اطار من الشعر المُغْدَوْدِنِ المرسل . ثم ورد صوتها على سمعى وهى تتحدث وتأمر داخل الغرفة ، ففعلت لهجتها الأجنبية الصافية فى قلبى فعل السُّلاف ، وأثرت نبراتُ صوتها السقيم الرخيم فى نفسى تأثير السحر ، وبقى ذلك الصوت العذب يطن فى اذنى طنين الصدى البعيد حينا من الزمن بعد ما أُغلقت النافذة

لم يقع فى مسمعى مايشبه هذا الصوت حتى فى ايطاليا . فلقدكان يرن بين ثناياها المفترة رنين الأوتار المعدنية على شفاه الأطفال فى جزر الأرخبيل اذا ماحركوها وقت المساء على شاطئ البحر . كنت أفكر فى رجْع هذا الصوت وفى أثَرَه ، وما كنت أحسب أن سيكون له فى حياتى رنين بعيد المدى عميق الأثر . ثم كان الغد فشُغِلتْ عنه شعابُ قلبى فنسيته . حتى كان أحد الأيام فبينما أنا داخل بعد العصر من باب الحديقة الصغير بصرت بهذه الفتاة الغريبة جالسة على أحد المقاعد تحت نظر الشمس تستدفئ بأشعتها الفاترة . لم تشعر بصوت الباب حين أغلقته فلم تُرَعْ ، وظلت تحسب نفسها

وحيدة ، ولبثت أنا طويلا أرمقها خِفْية بمجامع عينى لا يفصلنا الا بضع خطوات وكرمة أعْرَتْها من الورق بواكر الصقيع ؛ وكانت ظلال الأوراق الباقية على هذه الكرمة تصارع وحدها أشعة الشمس على وجهها المشرق . هى ممشوقة القد ، بائنة الطول ، قد أرسلت على جسمها الناحل غلالة من الجوخ مبسوطة الغضون محلولة العرى ، فكانت فيها أشبه بدُمية من المرمر فى ثوب فضفاض تُعجَب بقوامها ورُوائها ، دون أن تميز جزءاً من أجزائها . ثم تدثرت بشال أبيض أنيق الوشى غيبت فيه جسمها فلم يبد منه الا كفَّان عاريتا الأشاجع ، دقيقتا الأنامل ، قد تلاقتا على ركبتيها وهما تعبثان بزهرة من زهر القرنفل الأحمر الوحشى الذى يزهر على الجبال فى احضان الثلج ، ويسميه الناس لسبب لا أدريه : القرنفل الشاعر . ثم اتخذت من فضل شالها قناعا وقت به شعرها أندية المساء

فكنت تراها — وقد تطرحت من السقم على نفسها ، ومال عنقها على كتفها ، وعقدت اهدابُهـا الوُطْفُ أجفانَها الدُّعجَ من بَهَرَ الشمس ، وتضمر وجهها وانكفأ لونها من طول الفكر — أشبه بتمثال الموت ؛ ولكنه الموت الذى ينقل النفس من أودية الهموم وشعاب الأحزان الى انحاء النور والحب فى حياة سعيدة خالدة .

نبهها وقع قدمى على جفيف الورق ، ففتحت جفنين فاترين ، عن عينين

ساجيتين ، فى صفاء البحر أو زرقة اللازَورد ، يحف بهما أهداب طوال سود يحتال على تقليدها حسان الشرق بالصناعة ليَزِدْن فى نَجَل العيون ، وكَحَل الجفون ، وحدة النظر ، وقوة الجاذبية . ولم أر فيما رأيت من عيون الناس ألحاظا تصيب مرماها على بعد مداها كألحاظ هذه الفتاة . فقد كانت أشبه بنيران الشهب الثاقبة فى حلك الليل ، تحاول ان تمسك وهى صادرة من السماء عن بُعد شاسع ونوًى سحيق . ولها أنف اغريقى أشَمّ حُلْو القنا ، يعلوه جبين مرتفع ضيق كأنما ضغطته فكرة قوية ، وشفتان رقيقتان على زاويتيهما أثر الذبول من حرقة الهم ، وثغر شتيت الثنايا صدفى اللون كثغور الغيد من سكان السواحل الرطبة على البحار أو الجزر ، ووجه كالبيضة المكنونة بدأ يناله النحول من ناحية الصدغ ومن أسفل الفم ، وسحنة هى أولى أن تكون هيئة فكرة لا هيئة انسان . وفضلا عن هذه الملامح الساحرة ، والمخايل الشاعرة يستهويك من هذا الوجه سقام يرجع سببه اما الى هوى محرق ، واما الى جوى مبرّح ، فيغترق بصرك حتى تنطبع فيه الصورة الخالدة . ذلك عرض لمرض من أمراض النفس تنم عليه قسامة بارعة ، وجهارة رائعة ، وجمال لا تعلق به قريحة مصور ، ولا تسمو اليه مخيلة شاعر

مررت بها عجلان لخيبتها باحتشام وتجلة ، فأثار اقترابى منها طبيعة الخفر فيها ، فتوردت وجنتاها المصفرة ، وانطلقت أنا فى المشى أمامها لا أربع على شيء حتى بلغت غرفتى وانا مضطرب الحواس واجف القلب لا أدرى أية رعدة أقلتنى من برد المساء . وبعد هنيهة بصرت بالفتاة تعود الى المنزل فألقت على نافذتى نظرة فارغة ثم دخلت مخدعها . ومر اليوم يعقبه اليوم وأنا أراها على تلك الحال فى تلك الساعة ، اما فى الحديقة ، وإما فى الفناء ، دون أن أفكر أو أجسر على الدنو منها ، حتى كنت أقابلها أحيانا فى زورقها على البحيرة ، أو على حمارها فوق الربى والخمائل ، يصحبها لفيف من البنات الصغيرات يَقُدْنَها ويقطفن لها ثمر الفريز ، فما أظهر لها مما يوجبه الجوار من دلائل العطف والاهتمام أكثر من تحية ألقيها فى اجلال وحشمة ، فتردها هى فى ذهول وهم ، ثم يأخذ كل منا سمته فوق الجبل أو على متن الماء

٧

على أننى كنت أشعر بانقباض الصدر واضطراب البال فى كل مساء لا أراها فى نهاره . فأنزل الى الحديقة دون سبب معروف ولا داع موجب ، وأمكث فيها على الرغم من برودة الليل أراعى

نافذتهـا بنظرى ، وأتحامل على نفسى فلا أنصرف حتى أرى ظلها خلال الستائر ، أو أسمع نغمة من بيانها أو نبرة من صوتها

كانت الردهة التى تشغلها فى المساء ملاصقة لغرفتى لا يفصلها عنها الا باب ضخم من شجر السنديان موصد برتاجين ، فاستطعت أن أسمع وقع أقدامها ، وحفيف أثوابها ، وخشخشة كتابهـا حين تَصفَحُ ورقه ، وربما خيل الى أحيانا أنى أسمع نامةً نَفَسَها . فوضعت مكتبي ومصباحى فى ظهر هذا الباب مسوقا الى ذلك عن غير قصد ، لأنى أجدنى مع هـذه الأصوات والحركات أكثر أنسا وأقل وحشة ؛ وتصورت أنى أعايش هذا الطيف المجهول الذى ملأ حياتى وشغل يومى . وقصارى القول أنى أحسست فى قلبي نوازع الهوى وأعراض الصبابة قبل أن يقع فى ظنى أنى أحب

لم يلاقنى هواها فى خطرة أو نظرة أو فكرة حتى كنت أتوقاه فلا ألقاه ؛ وانما كان أشبه بالغاز المنتشر فى الجو يهاجمنى من كل مكان : فى السماء والماء ، فى الهواء والضياء ، فى وحدتى القابضة ، ومشابهتى لهذه الفتاة الغامضة ، فى هذه الجولات البعيدة التى لا تبعدنى عنها الا ليكون شعورى بجاذبيتها أشد وأقوى ، فى ثوبها الأبيض أراه على بعد من خلال تَنُّوب الجبـل ، فى شعرها الأسود تُهَدّله نسائم البحيرة على حافة الزورق ، فى وقع خطواتهـا على السلم ، وصوت

قدميهـا على أرض الغرفة ، وصرير قلمها على القرطاس ، حتى فى سكون تلك العشايا الطويلة التى كانت تقضيها فى القراءة أو الكتابة أو التفكر ، وفى سحر هـذا الجمال الفاتن الذى أراه ولا أنظر اليه ، وأتمثله واضحا من وراء الجدُر لا يحجبه ستار ولا ظلمة

على أن هذه العاطفة القوية لم تصحبها فى نفسى رغبـة فى استطلاع سر هذه العزلة ، واختراق هذا الحجاب الواهى الذى ضربناه بيننا باختيارنا . وماذا يعنينى من امرأة ضاوية الجسم أو عليلة الفؤاد قابلتها عرضا فى هـذه البلاد الاجنبية ؟ لقد نفضت يدى كما كنت أظن من شواغل الحب ، ولم أرد ان تصلنى بالحياة ثانية علاقة من علاقات النفس والحس ، أو يستولى علىّ وهن من ضعف القلب أو مرض الشعور . لقد كنت احتقر الحب وانتفى منـه ، لانى لم أر فيـه الا الدلال العابث ، والتجنى الأشِر ، والنزق الحاد ، والدنس المُرِيب . اللهم الا حب أنطونين فلم يكن الا نزوة فتانة من نزوات القلب ، وزهرة ريانة من زهرات النفس ، أعجلها القدر عن شهود الربيع

٨

ليت شعرى من تكون هذه المرأة ؟ أهى مخلوقة من نوع

الانسان ، أم طيف من طيوف الغيب ، أم ظاهرة من ظواهر الجو تبدو في سماء مخيلتنا ثم تذهب وما تترك غير لألاء يزيغ القلب ويخطف البصر ؟ . أهي من وطني أم من وطن بعيد نازح فلا أستطيع اللحاق بها ، بعد الخضوع لحبها ، فأقضي بقية أيامي بين عبرات تقرح الجفن وحسرات تقض الجوانح ؟.. ولعمري أهي فارغة القلب فتستطيع أن تجيب عن حبي بمثله ؟ وهل من المعقول أن امرأة فتانة المحاسن فارهة الجمال يكاد شبابها يستحير [1] ، وثمرها يَيْنع ، دون أن تغترق الأبصار بجمالها ، أو تقتنص القلوب بحبالها ؟ ألها أب وأم وأخوات واخوة ؟ أم لها زوج ضرب الدهر بينها وبينه ، فهو ماثل في قلبها وهي ماثلة في قلبه ، وهو يعيش على حبها كما تعيش هي على حبه ؟

كنت أشغل نفسي بهذه الأسئلة لأفرج عنها ذلك الضيق المُلِحّ المؤيس . ووجدت من التبذل والضعة أن أدخل في شأنها ، أو أحاول الكشف عن دخيلة أمرها ، فربما كان أجمل بي وأندى عليّ أن أُسِفّ [2] ولا أقع ، وأن أحوم ولا أرد

٩

على أن أسرة الطبيب الشيخ لم تكن لتتنكر مثلي عن مهاجمة

---

(١) استحار الشباب : تم واكتمل (٢) أسف الطائر : دنا من الارض في طيرانه

هـذا السر ، فأجابت داعي الفضول واستجبت لنفسها ولأضيافها أن يخوضوا فى شأن هذه الفتاة الأجنبية ، وراحوا يستقطرون أخبارها ، ويتسقطون أسرارها ، ويتكهنون بما حجب الغيب من أمرها ، ويجعلون ذلك حديث المائدة وموضوع السمر ، فكان ذلك يقع فى أذنى دون أن أسأل عنه أو أثير البحث فيه ، بل كنت أحاول منعه أو قطعه فلا أستطيع . ولبثت أسمعه فى كل يوم ، وفى كل وَجْبَةٍ ، من كل سن ، ومن كل طبقة : من الشيب والشبان ، والجوارى والغلمان ، ومن خدم المنزل وأدلاء الجبل وملاحى البحيرة . لقد أثرت فى كل قلب ، وامتزجت بكل نفس ، دون أن تتصل بانسان أو تتحدث الى أحد ؛ فكانت الفكرة فى كل خاطر ، والفتنةَ فى كل ناظر ، والكلمةَ فى كل فم ، والجلال فى كل قلب . ان فى هذا النوع من الناس من يشعّون الأنوار . ويخطفون الأبصار ، ويجذبون الى مدارهم مَنْ حولهم ، دون ان يفكروا فى ذلك أو يقصدوا اليه أو يشعروا به . لهم ما للشموس من نظام وجاذبية ، فهم يجذبون من تابعيهم الأبصارَ والافكارَ والنفوسَ فتعلق بهم ، وتجرى فى الفضاء على ضوئهم . جعل الله لهم من الجمال سلطاناً وجنوداً ، ومن السحر اغلالا وقيوداً ، ومن الحب شرائع وحدوداً . فالناس يتبعونهم فى الأرض ، ويشيعونهم

الى السماء ، حتى اذا غابوا عن عيونهم اعتراها البهر والجهر فلا ينظرون ، واذا نظروا لا يبصرون ، حتى العامة وأوزاع الناس يشعرون بهذه الكائنات العليا ، ولا أدرى بأى علامة يميزونهم ، فيعجبون بهم دون أن يفهموهم ، كالأكمه يدرك أشعة الشمس دون أن يراها

١٠

علمت من أمر هذه الفتاة أنها تقطن باريس وأنها زوج لشيخ كريم سار ذكره فى القرن الماضى بطائفة من الأبحاث العلمية أضافت الى حصائل العقل البشرى ثروة وافرة . راعه مارأى من جمالها ، وفتنه ماعرف من ذكائها ، فتبناها قبل أن يبنى بها ليترك لها بعد موته جمة ماله . وأحبته هى محبة الولد البار للوالد الحنون ، ودأبت تنضح وده فى كل نهار برسالة تضمنها أحاديث نفسها ونوازع هواها ، حتى اعتراها منذ عامين نحول شف جسمها ، وأقلق زوجها . فاستوصفت الأطباء فأمروها بالرحلة الى الجنوب تغييراً للهواء وترويحاً للنفس . وحال بين الشيخ وبين مرافقتها علته الملازمة ، فعهد بها الى أسرة فى لوزان بينه وبينها صلة موثقة . فجابت معها أقطار سويسرا وايطاليا . ولكن تبدل الأجواء ،

وتغير الهواء ، لم يمسحا عن جسم العليلة شحوب السقم ، ولم يعيدا اليها كمال القوة . فجاء بها الى مياه اكس طبيب من جنيف مخافة أن يكون ما بها مرضاً من أمراض القلب . وهو لا بد آت مع الشتاء ليعود بها الى باريس

ذلك مبلغ ما نُمى الى من خبر هذه الفتاة التى أصبحت عزيزة على . ومن قبل كنت أردد وأؤكد أن تفصيل أمرها ودخيلة سرها شىء لا أشغل به فكرى ولا أجعل اليه بالى . فازددت لهذه الفتاة شفقة ورأفة ، وعز علىَّ أن أرى هذا الجمال الساحر يصاب وهو فى ربيعه وزهرته بهذا الداء المخامر الذى يوقد الشعور ، ويلهب الاحساس ، ويرهف الذهن ، كلما أذاب الجسم ، وأفنى الحياة ، ونقص العافية . ولشد ما كان يلوع قلبي الحزُن كلما وقعت عيناى منها على هذه الخطوط الخفية التى رسمها الألم على طرف شفتيها اللمياء التى أذواها الشحوب ، وحول عينها الزرقاء التى غزاها الأرق !

كان يشغل بالى من هذه الفتاة رشاقة ساحرة ، وقسامة رائعة . فأصبح أكثر مايشغلنى منها تلك الظلال التى نشرها الموت من حولها فتبدو من خلالها شبحاً من أشباح الخيال ، لا شخصا من أشخاص الحقيقة . وفيما عدا ذلك لبثنا فى موقفنا الأول نسير فى الحياة متدانيين بالمجاورة ، متباعدين بالمناكرة ، لايصل بيننا

حديث ولا تدنينا موده .

١١

أخذت بواكير الثلج تلفع رءوس التنُّوب على قمم سَفوا ، وبدأت الرياح البليلة تهب فوق التلال العاليـة ، وتجمعت حرارة اكتوبر الممتعـة اللذيذة فى جوف الوادى ، وما برحت النسائم الفاترة ترف على شطئان البحيرة ومياهها ، ولألأت شمس الظهيرة مخارف الحور الطويلة المؤدية اليها ، وحركت الريح أغصان الشجر وذوائب الدوح فكان لها اهتزاز وحفيف يسحران اللب ويسترقان المشاعر

لذلك عزفت عن التجوال فى الجبال ، ورحت أرتع فى ربى الوادى بين خمائله وجنانه ، ومسايله وخلجانه ، ودأبتُ أقضى شطراً من النهار على متون الماء حتى عرفنى الملاحون ؛ وقد قيل لى إنهم لايزالون يذكرون تلك السياحات الطويلة التى كنت أحملهم عليها فى الخلجان النائية والأغوار الموحشة من شواطىء فرنسا وسفوا!

كذلك كانت الفتاة تستقل زورقها الحين بعد الحين الى جولات لاتطول مدتها ولا يبعد مداها . ونوتيتهـا الذين يتولاهم شىء من الزهو والفخر بقيادتهم لهـا لا يغفلون عن النظر فى وجه السماء

يرقبون ظواهرها ويستطلعون سرائرها، فاذا رأوا مخايل المطر، أو أحسوا دلائل الخطر، نبهوها الى ذلك فتعود، لأنهم يؤثرونها على أنفسهم، فيفضلون صحتها وسلامتها على زورقهم المردود، وأجرهم المفقود، ويومهم الضائع

على أن الجو خدعهم ذات مرة فهونوا عليها عبور البحيرة، وزينوا لها أن تزور أطلال دير الهتكمب على العَدْوةِ الأخرى. فأقلعوا بها، ولكنهم ما كادوا يبلغون الثلثين من عرض البحيرة حتى عصفتهم ريح هوجاء أُرسلت عليهم من مضايق وادى الرون فأثارت الأمواج، وأفارت الزبد، وطاحت بشراع السفينة وخلفتها فى يد الموج الصاخب أشبه بقشرة الجوزة، يجذبها ويدفعها، ويخفضها تارة ويرفعها، ولا عدة للملاح غير مجدافين يكافح بهما الموج الهاجم والخطر الداهم عن الفُلك الهلوع

لم يعد الرجوع فى طوقه ولا امكانه، وبينه وبين صخور الهتكمب نصف ساعة من الجهد الجهيد والرهق الشديد والغرق المتوقع. وكان قدَرُ الله أو حظ نفسى يقود فى هذا اليوم وفى هذه الساعة زورقى المتين على وجه الماء، ومعى أربعة من شداد الجدفين أقلعت بهم الى جزيرة من جزر البحيرة أزور فيها قريبا لصديق لويس يدعى دُ شاتيُّون، قد شيد قصره الفخم على صخرة فى رأس

هذه الجزيرة . وكانت عيناى تتبعان زورق الفتاة على مدى الطرف ؛ فما كدنا نقترب من مرفأ شاتيُّون حتى بصرت بزورقها يعبث به النوء ويصارعه الموج ويرنِّق عليه الخطر . فقلبنا زورقنا عن وجهه ، ورددناه على عقبه ، واقتحمنا اللجة ، وابتدرنا العاصفة بقلب واحد ورأى جميع ، عسى أن ننقذ الزورق الهالك المكروب وقد احتجب فى أفق رجراج من الزبد المركوم . ولا تسل عن صبرى المغلوب ، ولبى المسلوب ، وطرفى الحائر أثناء الساعة التى قطعنا فيها عرض البحيرة . على أن الله كتب للهالكين السلامة ، فقيض للزورق ساعةَ لحقناه موجةً كالجبل قذفت به الى الساحل أمام أطلال الدير . فشهقنا من السرور وصحنا من الفرح وألقينا بأنفسنا فى الماء متسابقين الى الزورق لنحمل المريضة الغريقة الى الشاطىء . وكان الملاح المسكين يطلب منا المعونة والغوث بحركة المحزون وحالة المجنون وصوت المُدَلَّه ، ويشير بيده الى جوف الزورق ، فدنونا ثم نظرنا فاذا الفتاة هامدة الجسم فاقدة الرشد ، واذا الماء قد غشى ساقيها وذراعيها بطبقة من الزبد والصقيع ، الا صدرها وما علاه فقد كان بنجوة من الماء . وكان رأسها كرأس الميت مسنداً الى صندوق صغير من الخشب يضع فيه الملاحون متاعهم وآلتهم . وشعرها متهدلا على سالفتيها وكتفيها كجناحى طائر أسود

قد غرق الى نصفه فى غدير ، ووجهها الباقى على اشراقه ورواثه تنتشر عليه سكينة النوم الهادئ انتشار الجمال الرائع تتركه الروح على وجوه الفتيات يوم الفناء . أو شفق الخلود على الملامح التى يريد تخليدها فى ذاكرات الأحياء . أبدا ما رأيتها ولن أراها فى مثل هذه السحنة الالهية القدسية . فهل كان الموت ميلادا لهذه الصورة السماوية ؟ أم أراد الله أن ينقش على لوحة خاطرى لأول انفعال أكمل هيئة لأجمل صورة ، لتكون على الدوام لعينى مثالا مشهوداً ، ولقلبي تمثالا معبودا ؟

بادرنا الى الزورق لننشل المحتضرة من فراشها المزبد ونحملها الى خلف الصخور . فوضعت يدى على صدرها فكأنما وضعتها على دمية ، وأدنيت أذنى من شفتيها فكأنما أدنيتها من شفتى طفل نائم ، وكان قلبها يخفق شديداً غير منتظم ، ونفسها يتردد فاتراً غير متصل . فأدركت أن ليس بها الا اغماءة طويلة من أثر الذعر والبرد . وتقدم بحار فأخذ بقدميها وجعلت أنا كاهلها ورأسها على صدرى ثم حملناها دون أن تحس ولا تعى الى كوخ صياد تحت صخرة الهتكمب كان الملاحون يتخذونه فندقا يؤوون اليه من يعبرون به البحيرة الى زيارة آثار الدير

كان هذا الكوخ مشتملا على حجرة ضيقة مظلمة مغبرة من

الدخان ، كل مافيها من الأثاث مائدة موقرة بالخبز والجبن وقناني الخمر . وبجانب المدفأة سلم خشبي يصعد بك الى حجرة عليا واطئة تنيرها كوة ناظرة الى البحيرة ، قد شغل فراغها ثلاثة أسرة ذوات أبواب من الخشب اغلقت عليها . دخلنا الكوخ فاذا أهله رقود فوق الأسرة . فلما شعروا بنا استيقظوا ، وأقبلت ربة البيت ومعها فتاتان فأخذن السيدة والقينها على حشية قريبة من المدفأة ، وأوقدن لها ناراً هادئة من القش وأعواد الرتم ، وخرجنا نحن وأخذ النسوة ينضون عنها ثيابها ليجففنها ويمسحن عن جبينها وشعرها ما تقطر من ماء البحيرة ، ثم رفعنها وهي لا تزال غائبة الى أحد الأسرة بعد أن مددن عليه ظهارة بيضاء أدفأنها بحجارة ساخنة من حجارة الموقد على عادة القرويين فى هذه الجبال . وجرعنها نطفا من الخل والنبيذ عسى أن يعود حسها ، وترتد اليها نفسها ، فما رجعن بطائل . فلما ذهبت عنايتهن هواء ، وعناؤهن هباء ، انفجرن بالبكاء والعويل ، وطفقن يرددن قولهن « ماتت الآنسة ! توفيت السيدة ! لم يبق الا البكاء ودعاء القس » فانضم اليهن البحارة وهم حيارى من الخطب ، سكارى من الكرب ، وأخذوا يولولون ويعولون ، وصعدت أنا عجلان على السلم ودخلت الغرفة وأقبلت على السرير فلمست جبينها بكفي فأحسست به

وهج الحمى ، ووجدتها تتنفس بانتظام نسم الريح الضعيفة ، فأسكت النساء وأعطيت أصغر الملاحين دينـاراً وكلفته الذهاب الى طبيب قيل انه يسكن قرية فوق تلعة من تلاع جبل القط على فرسخين من دير الهتكمب . فانطلق الملاح يعدو مسرعا ، وقر الآخرون فى أماكنهـم مطمئنين على حياة السيدة ، وأخذ النسوة يذهبن من الردهة الى الحجرة ، ومن القبو الى مجثم الدجاج ساعيات لإعداد الطعام ، وبقيت أنا جالسا على عِدل من دقيق الذرة بجـانب سرير الفتاة ، يداى معقودتان على ركبتى ، وعيناى شاخصتان الى وجههـا السـاكن وجفنهـا المغمض . وأقبل الليل فقامت احدى الفتاتين فأغلقت النافذة وعلقت بالحائط مصباحا صغيرا ، فسقط ضوؤه على مخبس[١] السرير الأبيض ووجه الفتاة الناعس كما تسقط أضواء الشموع على الميت المُسجَّى . آه ! لقد سهرتُ ليلى بعدذلك على وجوه أُخر ، ولـكن وا أسفاه ! لم يكن لليلها صباح ، ولا لنومها يقظة !

١٢

ما أظن أحداً فى الناس وقع له ما وقع لى أثناء هذه الساعات

---

(١) المخبس : ثوب يطرح على ظهر الفراش لينام عليه

الطوال من شخوص البصر وهيام الفكر فى جو من التأمل العجيب والتفكر الشديد. فقد كنت موزّع القلب مقسم الخاطر بين الحب والموت ، لا أدرى ماذا يبيته لى الغيب فى ضمير الليل : أيكون لى من هذا الوجه الملكى الماثل أمام عينى حزن وألم يبقيان بقاء الأبد ، أو حب وعبادة يتخللان منى مسالك الروح فى الجسد ؟

كان نوم الفتاة نابياً قلقاً ، ولكن اضطرابه لم يقو على ايقاظها ، وانما عبث بالغطاء فانحسر عن أحد كتفيها ، وتهدل عليه حلَق غلاظ من شعرها الأثيث الناعم ، وناء جيدُها الضعيف بثقل رأسها المائل فالتوى قليلا على الوسادة ، وتخلصت احدى الذراعين من اللحاف ونامت تحت العنق ، فأمكنت الرائى أن يميز لون مرفقها العاجى من لون القميص الرمادى الغليظ الذى دثرها به النسوة ، وتلألأ فى اصبع من أصابع يدها الضالة فى ليل شعرها خاتم صغير من الذهب المرصع بفصوص من الياقوت قد انعكست عليها أضواء المصباح

وكانت الفتاتان قد نامتا فى ثياب النهار على أرض الحجرة ، والأم قد أخذها الوسن على كرسى من الخشب فألقت برأسها وذراعيها على متكأه . فلما صاح الديك فى الفناء ، وغرد العصفور فى الروض ، استيقظ النسوة وخرجن الى عملهن يحملن قباقيبهن فى أيديهن حتى لا يحدثن صوتاً ولا حركة . ثم أخذت أضواء الفجر

تسيل من خصاص النافذة المغلقة ، ففتحتها رجاة أن يكون لنسيم الصباح العليل ، وهواء البحيرة البليل ، وشعاع الشمس الجميل ، أثر في إيقاظ الحياة في هـذه الفتاة . فقد أصبح متمناى وغاية هواى أن تتنبه ولو بخمود أنفاسي وفقد حياتي

دخل النسيم نديًا باردًا فملأ الغرفة وأطفأ المصباح الخامد ، ولكن النائمة لم تهب ولم تتحرك . وسمعتُ النسوة المساكين يصلين جماعةً صلاة الصبح في خفوت وقنوت ورهبة . فوقع في نفسي أن أصلى أنا أيضا . وذلك دأب النفوس ، اذا أرهقها الأمر فحل عراها وهدقواها فزعت الى القوة الالهية تلتمس منها القدرة في العجز ، والجلادة على الخطب ، والصبر عند المصيبة . فجثوت على الأرض وشبكت يديَّ على حافة السرير ، وحدقت ببصري في وجه الفتاة ، ثم صليت وأطلت الصلاة بقلب خاشع وجفن دامع وشعور متقد ؛ وسالت مذارف عيني فحجبت عني صورة من أدعو لها الله وأرجو لها اليقظة .

كنت أستطيع أن ألبث على هذه الحال ساعات طوالا دون أن أشعر بمرور الزمن ، أو أحس ما نال ركبتي من أذى البرد وصلابة الحجر ، مادامت نفسي فانية في شعور واحد وارادة واحدة . ولكنني شعرت فجأة بيد لمست يدي وسقطت برفق على رأسي كما

لو تريد أن تنحى شعرى عن وجهى وان تبارك على . فصحت من الدهش ونظرت فاذا عين المريضة شاخصة ، واذا فمها ناسم باسم ، واذا يدها مبسوطة تبحث عن يدى وهى تقول : لك الحمد يارب ! لقد رزقتنى أخاً !

١٣

نبهها برد الصباح بينما كنت أصلى ، فرأتنى على الحال التى وصفت : وجهى على حفاف سريرها غريق فى شعرى وعبراتى ، وحرارة شفقتى ممزوجة بحماسة دعواتى . وكان لها من الضوء ما ساعدها على معرفتى ، ومن الزمن ما مكنها من التفكير فيما كانت عليه وفيما صارت اليه . رأت نفسها قد أصابها الغشيان وهى فى عزلة عن الناس ووحشة من الحياة ، فأفاقت منه وهى بين حنان وعطف يفيضان من عينى مؤمن لا تعرفه . كانت محرومة نسب القلب وصلة الروح وهى فى ربيع شبابها المتروك ، فوجدت بجانبها بغتةً وجهاً وهيئة وعناية وصلاة ومدامع لا تكون الا لأخ ولا تصدر الا من أخ . فلم تمالك — وقد ظفرت بهذه السعادة فى الساعة التى شعرت فيها بعودة الحياة — أن حركت لسانها بهذه الجملة المؤثرة : (لك الحمد يارب لقد رزقتنى أخاً !) فأمسكت يدها المبسوطة الى

ونحيتُها عن جبيني اكباراً لها أن تمسني ، ثم قلت : أخ ؟ أُوه ! كلا يا سيدتي لست أخاً ، وانما أنا عبد لهواك وظل لشخصك ، لا أبتغي الوسيلة الى نعيم الدنيا وسعادة الآخرة الا بأن يكون لي الحق في تذكار هذه الليلة ، والاحتفاظ بصورة هذه الحورية التي تستطيع وحدها ان تحبب الى الموت لأجلها ، أو تهوّن عليَّ الحياة في ظلها . وبينما كنت أنطق هـذه الكلمات بلسان ثقيل متردد ، وصوت خافت متهدج ، كان ورد الحياة يتفتح في وجنتيها ، وابتسامة حزينة تنتشر على شفتيها ، وشك مريب في هذه السعادة يبدو في عينيها . وما أسرع ما اختلفت على وجهها الوان القدر : فمن غمرة الموت الى زهرة الحياة ، ومن حلم الخيال الى يقظة الحقيقة ! لقد ارتسمت على ملامح وجهها الوسيم النضر شتى العواطف ومختلف الصفات في وقت واحد : فذهول ونشوة ، وسقم وراحة ، وكآبة وفرح ، وظرف وحشمة وكنت تقرأ في مخايل وجهها ، وتدرك من دلائل صمتها ، ما تعيا عنه الصحف المنشرة ، والكتب المحبرة ، والجمل المزورة ، من الصراحة والطمأنينة والثقة والأمل . ان وجه الانسان لسان عينه ، وان محيّا الشباب لينقل أسرار المودة الصامتة من نفس الى نفس نقلا تعجز عنـه لغات العالم . ولا جرم ان ثيابي المبللة ، وخصل شعري الطويلة المرسلة ، ورباط رقبتي المرخَى المنحل ، وعيني المرهاء من

الأرق ،ولونى الكاسف من الفرق ، وضراعتى وذهولى امام هذا الجمال الطاهر المعذب ، وما اعترانى من القلق والانفعال والجذل والابتهال ، وظلام هذه الغرفة الجرداء ، وقيامى وسطها دون صوت ولا حركة ، وأشعة الشمس تبهر عينى وتضىء بقايا الدموع على خدى ؛ كل ذلك أكسب وجهى وملامحى قوة خارقة ، واشارة ناطقة ، وعبارة صادقة ، نمت لها عن فؤادغير كذوب ، ووداد غير مشوب ، وحنان لن تجد مثله على كثرة الناس وطول الحياة

ولما أعيانى احتمال هذه الصدمة ، واستقلتنى من رهبة الصمت وجلال الموقف رعدة ، دعوت النسوة فأقبلن . وما كادت تقع انظارهن على الفتاة حتى هفت قلوبهن من دهشة المفاجأة ، واعتقدن أن انبعاثها من غشيتها معجزة . واتفق أن جاء فى هذه الساعة الطبيبُ الذى بعثنا فى طلبه البارحة ، فأمرها بالراحة ووصف لها نقيعا من أعشاب هذا الجبل فهدأ به قلبها وسكن . وأقبل الطبيب علينا يسكن روعنا ، ويذهب خوفنا ، ويعلن أن هذا المرض لا خطر فيه ولا محذور منه ، وانما هو داء من أدواء النساء يصيبهن فى مرح الشباب ، فاذا تنفس بهن العمر انكسرت حدته ، وبعدت نوبته . أما سببه فافراط فى الحس يترك ما فاض من الشعور وطغى من الحياة أشبه بالموت وليس به ، الا اذا مدته وقوته على النفس

الباطنة ، فانه يصبح اذ ذاك انقباضاً دائماً ، واكتئاباً لازماً ، يجعل الحياة مرة المذاق عسيرة الحمل . قال ذلك ثم انصرف ، وخرج النسوة على أثره يبحثن فى المروج عن الأعشاب التى وصفها ، وأخذ الغاسلات يكوين ثياب الفتاة فى الحجرة . أما أنا فغادرت المنزل لأجول وحدى فى خرائب الدير العتيق . على أن قلبى كان مفعما بتأثره الخاص فما أظنه يتسع لهذه الطلول والدمن .

١٤

كانت الرهبانية فى العصور الخوالى صناعة وحرفة ، ثم أصبحت حياتها اليوم فى المعابد كحياة الأوابد ، لاتربط الرهبان باخوانهم آصرة ، ولا تدنيهم من الناس منفعة ، ثم يتبخرون على جنادل الديور ويلحقون من غبر ، دون أن يكون لهم فى القلوب ذكر ولا فى الوجود أثر . فليست الرهبانية اذن محل اجلالى ولا مثار اعجابى فى هذا الدير ، وانما أعجبت الاعجاب كله بالطبيعة وقدرتها على احتلال ما أخلى الانسان من أماكن ، وغادر من مساكن ! ان هندستها الحية البادية فى اليقطين الناشبة جذوره فى ملاط البناء ، والعوسج واللبلاب الذاهبة عساليجهما فى الهواء ، والقرنفل المتعلق ، والنبات المتسلق على صدوع الحائط فيكسوها حلة من الخضرة ،

لهى أجمل فى العين وأسمى فى القلب من هندسة الانسان فى الحجارة الجامدة والستور الخامدة بالمعول والبرجل والمقص . وان ماتراه ونسمعه اليوم من لألاء الشمس ، وعبير النبت ، وخرير الماء ، وألحان الهواء ، وهدير الموج ، وتغريد الطير ، ودوى البحيرة ، واصداء الغابة ، فى ساباط هذه الكنيسة المقوض ، وفى صحنها المهدم ، وتحت قبابها الممزقة المعلقة ، لأروع وأجمل مما كان علاها بالأمس من أضواء الشموع ، ودخان البخور ، وترتيل الرهبان المتشابه فى مواكب الصلاة وحفلات القداس

ان الطبيعة أكبر قساوسة الله ، وأمهر مصوريه ، وأقدر شعرائه ، وأبرع مغنيه . وانك لتجد فى عش العصفور تتناغى فيه افراخه تحت رفرف الهيكل الدارس ، وفى أنفاس الرياح تهب من البحر حاملة الى أديرة الجبل المقفرة خفوق الشرع وأنين الأمواج وغناء الصيادين ، وفى الزهور ينتشر أريجها فى الفضاء وينتثر ورقها على القبور ، وفى صدى أقدام الزائرين تقع على مضاجع الموتى من هذا الدير ، تجد فى هذا كله من التقى والروعة والتأثير ما كان فى هذا الدير منه وهو فى ابان عهده ، وعنفوان مجده !

نعم لا يزال بجوار هذا المكان بقية من بنى الانسان بنفوسهم الصغيرة ، وميولهم الحقيرة ، ولكن جلال الله فى الطبيعة أكبر

وأظهر ، فترى علاه وسناه يغشيان هذه القبور مع ضوء الشمس ونور السماء لا يحجبهما سحاب ، ولا تصدهما قباب

١٥

لم أكن فى هذه الآونة مالكا لمشاعرى ، ولا ضابطاً لخواطرى ، حتى أوضح فى نفسى هذه الافكار المبهمة . فقد كنت أشبه برجل آده عبء فادح فألقاه عن ظهره ثم انطلق عافياً من تعبه ، يبسط عضلاته المقبوضة ، ويمرس أعضاءه المرضوضة ، ويتنفس ملء رئتيه ، ويسير حيث شاء فسيح الخطو كأنما يريد أن ينهب الفضاء ، ويستنشق كل ما فى الجو من هواء . لم يكن ذلك العبء الذى ألقيته وتخلصت منه غير قلبي . فاننى منذ أعطيتها اياه شعرت لأول مرة بتمام الحرية وكمال الحياة . انما خُلق الانسان للحب . فهو لا يشعر برجولته وانسانيته الا يوم يشعر حقيقة أنه يحب . أما قبل ذلك فهو يبحث ويقلق ويضطرب ويضل فى شعاب فكره ، حتى اذا وجد الحب وعرفه وقف واستراح وخلى زمامه بيد القدر .

صعدت الى سطح هناك فسيح مهدم تكسوه الأعشاب ، ويمتد على جوانبه اللبلاب ، ثم جلست على حائطه المطل على

البحيرة ، ودليت ساقىَّ نحو اللجة ، وأرسلت عينىَّ تجولان فى عباب الماء وعنان السماء وقد التقيا عند الأفق ، فما كنت أدرى أين تبتدئ السماء ولا أين تنتهى البحيرة . فخيل الى أنى أسبح فى طبقات الأثير ، وأغوص فى لجج الفضاء المطلق . ولكن السرور الذى تسبح به نفسى وتمرح كان أوسع وأروع وأضوأ وأعمق من الجو الذى يسبح فيه جسمى ألف مرة . وليس فى الامكان أن أعرف هذا السرور أو بالحرى هذا الصفاء الباطن ، فقد كان أشبه الأشياء بسر بعيد الغور شاع فى جوانب نفسى بالاحساس لا بالكلام ، أو بالشعور الذى تدركه العين اذا انتقلت الى النور بعد الظلام ، أو أشبه شىء بنفس الصوفى اذا اعتقدت حلول الله فيها بوحيه وهديه . فهو نور من غير نار ، وسكر من غير خُمار ، وراحة من دون عناء ولا سكون !

لو أتى علىَّ فى هذه الحال ما أتى من القرون على هذه البحيرة لما شعرت أنى لبثت أكثر من ثوان معدودة : ذلك هو فقد الشعور بالزمن الذى يعترى الخالدين فى الجنة !

١٦

كان ذلك الشعور فى نفسى غير معيَّن ولا مبين ولا محدد .

فقد كان كمالا لا يقدر ولا يفصل ، ووحدة لا تجزأ ولا تحلل ، لا من طريق الفكر ولا من طريق العقل . لم يكن مبعثه جمال هذه المرأة الفاتن الذى أعبده ، لأن ظلال الموت لم تزل ممدودة بين جمالها وعينى ؛ ولا الصلف والزهو بأنها تحبنى ، لأنى أجهل مكانى منها ، فربما كنت فى عينها حلما بدا ثم تبدد ؛ ولا الأمل فى نيل هذه المتعة الجميلة ، لأن اجلالى لها كان فوق هذه الشهوات السافلة والملذات الباطلة فلا أخطرها ببالى ؛ ولا المباهاة بالظفر فى سبيل هذه المرأة ، لأن هذه الصفة الذميمة ليست من عادتى ولا خلقى ، وليس فى هذا المكان القفر من أباهى أمامه بحبى ، وأستطيل عليه باختيالى وعجبى ؛ ولا الرجاء فى أن يجمع بيننا الزواج ، لأنى أعلم أنها زوجة ؛ ولا اليقين بأنى سأنعم برؤيتها ، وأسعد نفسى بصحبتها ، لأنى لست مطلق الارادة ولا حر التصرف ، وعما قليل تنبو الديار ويتصدع الشمل ؛ ولا التأكد من أن لى مكاناً فى قلبها ، ونصيباً من حبها ، لأنى أجهل دخيلة نفسها ومطمح هواها ، اللهم الا حركة وكلمة عبرت بهما عن شكرها ليدى وجميلى . كان مبعث شعورى وسرورى شيئاً آخر غير هـذا كله : كان عاطفة نزيهة نقية هادئة لا يشوبها غرض من أغراض الحياة ، ولا عرض من أعراض المادة . كان شعور الراحة يجده من ظفر بحاجة طالما

نشدها فما وجدها ، ويدركه القلب العابد القانت أعوزه معبوده ، وعز عليه شهوده ، فيمضه الالم ويرمضه العذاب ، حتى اذا اهتدى اليه عاق به علوق الحديد بالمغناطيس ، وفنى فيه فناء النفس فى الهواء الطليق . ومن أعجب الاشياء أنى لم أكن عجلان الى النظر اليها ، والوقوف بين يديها ، والاستماع الى صوتها العذب المشتهى وهى التى أصبحت مناط آمالى وقبلة خاطرى ومنتجع هواى ! ذلك لانى رأيتها فاحتويتها . وليس فى مقدور أحد أن يستردها منى ، أو يبعد صورتها عنى ، فأنا على القرب والبعد والمشهد والمغيب أراها فى نفسى ، وما عدا ذلك لا يشغلنى ولا يعنينى . ان الحب الكامل المطمئن صبور ، لأنه مطلق ولأنه خالد . فانتزاعها منى انتزاع لقلبى ، لأنى أحسست منذ رأيتها أنى ملكتها ، كما تملك العين النور حين ترمقه ، والرئة الهواء حين تستنشقه ، والنفس الفكر حينما تعلقه . لقد رأيتها وحسبي ذلك غذاء لتأملى ونجواى . أما ادمان النظر فمتاع ولذة ، وسواء على أمنحتنى حبها ، وشغلت بى قلبها ، أم مرت على فلا تفطن الى . لقد غشينى ضوؤها وغمرنى سناها فلم تعد تستطيع هى استرداد ما نالنى من أشعتها وبهائها ، كما لا تستطيع الشمس أن تسترجع ما منحت الطبيعة من حرارتها ولألائها . وأحسب انى — وان عمرت القرون — لا أحس فى

قلبي برداً ولا ظلاماً ، لأنها ستشع فيه الحرارة والنور ، على كر الأيام ومر العصور

١٧

أفاض هذا الاعتقاد على حبي سكينة الدوام ، وهدوء اليقين ، وسعة اللانهاية ، ونشوة الفرح ، الذى لا تقر فورته ، ولا تسكن سورته على طول الأبد . فتركت الساعات تمر دون حساب ولا عد ، ثقة بأن ما أمامى منها لا حصر له ولا حد . وكان فى استطاعتى أن أفارق هذه الفتاة قرناً من الدهر دون أن يعبث هذا الزمن البعيد بحبي ، فلا يقلل يوماً من خلوده ودوامه ، ولا ينقص شيئاً من كماله وتمامه . لقد كنت أذهب وأؤوب ، وأقعد وأقوم ، وأسرع وأبطئ ، وأمشى على الارض لا تمسها قدماى كأنى شبح من أشباح الغيب ، ترفعه قوته السباحة عن أديم الثرى فينزلق عليه دون أن يمسه . كنت أفتح ذراعى للهواء وللماء وللفضاء كأنى أريد أن أعانق الطبيعة أشكرها على أن تجلت بأنوارها وأسرارها وحياتها وجمالها فى هذه المرأة الفاتنة . وكنت أجثو على الصخور والشوك دون أن أحس ، وأركع على شفير الهاوية دون أن أرى ، وأرفع صوتى بالكلام المبهم يطغى عليه صخب الامواج الهادرة

فيذهب ، وأغوص فى رقيع السماء اللازوردية بنظراتى الدائبة الثاقبة لأكشف فيها عن وجود الله نفسه

أنا لم أعد قط انساناً ، وانما كنت تسبيحة هائمة، وتحية دائمة ، أصيح وأغنى ، وأبتهل وأصلى، وأذكر وأشكر، بالفيض والالهام، لا بالنطق والكلام ، فمشاعرى ثملة فرحة ، ونفسى هائجة مرحة ، وجسمى ينتقل من هاوية الى لجة غير ذاكر هيولاه ، ولا معتقد بالزمان ولا بالمكان ولا بالموت . وهكذا فجر الحب فى قلبى ، ينابيع الغبطة ، وأيقظ فى نفسى راقد العواطف ، وجلا لعينى مسارح الخلود !

١٨

ما فطنت الى فرار الساعات الا حين لألأت شمس الظهيرة على أسوار الدير . فهبطت من السطح وأخذت أثب خلال الاشجار من صخرة الى صخرة ، ومن جذع الى جذع ، وقلبي واجف تكاد تنشق حنايا الصدر من وجيبه . فلما دنوت من المنزل الذى أوينا اليه المريضة ، نظرت فاذا هى جالسة فى مرج وراء البيت تحت حائط مدعم بالصخور ، وثوبها الابيض يلمع فى ضوء الشمس فشعشع خضرة الروض ، وكومة من المرعى ترسل عليها

الظل فوقتها شمس الظهيرة . كانت تقرأ فى كتاب منشور على ركبتيها ، فقطعت القراءة هنيهة وأقلبت ترتع وتلعب مع الاطفال الذين جاءوها يقدمون اليها الزهور والفاكهة . فلما أبصرتنى همت بالنهوض الى ، فشجعتنى هذه الحركة على التقدم فتقدمت ، وقامت هى تلقانى وعلى خديها حمرة الخفر ، وعلى شفتيها اختلاجة الحياء ، فزاد ذلك فى خجلى وقلل من نشاطى . وربكتنا معاً غرابة الموقف ، وأخذت علينا مذاهب القول ، فلبثنا ردحاً من الزمن لا نجد حديثاً نفتحه ، ولا حادثاً نشرحه ، حتى أومأت الىّ ايماءة خفية بالجلوس فى ظل الكومة على مقربة منها . فظننت أنها كانت تنتظرنى وأنها أعدت لى المجلس قبل مجيئى . فأخذت مكانى فى أدب وحشمة ، واستمر منى ومنها السكوت . وما ذا كنت تريد أن نقول ؟ لقد كان كلانا يبحث دون طائل فى حنايا ذاكرته ونواحى خياله عن تلك الكلمات المبتذلة التى يتداولها الناس تداولهم للنقد المزيف ، فيكتمون بها أفكارهم بدل أن يعلنوها ، ويبهمون بها آراءهم دون أن يبينوها . أما الحديث الخاص فقد كان شأنه أعجب ، لأنا خشينا أن يقصر فيخل ، أو يطول فيمل ، فآثرنا أن نكظم على ما فى نفوسنا فلا يتعدى الشفاه ، وازداد على طول الصمت احمرار الوجه وانكسار الطرف . ولعل هذه

الحال كانت تطول لولا أن ارتفعت أجفاننا وتلاقت أبصارنا ، ورأى كل منا فى عين الآخر مكنون سره ومستور أمره . رأيت فى عينيها فيضاً من الشعور والحساسة ، ورأت فى عينى ولا ريب وفراً من الحماسة والطهر ، فلم يستطع كل منا أن يرد بصره عن وجه أخيه ، وأجهشت مآقينا بالدمع فى وقت واحد ، فرفعنا أيدينا بحكم الغريزة الى عيوننا لعلها تخفى ما فضحه الدمع ونم عليه الجزع

لا أدرى كم لبثنا على هذه الحال الى أن قالت بصوت متهدج ولهجة بطيئة رزينة : « أبعد أن زرفت علىَّ عبرتك ، ومنحتنى أخوتك ، تهاب الكلام ولا تجرؤ على الحديث ؟ ان دمعة تسكبها عين نزيهة من قلب مجهول لهى أثمن من حياتى وأجل نعم الله على . ثم أشربت صوتها نغمة العتاب الرقيق وقالت : لعلنى عدت غريبة فى عينك ، منذ أصبحت غنية عن عونك ! أما أنا فما كنت أعرف منك الا اسمك ووجهك ، والآن عرفت نفسك معرفة ما كانت تتهيأ لى فى قرن . فقلت لها : أما أنا ياسيدتى فلا أريد أن أعرف منك ذلك الجثمان الحى الذى يشبه ما للناس ، وتصله بهذه الحياة علائق كعلائق الناس ، وانما أريد أن أعرف ذلك السر الذى نقلك الى طور الخلود ، وسما بك الى أفق الوجود ، ودعانى الى أن أراعيك بنظرى على بعد ، وأستحضرك فى قلبى كل لحظة . فقالت

« لا تخدع نفسك هذا الخداع ولا تُضْفِ عليَّ من قلبك هذا الثوب السماوى والنور الالهى ، فانك لا تدرى مقدار ألمى اذا انكشفت الأيام عن ضلال هذا الوهم ، وفساد هذا الزعم ، وتبدُّد هذا الحلم . لا ترفعنَّ أكثر من امرأة بائسة تقضى نحبها فى ظلمة اليأس ووحشة العزلة ، وكل ما تزودته من الناس ، وادخرته من الحياة شىء من الرحمة قليل . ستعلم ذلك حق العلم يوم أكشف لك عن حقيقة حالى وباطن أمرى . ولكن أخبرنى قبل ذلك عن شىء فيك طالما ساورنى منه اشفاق وقلق منذ رأيتك فى الحديقة . ما بالك وأنت فى ميعة الشباب ومرح الصبا وجمال الخلقة تسير مع الهم وتستأنس بالوحشة ؟ لماذا تتحامى الناس وتعتزل أهل المنزل وتؤثر الانفراد بنفسك فى مجاهل الجبل أو البحيرة ، أو تحتبس فى غرفتك لا تبرحها سحابة يومك ؟ والناس يقولون ان مصباحك يبيت هزيعاً من الليل مضيئاً . هل ينطوى ضميرك على سر لا يستريح بمكنونه الا الى الخلوة ؟ قالت ذلك ثم انتظرت على قلق بادٍ واشفاق ظاهر وهى ناكسة الطرف مخافة أن ينم وجهها على ما يحدث جوابى فى قلبها . فأجبتها : ان هذا السر هو أن ليس لى سر . هو الشعور بعبء ذلك القلب الذى لم تهجه الى الآن فى

صدری حماسة ، ولم ترفعه بين جوانحی حمية . هو الالم مما أصاب هذا القلب الكسير الذی جدت به علی الحب الناقص والعواطف المكذوبة ، ثم اضطررت الی استرجاعه دامی الشغاف ، مضطرب الوجيب ، عزوفاً عن اللهو ، يؤوساً من الحب ، وهو فی غرب شبابه وحدة شعوره

ثم قصصت عليها ما يعنيها من تاريخ حياتی وجملة أمری بلسان صادق ولهجة صريحة . أخبرتها أنی درجت من مهد صغير فقير متواضع ، وأن أبی كان عسكرياً وثيق التركيب قوی العصب ، وأمی كانت لطيفة الشعور صافية الحس ، غذت حداثتها بلبان العلم ، وجملت شيبتها بحلية الأدب ، وحدثتها عن اخواتی وما هن عليه من خلوص النية وسماحة الخلق ، وعن نشأتی فی حجر الطبيعة بين أطفال الجبال من مواطنی وجيرتی ، وولوعی بالدراسة السهلة الخالبة وعطلتی القاهرة من الاعمال الكاسبة ، وقصصت عليها نبأ غرامی الأول الصادق بابنة الصياد فی نابلس ، وعلاقاتی الفاسدة بباريس وما جرته الیَّ هذه المخازی من رعونة فی خلقی ، واضطراب فی عيشی ، وخجل من نفسی ؛ ووقفتها علی شغفی بالجندية ووقوع الصلح يوم دخلتها وانتظمت بها ، وخروجی الی الجولان فی كل بلد وتحت كل كوكب ، ورجوعی الی أسرتی وما بين جنبيَّ الا

خيبة المسعى واخفاق الأمل ؛ وما أصابني بعد ذلك من انقباض الصدر ولزوم الهم ورجاء الموت ، وما نجم عن ذبول الجسم ورقة البدن من همود النفس وفتور العزم ، وما يختفي وراء شعري الأسود ووجهي النضر ومعاطفي اللدنة وأربعة وعشرين ربيعاً من شيخوخة باكرة في النفس ، وطبيعة نافرة من العيش ، وذهادة رجل أخلقته السنون وحطمته السن العالية

كان لساني يفيض بذكر ما كابدت في حياتي من جفاء وخشونة ، واشمئزاز ورعونة ، وخور وقنوط ، ولكن قلبي أصبح منذ هذه اللحظة لا يعرف معنى هذه الأسماء ، ولا يجد أثراً فيه لهذه الأشياء . فان نظرة واحدة منها جددت كياني ، وغيرت وجداني ، وبعثتني من رقود . فأنا أتكلم الآن عن نفسي كما أتكلم عن انسان مات أو حادث فات لا صلة بينه وبين انسان وليد وحادث جديد

فلما فرغت من حديثي نظرت اليها نظر المتهم الى قاضيه ، فاذا هي مرتعدة الجسم ساهمة الوجه من الجزع تقول : رباه ! لقد أفزعتني بحديثك ورعتني . فسألتها ولماذا ؟ فقالت لأننا نتشابه في أكثر الأشياء ، وان لم تشبهني في الوحدة والشقاء . ان تاريخ حياتك اذا تغيرت فيه الاسماء والظروف كان تاريخ حياتي لا يزيد

ولا ينقص ، والفرق أن حياتك تبتدئ أما حياتى . . . فمنعتها أن تتم الجملة بأن وضعت على قدميها شفتى ، وطوقتهما بذراعى كأنى أريد أن أعوقهما فلا تطير ، وصحت قائلا كلا ! كلا ! انها لن تنتهى ، واذا قضى الله لها النهاية فلتكن لحياتى أنا أيضاً . وكان من أثر هذه الصرخة العصبية ، وتلك الحركة الاضطرارية ، أن سرت فى جسمى رعده قوية ، فلم أجرؤ على رفع وجهى من الأرض بعد أن جمعت قدميها اليها . أما هى فقالت بصوت الوقور الحليم : انهض من مكانك ولا تطع قلبك فى حب شىء يسير كهذا الغبار الذى يعلق بشعرك الجميل ولا يلبث أن تهب عليه أعاصير الخريف فتذروه . لا تدلس على عقلك الرأى فى هذه الفتاة المسكينة التى تراها ، ولا تخدع نفسك عن حقيقتها ، فليست الا ظل شباب وأثر جمال وخيال حب ، واحتفظ بقلبك للاتى كتب الله لهن الحياة . أما طرائد الموت فأعطهن ما للأموات : يدا رفيقة تسندهن فى الخطوة الأخيرة ، وعيناً مخلصة تذرف عليهن دمعة صغيرة . قالت ذلك بلهجة رزينة حازمة صابرة ، فارتعد جسمى واضطرب فؤادى . ولكنى حين رفعت بصرى اليها ، وأشعة الأصيل تنعكس عليها ، فتزيدها ضياء ورواء ، رأيت نضارة وجهها وطلاقة ملامحها يزداد ازدهارهما ساعة فساعة ، كأنما أشرق فى قلبها شمس جديدة . فلم

أستطع أن أصدق بكمون الموت فى هذه الحياة ، ولا بخفاء الخطر فى علائم هذا الأمن . وبعد فما أدرى ما ذا يشغلنى الآن ويهمنى ؟ ان كان الله قد قضى فى هذه الحورية بالموت ، فالموت هو الذى أقصده وأنشده . ومن يدرى ؟ لعل الحب الشامل الكامل الذى تظمأ نفسى اليه يكون فيه ، ولعل الله لم يرنى هذا النور الذى يوشك أن يخبو على الارض الا لأهتدى بسناه فأتبعه الى القبر ثم الى السماء .

ثم قالت بلهجة لا تشبه لهجة الخليلة التى تتكلف وقار الصوت ، وتتعمد جد الكلام ، وانما تشبه لهجة الأم الصغيرة ، أو الأخت الكبيرة ، التى تتحدث فى عقل وحكمة الى ولدها أو أخيها : لا تستغرق هكذا فى أحاديث النفس وكواذب المنى بل الق بالك الى : أنا لا أريد أن تتعلق بوهم باطل وحلم زائل وظاهر مموه ، أريد أن تفهم حقيقة من تملكها نفسك وتحبس عليها هواك ، وتعلم أنى لا أستطيع استحقاق هذه النفس ولا استبقاء هذا الحب الا بالخديعة والكذب . والكذب كان وما زال أبعد الخلال عن نفسى وأثقل الرذائل على طبعى ، حتى لو علمت أن نعيم الجنة معلق على شىء من النفاق والكذب لاجتويته آبية ، وصدفت عنه راضية . فما السعادة المختلسة الا جحيم القلب وشقاء النفس ووخز الضمير .

قالت ذلك وعلى وجهها نقاء الطوية ، وفى صوتها ولاء القلب ، وفى

عينيهـا صفاء الضمير . نخيل الى أن الحقيقة الخالدة تمثلت فى هذا الجثمان الطاهر ، واستقبلت ضوء الشمس الباهر ، ثم بعثت بصوتها الى الآذان ، وبنظرها الى العيون ، وبروحها الى القلوب . فاستلقيت على حفافى الكومة عند قدميها واعتمدت رأسى بكفى اليمين وشخصت ببصرى الى شفتيها حتى لا يفوتنى منها نغمة ولا حركة ولا نسمة

١٩

ثم أخذت الفتاة تسوق الى تاريخ حياتها تقول : ولدت على مقربة من بلد ڤرچينى وهو كما شاءت مخيلة الشاعر جزيرة افريقية من جزر المحيط الهندى . ولا شك أنك لاحظت هذا فى سواد شعرى وشحوب وجهى ، وسمعته فى هيئة منطق واختلاف لهجتى . وقد حاولت أن أمحو هذه النغمة من شفتى فما استطعت . على أننى أوثر من صميم قلبى أن أحتفظ بهذا الجَرْس ، لأنه الأثر الوحيد الذى أبقته صروف الأيام من طفولتى . فهو يذكرنى بشىء يشبه النواح فى رفيف النسمات على موج البحر ، وبساعات القيظ تحت ظلال جوز الهند . وأظهر ما يتجلى لك من خصائص مولدى تلك الرخاوة التى استعصت على الاصلاح فى وقفتى ومشيتى ، فهى

تخالف ما للفرنسيات من نشاط وخفة ، وتنم على ما فى نفوس المولودين فى المستعمرات من استرسال مع الطبع وجفاء فى الخلق وطبيعة صريحة لا تعرف التصنع ولا الرياء

اسم أسرتى الذى تعرف به هو د . . . وأما اسمى الخاص فهو جوليا . ولما حدثت مذبحة البيض فى سان دومينيك فرت أمى وأنا معها رضيعة من وجه الموت فى سفينة من السفن ، ولكن قضى الله أن تغرق السفينة وتهلك أمى ويلقينى اليم فى الساحل فتلتقطنى زنجية أرضعتنى ثم ردتنى الى أبى بعد بضع سنين . وطاردت أبى فى مأمنه عاديات الليالى فساءت حاله ، واغتصب ماله ، واعتلت صحته وحكم عليه بالنفى والتشريد . فهاجر بى وبأختى الى فرنسا ، وكنت يومئذ فى السادسة من عمرى وأختى تكبرنى قليلا . ثم نزل بنا فى بريتانيا عند قوم فقراء من أهله ، وما لبث غير قليل حتى أدركته منيته ، فكفلتنى احدى قريباته وتبنتنى . حتى اذا بلغت اثنى عشر ربيعاً فجعنى فيها الموت . فتقدمت الىَّ الحكومة بالرعاية والعون جزاء لأبى على ما قدم من خير فى سبيل الوطن ، فآوتنى فى ملجأ من الملاجئ الفاخرة التى أعدتها لبنات الشهداء الذين بذلوا دماءهم ، أو لفظوا ذماءهم ، فى حب فرنسا . فنشأت فى أحضان النعيم والترف ، ودرجت فى رَبع العفاف والشرف ،

تحوطني الحكومة بالرعاية ، ويخصني أهل الدار بالعناية ، فنما جسمي وذكا عقلي ، وتفتحت أكمام صباي عن شيء كانوا يسمونه الجمال . ولكنه جمالٌ رزين حزين منقبض ، جمال زهرة من نبات الاقاليم الحارة انشق عنها كمها تحت جو لا تعرفه ولا تألفه فأدركها الذبول عما قليل . على أن هذا الجمال وهذا الذكاء لم يُصبيا قلباً ، ولم يَسْبِيا عيناً ، في غير الملجأ الذي أعيش فيه . فان رفيقاتي اللاتي جمعتهن بي أواصر المحبة ، وعطفتهن علىَّ عواطف المودة ، ونزلن من قلبي منازل الأهل ، كن يغادرن الملجأ واحدة بعد واحدة اما الى أمهاتهن واما الى أزواجهن ، وأنا مبتورة الرحم مقطوعة الصلة لا تدعوني أم ، ولا تزورني زائر ، ولا يذكرني ذاكر ، ولا يتقدم الى خطبتي شاب ، لأني كنت في البيوت والمنتديات ، نكرة من النكرات ، لا يتحدث عني متحدث ولا يسمع بي سامع . فكان الأسى يرمض جوانحي ويقض نومي كلما رأيت صواحبي يغادرنني تباعاً ، وأيام الأنس بهن تنقضي سراعاً ، ورأيتني متروكة في وحشة العالم ، مجهولة في ظلمة الوجود ، يكابد قلبي عذاب الترمل الدائم قبل أن يذوق الحب ويعرف الحبيب !

ولطالما سحَّت مدامعي خفية ، واثنيت بالملام على الزنجية التي التقطتني فلم تدعني فريسة للأمواج في وطني الأول ، فما كانت

أقسى عليّ من الناس فى وطنى الثانى

وكان رجل نبيه الصوت مرتفع السن يزور المعهد الحين بعد الحين من قِبل الامبراطور ليقف على تقـدم التلميذات فى العلوم والفنون التى يتلقينها عن كبار المعامين فى العاصمة . فكان أولياء المعهـد يقدمونني اليه فى كل مرة مثالا حسناً ونموذجاً صحيحاً لما يبذلون من الجهد فى تربية هؤلاء اليتامى . فقرَّت صورتى فى ذهن الرجل ورأيت منه صَوْرة الى وحدَباً على منـذ طفولتى ، حتى قال على مسمع منى غير مرة : انه شديد الأسف على أن ليس له ابن . فى ذات يوم دعيتُ الى غرفة الرئيسة فوجدت فيها ذلك الشيخ الجليل ينتظرنى ، فلما رآنى اعتراه ما اعترانى من الهيبة والرهبة . ثم أخذ يقول : أى بنية : ان السنين تمر على كل الناس فما بقى منها طويل عليك قصير على . وقد سلخت اليوم من عمرك سبعة عشر ربيعاً ، وفى بضعة شهور تبلغين السن التى تخرجين فيها من هذه الدار الى العالم . ولـكن ليس فى العالم من يبسط ذراعيه للقائك ، ويفتح مصراعيه لإيوائك ، فأنت عديمة الوطن والأسرة والمال والأهل ، والبلاد التى عرفت الحياة فيها ، ودرجت بين ربوعها ومغانيها ، استولى عليها الزنوج . فحرمانك من الحياة المستقلة الراقيـة ، أو الحماية المخلصة الواقية، أزعجنى منذ سنين عليك . فان ابتغاء الفتاة الرزق من طريق

العمل أمر محفوف بالمكاره والمكائد ، والتجاؤها الى كرم الأصدقاء نزول بالنفس الكبيرة الى مواطن الضراعة ، والجمال البارع الذى حباك به الله ضياء يكشف عن ظلام الحظ ، ويدل عليك الرذيلة ، كما يدل الذهب السارق على نفسه ببريقه . فبمن تعتصمين اليوم من هذه الأحزان التى تتوعدك ، أو تلك الأخطار التى تترصدك ؟

فأجبته لاأدرى . وانى لأعلم منذ طويل أن لا عاصم لى من حظى المشئوم وقضائى المحتوم الا الله أو الموت

فعاود الشيخ الكلام وعلى ثغره ابتسامة الحزين الهائب : قال انى فكرت فى مأمن ثالث ، ولكنى لا أكاد أجرؤ على عرضه . فقلت له : اعرضه ياسيدى ، فإنك منذ طويل تحمل لى فى قلبك وعينك ولسانك حنان الأم ونظر الأب ولهجة الأمين الناصح . وأرى أنى أسمع أبى حين أسمعك ، وأنى أطيعه حين أطيعك وأتبعك . فقال أتعاملينني معاملة الوالد ؟ ما أسعد من كانت له ابنة مثلك ! وما إخالك تبخلين علىَّ بالعفو اذا علمت أنه وقع فى بالى هذا الخاطر ، ولمع فى خيالى هذا الحلم . ولكن اصغى لى ثم ردى على بكل ما فى طبعك من حرية ، وما فى عقلك من روية . لقد بلغتُ ساحل الحياة وأصبحت هامة اليوم أو غد ، وليس فى الدنيا من عقبى من أخلف له ما حصّلت من سمعة جميلة ، وثروة قليلة ، ولقد قطعت مراحل

عمري وحيداً لا تشغلني شاغلة عن هذه الأبحاث التي أفنت جسمي وأحيت اسمي ، وأنا اليوم أكاد أرسو الى شاطئ الحياة ، ويسلمني الوجود الى العدم ، وكأني واحسرتاه لم أعش ، لأني ما فكرت في أن أحب . لقد يكون من الفوات أن أرجع أدراجي في سبيل المجد التي اخترتها الى سبيل السعادة التي تنكبتها ، ولكني لا أريد أن أترك حياتي دون أن أبقيها بعد مماتي في ذاكرة بعض الناس بالعاطفة ، والعاطفة وحدها هي الخلود الذي أومن به وأعتقده . وما هذه العاطفة الا قليل من شكر النعمة وعرفان الجميل ، لا أريده الا منك ولا أغرسه الا فيك . ولا سبيل الى ذلك الا اذا اصطنعت الشجاعة واستطعت أن تقبلي أمام الناس من هذا الشيخ الراحل اسمه ويده وقلبه . انه يريد أن يكون الزواج جُمعةَ ما بينك وبينه حتى يتسنى له أن يقبلك في داره ، وأن يخصك باعزازه وايثاره . أما الأمر في الواقع فلن يتعدى أن يكون لك أبا وأن تكوني له ابنة . ثم أمسك عن الكلام ونهض للقيام دون أن يقبل في هذا اليوم على ما قال جواباً . على أن هذا الجواب كان حاضراً على بديهتي ، جارياً على شفتي ، ولا يمكن أن يكون غير القبول . فان هذا الرجل وحده هو الذي أظهر لي عاطفة تختلف عما كان يظهره سائر الزائرين من النظرات النابية على القحة ، والكلمات المطوية على الاهانة ، في ثوب من

الاعجاب الجرىء ، والاطراء البذىء ، والمدح المبتذل الذى تندى له العذراء الخفرة . أنا ماعرفت الحب ولا أحسسته ، وانما وجدت فى قلبى فراغاً ووحشة لفقد العشير واعواز النصير وسوء المصير وعدم الأسرة . وخيل الى أنى أجد كل ما أفقد فى والد تبنانى قلبه ، ووسعنى حبه ، وبوأنى من شرفه وجاهه الملجأ الأمين والحماية القوية من المستقبل الغامض والوجود المريب . ان رأسه قد علاه المشيب ، ولكن سمعته الطيبة تفيض على مخالطيه ومقربيه الشباب والقوة . وان سنه لتنيف على خمسة أضعاف سنى ، ولكن ملامحه الجميلة الجليلة تبعث فى النفوس جلال السن خالياً من شوائب الشيخوخة . وان وجهه ليلوح عليه جمال النبوغ وجمال السماحة ، وهما أثران من آثار الكبر يسترعيان الأعين ويستهويان القلوب حتى عيون الأطفال وقلوب الصبية

. . . .

فى اليوم الذى خرجت فيه من ملجأ اليتامى دخلت منزل الشيخ . ومضى الناس يدعونه زوجاً ويأبى هو الا أن أدعوه أباً . وبذل لى من ذات نفسه واحترامه واهتمامه كل ما يستطيع بذله ، وجعلنى شمساً وضاءة لهالة من الشيوخ الأجلاء المصطفين الذين ذهب سمعهم فى الناس بالنبوغ فى الآداب ، والتعمق فى الفلسفة ،

والدهاء فى السياسة ، ونشروا على القرن الماضى سناء ومجداً ، وملأوا مسامعه ثناء وحمداً ، ونجوا من مقصلة الثورة ورق الامبراطورية ؛ وعقد أسباب المودة بينى وبين نخبة من كرائم العقيلات اللاتى اشتهرن بين أهل العصر بذكاء الطبع وصفاء القريحة . وكان يحرضنى هو نفسه على تلك الميول القلبيـة والفكرية التى تُسلى النفس ، وتُسَرّى الهم ، وتنوع حياتى المتشابهة . وكان ينظر الى علائقى بالناس وهو أبعد ما يكون عن سخافة الغيرة وجفاوة الطبع ، ولا يتحرج أن يعرفنى الى من تروقى صحبته ، ويمتعنى حديثه ، من ذوى الجاه والفضل ، وكانت نفسه تشرق بالغبطة ، ووجهه يفتر بالبشر ، كلما رآنى أفضل أحداً من الجماعة وأختصه بالاقبال عليه ، والتحدث اليه ، ولا يتردد هو أيضاً فى ايثاره واكباره . لقد كنت روح هذا البيت ومعبوده ؛ وكان اجماع أهله على عبادتى ، وتنافسهم فى راحتى وسعادتى ، من الأسباب التى أنامت فى قلبى عواطف الحب ، وسكنت فى نفسى عواصف الهوى ، لأن مشاعرى وحواسى كانت معمورة بالسرور ، مغمورة بالملق ، فلم يبق فيها فضلة ولا بقية لأحد . ناهيك بما كان يبديه الىَّ زوجى من الأبوة الحنون والنفس العطوف ، وان كان حنانه لا يعدو فى جميع أمره أن يضمنى الى صدره ، ويمس جبينى بثغره ، بعد أن يرفع عنه خصائل شعرى

بيده . لقد كنت ضنينة بسعادتى على الغير فما حاولت لها كمالا ولا زيادة ، واكتفيت أن أحسها دون أن أمسها مخافة أن تفزع فتطير. على أن زوجى طالما نعى على وهو يمازحنى زهادتى وعزوفى . وأعلن غير مرة أنه ينعم بنعيمى ويهنأ لهنائى

وحدث لى مرة أنى ظننتنى محبة محبوبة . وذلك أن رجلا نابه الصيت لنبوغه فى العلم ، قوى النفوذ لصلته برئيس الحكومة ، خلاباً بما أحرزه من المجد والنصر ، جذاباً بما بقى بعد شبابه من صباحة الوجه وجمال القسمات ، أظهر لى العطف والمحبة . فهز من عطفى وحرك من هواى مجاملة وشكراً ، لا زهواً وكبراً ، وأحببته حيناً من الدهر ، أو بالحرى أحببت الوهم الذى خدعنى فيه وغرنى منه ، وكدت أسلم نفسى لعاطفة ظننتها روحية فاضلة ، فاذا هى بهيمية سافلة . فانقلبت محبته بغضاً ، وعادت سماؤه أرضاً ، وجرى على وجهى عرق الخزى من هذا الخطأ الفاضح والضلال المعيب . ثم استرجعت قلبى ، واستنقذت حبى ، وضيقت على نفسى الخناق ، وشددت على عواطفى الوثاق ، حتى لا تنصرف عن سعادتى المتشابهة الباردة . ففى الصباح دروس عالية ومطالعات ممتعة فى مكتبة زوجى ، وفى الضحى نزهة خلوية معه فى غابات سان كلو أو مودون ، وفى المساء سمر مع الأصدقاء ، وجلهم علاه الوقار ، وتوجه المشيب

يتناقشون فى كل شىء بحرية وصراحة وثقة ، وقلوبهم الباردة السمحة تتحدر الى شبابى من علاها تحدر الماء الخصر من قمم الجبال الثلجية

تلك هى حياتى : شباب مطمور فى ثلوج المشيب ، وجو فاتر بأنفاس الشيوخ ، أنقذ روحى من يد الموت ولكنه أنحل جسمى بالسقم ، وملأ فى طبعى بالسأم . آه ! لشدما تفصل السنون الطويلة بين قلوبهم وقلبي ! وما كان أطيب للنفس وأثلج للصدر لو كان لى بجانب هؤلاء صديق أو صديقة يدفئ خلاطها برودة خواطرى وهى تتجلد فى نفسى كما تتجلد أنداء الصباح على الزهور القريبة من ثلاجات هذه الجبال !

وكان زوجى ينظر الىّ نظر المحزون ، والأسى يكاد يرهقه كلما رأى صوتى يناله الخفوت ووجهى يمسه الشحوب ، ويتمنى ولو بجدع الأنف أن يبعث فى نفسى روحاً وقوة ، وفى قلبى حياة وحركة ؛ وكان لا يفتر عن دعوتى الى كل ما يزيح علتى ، ويذهب وحشتى ، ويبسط انقباضى ، من متع الحياة وملاهى العيش ؛ أو يعهد بى الى من يعرف من صديقات وصواحب . ويضطرنى فى حنان ورأفة الى الظهور فى الحفلات والمراقص والمسارح . وكانت نضارة شبابى ووضاءة وجهى تبعثان فى قلبي السرور والزهو بما تفيضان على من

حولى من النشوة والبهجة

وفى صباح كل ليلة من هذه الليالى الساهرة الزاهرة كان زوجى يدخل علىَّ الغرفة ويستنبئنى عما أحدثتُ من آثار واسترعيت من أبصار وهززت من قلوب . ثم يقول لى بلسان رقيق عذب : أنت اذن لم تشعرى بأثر جمالك فى الأعين ، ولا بسحر جلالك فى القلوب ! ان قلبك الشاب وهو فى العشرين من سنه خلق شيخاً فانياً كقلبى . أوه ! ما أسعدنى أن أراك تصطفين من هؤلاء المغرمين بك ، الحافين من حولك ، شاباً سرى الخلق نبيل النفس يتمم يوماً ما سعادتك بحبه ، ويجعل حياتك هنيئة بقربه ، ويفيض عليك بعد موتى الحنان من عينه وقلبه !! فأجبته ان صداقتك حسبى ، وانى لسعيدة لا يكدر صفو حياتى ألم ، ولا يشغل بالى هم . فقال نعم ولكنك تهرمين وأنت صبية . وأنا أريد أن تعيشى لتغمضى عينىَّ ، وتذرفى دمعة غالية علىَّ . فجددى شبابك وأحيى قلبك ودومى مهما كلفك الدوام حتى لا أكابد برحاء فقدك ، ولا أتجرع غصص الحياة من بعدك . ثم دعا الأطباء طبيباً بعد طبيب ، فأعنتونى بتكرار الفحص وكثرة الأسئلة ، ثم اجتمعت كلمتهم على أنى معرضه لتشنج القلب ، وقد بدت أعراض الداء الأولى ، فلا بد لى من هزة عنيفة فى حياتى الهامدة ، وغيبة طويلة من

هذه المعيشة الراكدة وتغيير تام للهواء والسماء حتى يعود الى طبيعتى الحارة مافقدته من النشاط والقوة فى ضباب باريس. فما تردد زوجى فى ايثاره سلامتى وبقائى مع البعد عنه، على سروره برؤيتى كل يوم بالقرب منه . فاتفقنا على الرحلة ، وكان يود لو يرافقنى فيها ، ولكن حال بينه وبين ودادته عوائق السن وتكاليف الوظيفة . فعهد بى الى أسرة أجنبية كانت راحلة بفتاتين من سنى الى ايطاليا وسويسرا فسحت معها عامين ، ورأيت هذه الجبال وتلك البحار التى ذكرتنى بمناظر بلادى وأيام صباى ، واستنشيت نسائم هذه الأمواج الفاترة ، وهواء هذه الثلاجات المنعش فلم يستطع شىء من ذلك أن يرد علىّ شبابى الذاهب ولا عمرى المفقود . فأرسلنى أطباء جنيف الى هذا المكان ليجربوا آخر حيلهم ، ويأتوا على كل مابقى من أملهم . وأمرونى أن أقيم به ما دام لشمس الخريف شعاع . فاذا دنا الشتاء انصرفت عنه الى زوجى ، وقد كنت أرجو أن يرى ابنته بعد عودتها صحيحة الجسم رفافة الإهاب ريانة الشباب قوية الأمل فى المستقبل ، ولكنى وا أسفاه لا أعود الا لأسود يومه ، وأطير نومه ، وأسمم بالحسرات ما بقى من حياته . وربما حم القضاء فينطفى سراجى أمام عينيه ، وألفظ نفسى بين ذراعيه . ثم قالت بلهجة المطمئن المحتسب : وسواء علىّ بعد ذلك الحياة والموت ، فانى أرد حياض المنية

متى وردتها وعيني قريرة ونفسي راضية . ذلك لأني حققت الأمل الذي طالما ارتقبتـه ، ورأيت الأخ الذي رجوته وانتظرته ، ذلك الأخ الذي ملأ أوهامي وأحلامي ، وشغل بالبحث عنه لياليّ وأيامي، وقبّح مثاله في عيني وخياله في ذهني كل مخلوق سواه . ثم حجبت عينيها بكف سبْطة البنان طفلة الأنامل ، فسالت من خلالها عبرة أوعبرتان على خدها الأسجح الجميل، وقالت : أجل! ان أحلام لياليّ الطويلة قد تمثلت في صورتك هذا الصباح لدى يقظتي . أواه من فوات الوقت وسوء البخت ودنو الأجل ! لقد أصبح متمناي الآن أن أعيش القرون لأطيل شعوري بأثر تلك المحاجر التي جادت عليّ بالبكاء ، وتينك اليدين اللتين عطفتا علي بالدعاء ، وتلك النفس التي غمرتني بالرحمة والرثاء . ثم رفعت طرفها الباكي الى السماء وقالت : وهذا الصوت الذي دعاني أخته ! وما أحسبه يعود فيسلبني سعادة هذا اللقب الجميل لا أثناء حياتي ولا بعد مماتي .

٢٠

فهوى رأسي على قدميها من فرط السعادة والتصق بهما فمي لا يحير جوابا ، ولا يستطيع خطابا . وأقبل الملاحون يعلموننا أن البحيرة قد هدأت ، وأن ما بقي من النهار لا يكاد يبلغ معنا شاطئ

٧٥

ســثوا . فنهضنا من مكاننا واتبعناهم بخطى متثاقلة مختلجة كما يترنح النشوان مادت بعطفه الخمر . وأى قلم يستطيع أن يصف الشعور الذى ملكنى حين أحسست جسمها الرخص على ما به من شفوف الألم يثقل على فى لطف ورقة ، كأنما يلذ لها أن تشعر وتشعرنى بأنى أصبحت منذ اليوم قوة ضعفها ، وثقة نفسها ، وسند حياتها . ولا أزال أسمع وقد مر على هذه الساعة عشرون حولا صراخ الأوراق الجافة تتكسر تحت أقدامنا ، وأرى ظلينا وقد بلغا مثلينا يصيران ظلا واحداً رمت به الشمس الغاربة على خضرة البستان ، فكان كالكفن المتنقل مع الشباب والحب ليدرجهما فى ثنايا العدم قبل حلول الأجل ؛ ولا أزال أشعر أيضاً بدفء منكبها على صدرى ، ونوسان جديلة من جدائل شعرها على وجهى . وما أنس لا أنس محاولتى امساكها بشفتى ليتسنى لى تقبيلها ! أيها الزمن ! ما أقدرك على أن تدفن فى مثل هذه اللحظة مسرات لها دوام الخلود ، وملذات لها سعة اللانهاية ! ولكن ما أعجزك عن أن تمحو من القلوب آثارها ، وتنسى النفوس تذكارها !

٢١

كان وجه البحيرة الليلة فى هدوئه ودفئه ، على قدر ما كان

البارجة فى اضطرابه وبرده ؛ وكانت الجبال غرقى فى صبغ خفيف من البنفسج تعظم فيه وتبعد كلما طغى عليها فحاها ، فما كنت تدرى أهى جبال أم ظلال ضخمة متنقلة لطيفة تتراءى من خلالها سماء ايطاليا الحارة ! وكان رقيع السماء اللازوردية مزدانا بقزعات أرجوانية من الغيم كأنها الريش الدامى نسل من جناح بجعة مزقتها النسور . ولم تعد الأمواج الصدفية المتطاولة تقذف على الصخور غير قطع صغيرة من الزبد ؛ وكان الدخان الساطع من الجواسق العالية يتمزق على جوانب جبل القط ثم يصعد الى السماء ساحبا ذلاذله هنا وهنالك على رَيْده وشعافه ، بينما تجد الشلالات تتحدر فى مدارج السيول كأنها دخان الماء . وكانت صفحة البحيرة شفافة كالزجاجة تتراءى فيها اذا نظرت الوجوه والمجاديف ، دافئة لا تشعر اذا أمررت أناملك على وتر الماء الا بهزة خفيفة لطيفة . وكان يحجبنا عن عيون الملاحين ستار قصير على نحو ما ترى فى قوارب البندقية . وكانت چوليا مضطجعة على مقعد من مقاعد الزورق مرفقها على الوسادة ، وجسمها مدثر بالشيلان اتقاء البرد ، وقدماها فى معطف بعد أن طويته مراراً على نفسه ، ووجهها تارة فى الظل وتارة تنعكس عليه أشعة الشمس الغاربة فيتهلل ويشرق . وكنت أنا مضطجعاً على كومة من الشباك فى أقصى الزورق مفعم القلب

أخرس اللسان عيناى شاخصتان الى عينيها لا تكادان تطرفان . وما حاجتنا الى الكلام مادامت الشمس والجبال والمساء والسماء والهواء والماء والمجاديف وهزات الزورق اللذيذة وأنظارنا وأنفاسنا وأرواحنا تترجم عنا بأصدق لهجة ، وتشرح عواطفنا بأجلى بيان ؟ لقد كنا نخشى أن تكدر الأصوات صفاء هذا السكون ، وتشوه الكلمات جمال هذا الصمت . وكان يخيل الينا اننا ننتقل من زرقة الماء الى زرقة السماء دون أن نرى الساحل الذى تركناه ، ولا الساحل الذى قصدناه . ثم تنفست الصعداء كمن ناء به حمل فادح فرفّه عن نفسه بإلقائه ، فأدركنى شىء من القلق عليها وسألتها أتتألمين ؟ فقالت : كلا ليس مابى من ألم . وانما كنت أفكر . فقلت لها : وفيم تفكرين؟ قالت كنت أرجو أن الله يصيب الطبيعة كلها بالوقوف فلا تسير ، وبالجمود فلا تتحرك ، ويظل قرص الشمس غريقاً الى نصفه وراء الصنوبر الذاهب فى الفضاء ، كأنه الأهداب لأجفان السماء ، ويستمر هذا المزيج من النور والظلام ضارباً فى عرض الأفق ، ويدوم ماء البحيرة على صفائه وزرقته ، وهذا الهواء على دفئه ورقته ، ويقف هذا الزورق بين الشاطئين ، وقوف انسان العين بين الجفنين ، ويبقى هذا الشعاع الأثيرى مشرقا فوق جبهتك ، وذلك النظر الحنون المشفق منبعثا من مقلتك ، وهذا السرور الذى يعمر قلبى بعطفك

ورحمتك ، اذن لكنت أفهم أكثر مما فهمت منذ سوانى الله انسانا ، ورزقنى فكراً ووجدانا . فقلت لها بلهجة الخائف القلق : اذن ماذا كنت تفهمين ؟ فصاحت قائلة : كنت أفهم الخلود تستوعبه دقيقة ، واللا نهاية تستقصيها احساسة رقيقة . ثم استلقت على حافة الزورق وتشاغلت بالنظر الى الماء تريد أن تكفيني ربكة الجواب . ولكنى أجبت بما جرى على شفتى من المجاملة الفارغة والتظرف المبتذل ، لا بما غمر قلبي من العفاف المحض والحب الخالص . وكان حسى الحيوانى لا يرى مثل هذه السعادة كافية ولا وافية ، الا اذا كانت عِدَة لإنجاز ، أو مقدمة للذة . فلم تخف عليها دخيلة نفسى وشرق وجهها من الخجل لى أكثر مما شرق من الخجل لنفسها . ثم ارتدت الى وعلى وجهها طابع الطهارة المهانة ، وقالت بلهجة ملؤها الحنان والتأثر والجلالة لم أعهدها فيما سمعت منها من قبل : لقد أسأت الىَّ وبالغت ! فادن منى واصغ الى . أنا لا أدرى ان كان ما أحسه لك فى قلبي وما تحسه لى فى قلبك هو ما يطلق عليه الناس اسم الحب فى لغتهم الفقيرة المشوشة ، أم هم يطلقون اللفظ الواحد على الأشياء التى لا تتشابه الا فى جرْسها على شفة الانسان ؟ لا أريد أن أعرف هذا ولا أحب أن تعرفه أنت أيضاً . ولكن الشىء الذى يجب أن تعرفه هو أن ما نشعر به من السعادة أسمى وأجل

ما يستطيع انسان أن يتذوقه من نفس انسان آخر يشبهه وينقصه ويكمله . فهل يوجد الى جانب هذه السعادة التى لا تقدر ولا تعبر ، وذلك الطموح المشترك والهوى المتبادل الذى جعل من أفكارنا وعواطفنا ونفوسنا وحدة لا تتعدد ، وكلا لا يتجزأ ، وجمعاً لا يتفرق ، كأشعة هذه الشمس التى تغرب وذلك القمر الذى يلوح حينما يتقابلان فى السماء ، أقول هل يوجد الى جانب هذه السعادة سعادة أخرى هى نجمة شوهاء تبعد عن روحيتها وخلودها بعد الذرة من الفلك والدقيقة من الأبد ؟ ؟ أنا لا أعرف هذا ولا أود أن أعرفه ولا أستطيع واأسفاه أن أعرفه . قالت ذلك بلهجة الحزين المشمئز ثم أرسلت نفسها على سجيتها واطمأنت الى ، وأقبلت بأسرها على وقالت : ومالى وللألفاظ ودلالتها ؟ انى أحبك . واذا كتمت ذلك نم عليه الوجود وفضحته الطبيعة . واذا شئت فدعنى أجهر بالقول وأبوح بالسر عن لسانى ولسانك ان كلينا يحب الآخر . فقمت مستطار اللب كمن مسه طائف من الجنون ، وأخذت أذهب وأجىء على الزورق الهادىء المرجحن ، ثم صحت قائلا : قولى ذلك وأعيديه ثم قوليه وأعيديه ألف مرة ، ولنقل ذلك معاً ، لنقله لله وللناس ، لنقله للسماء والأرض ، لنقله للصامت والناطق ، لنقله على طول الأبد ولتردده الطبيعة كلها معنا ! ثم جثوت

أمامها مشبوك اليدين متهدل الشعر مضطرب الحواس شديد التأثر .
فوضعت اصبعها على فمي وقالت : خفض عليك جأشك ودعني أتم كلامي دون مقاطعة . فعدت الى مكاني ولزمت الصمت ، وعادت هي تقول : نعم لقد قلته لك وما قلت وانما صرحت من أعماق نفسي حين عرفتك اني أحبك . وأحبك بمقدار ماعانيت من انتظار واصطبار ورجاء مدة ثمان وعشرين سنة من السنين العقم قضيتها في الفراغ أنظر ولا أري ، وأبحث ولا أجد ، وأجري ولا أصل الى من أدركه الوجدان ونم عليه الحلم . ولكن والهف نفسي علىّ ! لقد عرفتك وأحببتك بعد فوات الوقت وذهاب الفرصة اذا كان مذهبك في الحب كمذهب سائر الناس وفهمك للعشق كفهمهم له ، وأظنه كذلك ، فان جملتك الدنسة الرعناء التي ألقيتها على منذ قليل دلت على دخيلة نفسك . فالق بالك اليّ وتفهم ما أقول لك — اني لك بجسمي وحبي ، وقلبي ونفسي ، لاأذودك عن أمر ، ولا أدافعك عن سر ، ولا أقصيك عن منال . أقول ذلك دون أن أسيء الى ذلك الشيخ الكريم الذي تبناني وأغناني ، فانه لم يرد قط الا أن يكون لي أباً ، وأن أكون له ابنة . فليس اذن مايمنعني أن أعطيك من نفسي ماتحب ، وأمنحك من صلتي ما ترغب ، وألا أمنع منك الا ماتأمرني بمنعه . ولا يدهشنك أن تسمع مني

ما لم تتعود سماعه من نساء أوروبا ، فان شعورهن بالحب سواء أكان منهن أم لهن قليل . فهن يخشين اذا أعلنّ عن حقيقته ، وكشفن عن دخيلته ، أن يفقد أثره فى النفوس ، ويخمد شرره فى القلوب . لست من هؤلاء ولا هؤلاء منى ، فلا تصلنى بهن رابطة من وطن ، ولا عاطفة من قلب ، ولا قاعدة من تربية . لقد ربيت فى أحضان زوج فيلسوف ، ونشأت بين جماعة من رجالات الفكر والعقل والعلم والحرية لا يعوقهم عن النظر الصحيح والفكر الطليق قيود الدين ولا حدود المجتمع ولا سدود التقليد ، فليس عندى ما عندهن من ضلال العقيدة وأفن الرأى وزيغ القلب الذى يطأطئ هامة المرأة العادية أمام محكمة غير محكمة الضمير . ان الهى وإله طفولتهن غير واحد . فأنا أعتقد بإله لا تبصره العيون ، ولا تدركه الظنون ، قد نقش على الطبيعة شارته ووسمه ، وأجرى فى الغرائز شرعه وحكمه ، وبث فى العقول أدبه وعلمه ؛ فالعقل والعاطفة والضمير هى وحدها فيض الهامى ، ومصدر شرائعى وأحكامى . وليس فى هذه الثلاثة واحدة تمنعنى من أن أكون لك . ولا أستطيع أن أصد نفسى عن تهافتها عليك ، وترامبها بين يديك اذا كنت لا تسعد الا بهذا الثمن ، ولا تنعم الا بهذه اللذة . ولكن هل تريد أن

تكون الصلة بين سعادتي وسعادتك هي هذه الشهوة العاجلة ، والنشوة الزائلة ، وهي تُمتع الوجدان وتسر النفس لو تركناها ، أكثر مما تلذ الجثمان وترضي الحس لو قضيناها ؟ ألا تعتقد أن حبنا يكون أمتع وأرفع وأبقى وأنقى ما دام مصوناً في خدر العفاف نازلاً في مناحي الخلود حيث لا يتقلب الحدثان ولا يعدو الموت ؟ فاذا تدلى الى اللذة الحسية الوضيعة ، وتدنى الى الشهوة الدنسة الحقيرة ، فقد كبرياءه ونماءه وبقاءه ؟ ثم سكتت قليلا وعادت الى كلامها تقول وقد شرق وجهها كأنما دنا من النار فتورد . ومع ذلك اذا بدا لك أن تطلب مني في ساعة من ساعات الشك ، أو في سكرة من سكرات الحب ، هذا الدليل على انكاري لنفسي وايثاري لك وفنائي فيك فسأبذل لك من نفسي هذا الدليل . ولكن ثق بأني لا أضحي بكرامتي وحدها ، وانما أضحي بكرامتي ووجودي ، وأنك حين تخطف طهارة قلبي ونزاهة حبي تخطف معهما نفسي وحياتي وروحي ، وانك حين تظن أن سعادتك أصبحت في يديك ، وأن حبيبتك صارت بين ذراعيك ، لا تجد في يديك الا خيالا ، ولا تضم بين ذراعيك الا تمثالا . ثم سكتت هي وانعقد لساني طويلا . ثم زفرت زفرة كاد صدري ينشق لها وقلت : لقد فهمتك ، وان يمين التقديس لك والتنزيه

لحبك والاخلاص والوفاء لشرفك قد أقسمه قلبي قبل أن تتمى حديثك وتكشفى عن غرضك

٢٢

كان من أثر اذعانى لاشارتها واستسلامى لارادتها ، أن فاض فى قلبها السرور وازداد فى نفسها جمال الحنان . وكان الليل قد نشر ذوائبه على البحيرة ، ونجوم السماء قد تراءت فى صفحة الماء ، وسكون الطبيعة الخاشع قد ألقى على الارض فتور الكرى . وخشع صوت الهواء والشجر والموج فاستطعنا أن نسمع العواطف فى قلبينا تناجى العواطف ، والافكار تخاطب الافكار بصوت رخيم خافت ، وكان الملاحون ينشدون تلك الاغانى المرجّعة على نغم واحد كأنها توقيع الموج على رمال الساحل . فذكرنى ذلك بصوتها ، وكان صداه لايزال يرن فى أذنى فقلت لها : آه ! ليتك تُسمِعين هذه الليلة الجميلة بنغمة من أنغامك الحلوة تلقينها فى هذا الموج وفى هذا الظلام فيبقيان على الأبد مشتملين عليك مملوءين منك ! وأشرت الى الملاحين أن يسكتوا وأن يخفتوا صوت المجاديف . فسكتوا ورفعوا المجاديف وتركوها تساقط الماء على نغم الغناء كأنها موافقة موسيقية ذات ألحان فضية . غنت تلك القصيدة الإيقوسية التي

تصف عواطف البحارة والرعاء معاً . وهى عن لسان فتاة أحبها شاب فقير من البحارة . ثم عزم الرحلة الى الهند انتجاعاً للرزق وطلباً للثروة . فلما شط مزاره ، وطال انتظاره ، زوجها أهلها من شيخ كبير . وكادت تعيش بجانبه رافهة سعيدة لولا أن ذكرى حبيبها الأول كانت تنتابها الحين بعد الحين . وهاك مطلع هذه القصيدة :

حينما تهجع الخراف فى الحظيرة ،
ويعقد الكرى الهنىء أهداب العيون ،
أبيت أرعى النجوم وأسامر الهموم ،
وزوجى الشيخ ينام بجانبي ملء الجفون !

وبين مقطوعة وأخرى سبحة طويلة فى الخيال تغنيها بلحن مبهم من غير كلام ، فتهدهد النفس على أمواج الحزن ، وتبعث فى مآقى العيون مدامع الصوت . ثم ترجع الى سياق الحكاية فى المقطوعة الثانية بنغمة مبهمة صماء نائية تعبر عن الذكرى الأسيفة الأليمة المستسلمة . فاذا كان فى أبيات سافو اليونانية نار الحب ، فان فى هذه الأبيات الايقوسية دموع الحياة ودم القلب الجريح أصماه سهم القدر . انا لا أعرف مؤلف هذه القطعة الموسيقية ، ولكنى أدعو الله أن يجود بالرحمة ثراه ، وأن يغمر بالبركة روحه ،

لأنه وفق الى أن يضمن هذه الابيات القصيرة ما شاء له الفن من الحزن الانسانى العميق ، فى أنات هذا الصوت الرخيم الرقيق . وتراني منذ هذا اليوم لا أكاد أسمع مطلع هـذا اللحن حتى أفر فرار الرجل يطارده شبح . واذا دعتنى الحاجة الى عبرة من عينى أفتح بها قلبي غنيت مطلع هذا اللحن الباكى فى نفسى فتترقرق فى مآقىَّ الدموع ، وانا أمرؤ جامد العين لا أعرف البكاء !

٢٣

بلغنا ميناء برتُويس وهو مرفأ صغير داخل فى البحيرة ترسو به السفن القادمة الى مدينة إكس على مسيرة ميلين منها . وكنا فى موهن من الليل ، فلم نجد هناك مركبة ولا مطية تبلغ الفتاة عليها المدينة ، والشقة بعيدة لا تقوى المريضة على قطعها راجلة . فطرقنا كوخين أو ثلاثة من أكواخ الساحل ننشد فيها ما نريد فلم نجد . فلما استيأسنا من وجود ما نركب اقترح الملاحون أن يحملوا السيدة الى اكس ، وعمدوا الى مجاديفهم فسلوها من حلقاتها وشدوا بعضها الى بعض بالحبال . ثم وضعوا عليها وسادة من وسائد الزورق فتم لهم بذلك محفة وثيرة لينة ضجعوا فيها الفتاة . وتقدم منهم أربعة فحملوا المجاديف كل واحد من طرف ، وساروا

بها فى وناء ورفق لا يميلونها ولا يهزونهـا الا ما اقتضته طبيعة المشى من اختلاج وحركة.. وكنت أريد أن أقاسمهم مسرة حملها فآخذ بنصيب من هذا الحمل الخفيف على الجسم والروح ، ولكنهم ضنوا به علىّ وأبوه فى شىء من الغيرة والأثرة . فمشيت بجانب المحفة وجعلت يمناى فى يديها لتعتمد عليها حين يميل بها الهودج ، ولتتقى بها الانزلاق من فوق الوسادة الصغيرة التى استلقت عليها.

وسرنا على هـذه الحال فى طريق لاحب تكتنفه أدواح الحور ويضيئه لألأء البدر لا تكلمنى ولا أكلمها ، ولـكننى كنت أشعر بثقل جسمها على ذراعى ، وبيديها الباردتين تقبضان على يدى ، وبشفتها الحارة تمر حينا فحينا على أصابعى ، وبتيار من العطف والحنان يتدفق بين أضالعى ، فكان الصمت فى هذا المقام أبلغ من فصيح الكلام وأدل على ما خامر قلبينا من اطمئنان وثقة.

ولما بلغنا منزل الطبيب الشيخ وأنزلنا المريضة أمام غرفتها أحسست كأن عالما بأسره انقض بيننا ، وشعرت أن يدى قد ابتلت من دموعها ، فمسحتها بثغرى ، وجففتها فى شعرى ، وذهبت فارتميت على سريرى دون أن أخلع ثيابى ، أو أغلق علىّ بابى

٢٤

بت أتقلب على الوساد ، وأتململ على الفراش ، أخادع الكرى وأجاهد الأرق، فما خدعت فى عينى سِنَةٌ ، ولا نعمت مقلتى بغمض . ذلك لأن المشاهد والحوادث التى مرت على عينى فى هذين اليومين تمثلت فى خاطرى ، وترددت فى فكرى ، واضحة الصور قوية الأثر ، حتى شق علىّ الاعتقاد بأنها مضت وانقضت . فسرت عدوى الحمى التى تلهب نفسى ، الى اعصابى وحسى ، فقمت ونمت عشرين مرة لعلى أجد هدوءا من القلق، ودواء من الأرق، فما رجعت بطائل . فتركت السرير وحاولت أن أذهب اضطراب خطراتى باضطراب خطواتى ، ثم فتحت الشباك وأخذت أتصفح بعض الكتب فما فهمت شيئاً . فقمت أنقل المنضدة والكرسى من مكان الى مكان عسى أن أجد محلا صالحا أقضى فيه بقية الليل قائماً أو قاعداً . وكانت كل هذه الحركات مسموعة فى الغرفة المجاورة فأزعجت المريضة المسكينة ، وما أشك فى أنها مثلى لم تذق للنوم طعماً . ولم تمض ثوان معدودة حتى سمعت وقع أقدامها على أرض الردهة ، وشعرت أنها تقترب من الباب المغلق الذى يفصل بين ردهتها وغرفتى . فألصقت اذنى بألواح الباب وأنصت فاذا بى أسمع

أنفاسها المحتبسة وخشخشة ثوبها الحريرى على الحائط ، وأرى ضوء مصباحها يتحلب من خصاص الباب ومن تحته الى أرض غرفتي . وقد كانت هى أيضاً تتسمع الى، وتريد أن تخفف من قلقها على، فسمعت منى ماسمعت منها . فسألتنى بصوت خافت: « هل أنت مريض ؟ » فأجبتها ليس ما بى من مرض ولا ألم، وانما هو السرور زاد علىَّ وفاض مني : وشدة الفرح كشدة الترح تحم الجسم وتهز العصب . على أنها حمى الحياة فلا أخشاها ، وما جفوت الرقاد الا لأتمتع بها وأنعم . فقالت لى : اذهب أيها الطفل فنم ، وعلىَّ الآن أن أسهر عليك وأكلأك ، نوبة بنوبة . فقلت لها : وأنت لماذا لا تنامين ؟ فقالت : لا أريد أن أنام حتى لا أفقد لحظة من الشعور بهذه السعادة التى تغمر مشاعرى وتغمُرُ قلبي . ان سعادتى بك أوسع من أجلى ، وان القليل الباقى منه لا يكفى للتمتع بنعيمها كما أشتهى . فهل تعجب اذا بخلت بهذا القليل على النسيان والنوم ؟ لقد جلست فى هذا المكان رجاة أن اسمعك، أو أشعر على الاقل أنى معك ، فقلت لها مغمغماً : اذن فلمَ يكون ذلك من بعد ؟ ولمَ يفصل بيننا هذا الحائط الغليظ ؟ فقالت : أتظن أن لا فاصل بيننا غير هذا الباب فلا ارادة ولا عهد ؟ اذا كنت تعتقد ألا يحجزك عنى الا هذا الحاجز المادى فان من السهل عليك أن تجوزه . ثم سمعتها تنزع رتاج

الباب وهى تقول : أجل تستطيع الآن اجتيازه اذا لم يكن فى نفسك ماهو أقوى من الحب فيكسر من حدته ، ويكفكف من شرّته . لا أريد أن أكون مدينة الا لك ، ولا محمية منك الا بك ، وستجد حبا يعدل حبك ، وقلباً يجاوب قلبك ، ولكنى قلت لك من قبل إنك ستجد أيضاً فى هذا الحب موتى . فلم أحتمل شدة انفعالى من هذا القول ، ولا قوة اندفاعى الى هذا الصوت ، ولا مقاومة هذا الاندفاع بالوازع الخلقى العنيف ، فسقطت أمام الباب المغلق منسرق القوى سقوط الرمِىّ أقصد قلبه سهم مُراش . ثم سمعتها هى أيضاً فى الجهة الأخرى قد طرحت وسادة على الأرض ثم جلست عليها . وقضينا على تلك الحال هزيعاً من الليل نتساقط الحديث بصوت خافت من خلال الفرجة المتروكة بين أرض الغرفة وأسفل الباب . حديث من أحاديث القلوب ونجوى الأنفس لا تعرفه الألسن ولا تترجمه اللغات طائف طواف الأحلام بين السماء والأرض ، يتخلله كثير من السكتات الطويلة تتبادل فيها القلوب معانى لا تعبر عنها الألفاظ ولا الألحاظ ولا يجرى مثالها على الشفاه . ثم صارت السكتات أطول ، والأصوات أخفت ، وتحلل بى التعب فغلبنى النعاس وخدى الى الحائط ، ويداى مشبوكتان على ركبتى

٢٥

صحوت من نومى وقد ارتفع الضحى وتلألأت الغزالة فى صدر الأفق ، وانتشرها ضوؤها الوهاج فى أرض الغرفة . وأخذت عصافير الخريف الدورية تبحث فى عساليج الكرم وفروع الكشمش بأرجلها ومناقيرها وهى تزقزق تحت نافذتى . وكأن الطبيعة سبقتنى الى التنبه والانتعاش فأخذت زخرفها وازينت احتفالا بيوم مولدنا فى هذه الحياة الجديدة . وكأن مافى البيت من ناطق وصامت كان مثلى تلوح عليه البهجة وتحركه نشوة الطرب . وما كنت أسمع الا خطى القهرمانة فى الدهليز ذاهبة آيبة تحمل الفطور الى سيدتها ، والا أصوات البنات عائدات بالزهور من رُبى الوادى وخمائل الجبل ، ودبدبة البغال ورنين أجراسها فى الفناء تنتظر الفتاة لتحملها الى البحيرة أو الى أيكة الحور . فبدلت ثيابى وقد اتسخت من الغبار والزبد ، وغسلت عينى وقد مَرِهتا من السهاد والأرق ، وسرحت شعرى الأسود ، ولبست دزلكا من الجلد يلبسه صيادو الوعول فى الألب . ثم تقلدت بندقيتى ونزلت الى المائدة العامة أفطر مع أسرة الطبيب وضيوفه . وكان حديث المائدة يجرى عن العاصفة التى هبت بالأمس على البحيرة ، وعن الخطر

الذى حاق بالفتاة المريضة ،وعن غشيتها فى الدير وغيبتها مدة يومين ، وعن السعادة التى كتبها الله لى فى اسعافها والعودة بها . فرجوت من الطبيب أن يذهب اليها يستفهمها عن صحتها ، ويسألها لى الاذن فى صحبتها . فصعد اليها ثم نزل بها وهى من غبطتها وجزلها أبهى جمالا وأقوى حياة وأشد روعة . فرنت اليها العيون وصغت اليها القلوب ولكن نظراتها لم تتجه الا الىَّ . وما كان فى القوم أحد غيرى يستطيع أن يفهم مرمى هذه النظرات ، ولا أن يدرك مغزى هذه الكلمات . وتقدم أدلاؤها وهم يطفرون من الفرح فأركبوها بغلا على سرج وثير موطأ ، وصعدوا بها وأنا اسايرها ماشياً على قدمى الى الجواسق القائمة على سنَد الجبل . فقضينا سحابة النهار كله وما كدنا نتكلم ، لأن كلاً منا كان يفهم الآخر دون اشارة ولا عبارة . كنا تارة نرسل الطرف والفكر فى مشاهد هذا الوادى الزاهى الجميل فنراه يغور ويتسع كلما صعدنا فيه ، ونرددنا فى نواحيه ، وتارة نقف على شطئان الشلالات فيكتنفنا من دخانها الملون بضوء الشمس قوس سحاب متموج يكون لجبينا اطاراً وهالة ، وطوراً نقطف أواخر ما بقى من الورود فى المروج الزاهرة على الآكام الحادرة ، ثم نتبادلها رسائل مؤلفة من حروف عطرتها الطبيعة وصاغتها يد الله ، وطوراً نلتقط الكستناء المتروك تحت أشجاره

لنشويه على نار مدفأتها فى الليل ، وطوراً نجلس معاً تحت الجواسق التى ترّحل عنهـا ساكنوها ثم نقول فى أنفسنا : ما أسـعد عاشقين تنفيهما صروف القدر الى هذه المساكن المقفرة المتخذة من جذوع الشجر وألواح الخشب فى مواقع الغيوم ومطالع النجوم على مسمع من رفيف الرياح فى التنوب ، وصرير البرد فى الثلاجات ! ولكنهما يعيشان فى عزلة عن الناس لاتمتلىء حياتهما الا بهما ، ولا يشعران الا بنفسيهما وحبهما

٢٦

أمسى المساء فهبطنا الوادى بخطى متثاقلة ، وأعضاء متزايلة ، نتبادل النظر الحزين الآسف كأننا خلفنا وراءنا ضحكات قلوبنا ومتع حياتنا لغير رجعة . فصعدت هى الى مسكنها وبقيت أنا للعشاء مع الأضياف والأسرة . فلما فرغنا من الطعام صعدت اليها واستأذنت عليها كما اتفقنا من قبل . فاستقبلتنى استقبال الرجل لصديق طفولته لقيه بعد طول النوى وبعد المزار . ثم جعلنا ذلك برنامجا لحياتنا فى كل نهار وفى كل ليلة : نقطع اليوم فى الأدغال والجبال ، أو تحت الشجر أو فوق الماء ، ثم نقضى الليل فى غرفتها بالحديث والسمر . وكنت أكثر ما أراها حين أدخل عليها مضطجعة فوق كنبة مغطاة

بظهارة بيضاء من التل موضوعة فى ركن بين الشباك والمدفأة . وعلى متناول يدها منضدة من الخشب الأسمر فوقها مصباح من النحاس الأصفر ، وطائفة من الكتب وبعض من الرسائل تلقته أو كتبته أثناء النهار ، وعلبة شاى صغيرة من شجر الأكاغو أهدتها الى وهى مسافرة فظلت على مدفأتى لا تفارقها منذ ذلك اليوم ، وقدحان صينيان أحدهما أزرق والآخر وردى كنا نشرب فيهما الشاى منتصف الليل . وكان الطبيب الكريم قد تعود أن يصعد الى غرفتها فيسمر معها . ولكن مجلسه ما كان يطول أكثر من نصف ساعة ثم يتركنا الى مطالعتنا ومحادثتنا ، لأنه أدرك أن لوجودى معها من الأثر الحسن فى صحتها العزيزة على كل نفس ماليس لحماماته وطبه . فاذا انتصف الليل ناولتنى يدها من فوق المنضدة فأقبلها ثم آوى الى مخدعى وأبيت ساهراً لا يغمض لى جفن ، ولا ترقد فىَّ عاطفة حتى ينقطع من غرفتها الصوت وتخمد الحركة

٢٧

نعمنا بهذه الحياة الخالصة المتعة خمسة أسابيع كانت طويلة وقصيرة . فهى طويلة اذا تذكرت ماعدَّ قلبانا من خفقات السعادة ونبضات النعيم ، وقصيرة اذا فكرت فى رقة أوقاتها وسرعة ساعاتها

التى مرت مرور الحلم . وكأن عناية الله شاءت أن تبارك هذا الزمن وأن تطيل فيه جمات من صفاء الفصل واعتدال الجو مدداً لصفائنا وزيادة فى غبطتنا ، وذلك ما لا يقع الامرة فى كل عشر سنين . فشهر أكتوبر كله ونصف نوفمبر كان أشبه بالربيع انبعث فى الشتاء فقام من القبر ناسياً حلله من ورق وزهر . فالنسائم عليلة دافئة ، والأمواه زرقاء صافية ، والأشجار خضراء مورقة ، والغيوم رقيقة وردية ، والسماء وهاجة ساطعة . اللهم الا الأيام فقد كانت قصيرة . ولكن الأمساء الطويلة التى قضيناها بجانب مدفأتها كانت أعود علينا فى توثيق الصلة وتمكين المحبة ، وقد جعلت ليالى نوفمبر الطويلة المظلمة وجود كل منا بارزا فى نفس أخيه ، ومنعت عيوننا وقلوبنا من أن تشيع فى الطبيعة وتتبدد فى سناها ، فحصرتنا فى أنفسنا ، وقوت مافى أبصارنا وبصائرنا من ضياء وبهجة ، وألقت فى روعنا أن طلائع الزوابع التى بدأت تسفع زجاج النوافذ ، ورياح الخريف التى تئن وتبكى على خدود الروض ، تدفع فى صدورنا وتهيب بنا قائلة : « قولا لأنفسكما على عجل مالم تقولاه وما يجب أن تقولاه قبل أن يموت الرجل والمرأة ، فانى نذير الأيام السود التى تدنو منكما ، ولا بد أن تفرق بينكما ! »

٢٨

زرت أنا وهى على التعاقب جميع الخلجان والوديان والكروم وأسياف البحيرة وقنن الجبال وكثبان الرمال والمخارم الضيقة والغيران الموحشة والشلالات الهادرة فى صدوع الصخور من سفوا ، فوجدنا أكثر مايبتغى العاشقون من أمكنة أنيقة ، وقفار رهيبة ، ومنازل عجيبة ، تراها معلقة على ريْدِ الجبل بين المهاوى وبين السحاب ، وبساتين فيحاء ناضرة ، وجداول من نمير الماء على المروج الحادرة ، وأيائك من شجر التنوب والشاهبلوط تمتد فى خطين متوازيين ينعقد منهما رواق ظليل يضل فيه البصر ، وتتجاوب تحت قبابه الأصداء .

تركنا فى كل بقعة من هذه البقاع نفَساً من أنفاسنا ، وزفرة من حماسنا ، وصلاة من صلواتنا ، ورجونا منها فى السر والعلن أن تحتفظ بذكرى هذه الساعة التى قضيناها معاً ، وتلك الأفكار التى ألهمتنا اياها ، والنسمات التى أنشقتنا أرجها ورياها ، والنطف العِذاب التى رشفناها من راحنا ، والأوراق والأزهار التى قطفناها بأناملنا ، والآثار التى طبعناها على العشب الندىّ بأقدامنا . نعم رجونا من هذه البقاع أن تحتفظ بكل ذلك لترده الينا فى يوم من

الأيام كاملا غير منقوص ولا مثلوم حتى لانفقد شيئاً من الهنـاء الذى فاض من قلوبنا وطفح من عيوننا ، وحتى نجد ما أودعناه من اللحظات والسكرات والانفعالات فى حرز الخلود المكين ، ومستودعه الأمين ، حيث يبقى كل شىء ، ويسلم كل أثر ، حتى النسمة التى لفظتها ، والدقيقة التى تظن أنك أضعتها

أبداً لم يرتفع من هذه البحيرة وهذه السيول وتلك الصخور منذ خلقها الله ماارتفع منها الآن الى الخالق المبدع من صلاة وتحميد وتسبيح وتمجيد . فقد كان فى أنفسنا فضلٌ من الحيـاة والحب أفضناه على ماحولنا من ماء وسماء وأرض وصخر وشجر فانتعش بعد خموده ، وتحرك بعد جموده ، فترددت الأنفاس ، وتجاوبت الأصداء ، وسطعت الأضواء ، وانتشرت العطور ، وكأن الله قد أوجد من أجلنا هذا الكون ، ودحا لنا هذه الأرض ، فنحن نستطيع أن نعمرها ونمنحها الصوت والكلام والحب والسلام على مدى الآباد . والعجب أن الناس يزعمون بعد ذلك أن النفس البشرية محدودة متناهية ! فمن من الناس شعر بحدود حياته ، ونهاية وجوده ، وانحصار حبه ، أمام المرأة المعشوقة ، والطبيعة الموموقة ، والآله الحق ؟ أيها الحب ! لشد ما يرهبك الجبنـاء ويجحدك الأشرار ! انك لكاهن هذا الوجود ، ومذيع سر الخلود !

٢٩

كانت هذه الاسابيع الستة طهوراً لنفسي مما نالها من وضر الحياة ورجس الشبيبة . وكان الحب فى قلبي شعلة من نار ألهبت حسي ولذعت حشاى ، ولكنها أضاءت نفسي وأنارت لى الطبيعة والعالم والسماء، ففهمت ضئولة هذا الكون حين رأيته يصغر ويحقر ويفنى أمام شرارة واحدة من الحياة الحقيقية. وخجلت من نفسي حينما وازنت بين ما كنت عليه من دعارة وخفة ، وما كانت عليه حبيبتى من طهارة وعفة . وسبحت فى عالم الأرواح حين غصت بعينى وقلبي فى هذا البحر المسجور من الجمال والحساسة والنقاء والحب تتكشف عنه الحجب أمام بصرى ساعة فساعة فأراه فى عينى هذه المخلوقة وصوتها وحديثها . . كم مرة جثوت أمامها وسجدت سجود العابد الخاشع المبتهل ! وكم مرة رجوت منها أن تغسلنى بعبرة من عبراتها ، وتحرقنى بزفرة من زفراتها ، وتنعشنى بنفحة من نفحاتها ، حتى لا يبقى من نفسي فى نفسي غير الماء الطاهر الذى غسلنى ، واللهب المقدس الذى صهرنى ، والنفس الجديد الذى أنعشنى ، فأتحول اليها وتتحول الى ، حتى لا يستطيع الله نفسه اذا ماوقفنا بين يديه أن يفصل مامزج الحب وأحالته معجزة الهوى .

آه ! ليت من كان له ابن أو أخ أو صديق لم يعرف الخير ولم يفهم الفضيلة ، يدعو له الله أن يلقي عليه مثل هذا الحب ، فانه اذا شعر به أصبح خليقاً بكل اخلاص ، حقيقاً بكل بطولة ، جديراً بأن يرتفع الى مستوى هذا المثل الأعلى لحبه . واذا ما انطفأت جذوة هذا الحب في قلبه بقي في نفسه ما بقيت حياته أثارةٌ من لذة هذا الحب القدسي تجعله يعاف مياه الرذيلة ، ويطمح ببصره الى المنبع الذى استقى منه مرة .

أجل ! لا أستطيع أن أعبر لك عما ينالني من الخجل في حضرة هذه الحبيبة . على أن عتابها كان رقيقاً ، ونظرها كان رفيقاً ، وعفوها كان سامياً ، يبعث في النفس الخشوع والرهبة ، بيد أنه كان يملأها علاء وعظمة

لقد كنت لا أفتر عن موازنتها بمن أعرف من النساء فلم أجد منهن من يدانيها في فضل ، أو يقاربها في ميزة ، اللهم الا أنطونين فقد كانت تشابهها في سذاجتها وطفولتها ، وأمي فقد كانت تشاكلها في طهارتها وكهولتها . ان نظراتها وكلماتها لتلهمني العمق والاتساع ورقة الحاشية ونبل العاطفة وشرف الهوى ، وتنقلني الى بقاع مجهولة أتنسم فيها لأول مرة روائح حياتي الأولى ، ومنبت افكاري الخاصة . ولقد شعرت بأن ما وصمتني به الحداثة من نزق

وصلف ، وجفاء وسخف ، قد زال مني أثره ، حتى لم أعد أعرف نفسي ولما تركتها كنت على خير ما يكون عليه امرؤ من البر والنقاء . نهجت لي سبيل الوقار والحميـة ، وأحيت في نفسي موات الصلاة والورع ، وعرفتني الدموع الحارة التي لا تذرفها العيون ولا تعرفهـا الجفون ، وانمـا تنبجس من ينبوع مخبوء تحت اليبوسة الظاهرة ، فتغسل القلب دون أن تحله وتذيبه ؛ وعاهدت الله الا أهبط من سماء الشرف التي صعدت اليها بفضل ملامها وكلامها والاقتراب منها

لقد كان تأثيرها في نفسي صادراً عن عاملين لا أدري أيهما أقوى من الآخر : عامل الشفقة وعامل الجاذبية، فكان الهوى والعبادة يمتزجان فيها بمقدار واحد، ويتحولان في الدقيقة الواحدة الف مرة من الحب الى الدين ، ومن الدين الى الحب . أليس ذلك منتهى مايسمو اليه العشق ؟ : استغراق مطلق في جمال رائع ، ولذة قوية في عبادة سامية . كل ما كانت تقوله كان في رأيي خالداً ، وكل ما كانت تراه كان في نظري مقدساً ، وكنت أغبط الأرض لأنهـا تحملها ، والنور لأنه يغمرها ، ولا أنظر ولا أشعر ولا أعبد الا من خلال حبهـا المقدس . فاذا مضت الحياة على مثل هذه الحال النفسـية سكنت الطبيعة عن الحركة ، ووقف الدم عن الدوران ، وذهل القلب عن الخفقان ، فلا تعرف حواسـنا حركة ولا عجلة ولا نصباً ولا

حياة ولا موتاً ، ولا يكون بين شخصينا الا اتحاد دائم وامتزاج مطلق وفناء حي كفناء النفوس فى الله وهى حية موجودة !

٣٠

ما أسعد قلبي وأثلج صدرى ! ان الشهوة الحيوانية الدنيئة انطفأت جذوتها « كما شاءت هى » فى حسى ، باستيلائى على نفسها واستيلائها على نفسى ، فعدت أتقى وأنقى مما كنت . ودأب السعادة أن تبل القلوب بالخير فيخلص جوهرها، ويصفو عنصرها .

اتحد الله وهى فى نفسى اتحاداً تاماً فانقلبت عبادتى لها عبادة دائمة لله الذى خلقها فى أحسن تقويم، وأدقها فى أجمل صورة وأنبل فطرة. ولم أعد غير دعاء متصل لا يذكر فيه اسمان، لأن الله كان اياها ولأنها كانت اياه . وكنا اذا وقف بنا المسير أثناء النهار على سفح الجبل أو شاطىء البحيرة أو فوق جذوع الشاهبلوط أو عند أوشعة المروج لنرفه عن النفس أو لنجتلى بعض المشاهد ، يترامى بنا الحديث الى مهبط الأسرار ومسرح الأفكار أعنى اللانهاية والكلمة التى تملأها وهى (الله) ، فأعجب العجب كله اذا ما رأيتها حين أذكر الله بلسان ضارع وصوت خاشع وقلب خفوق تنكس البصر، أو تحول الحديث، أو تخفى بين أسرار جبينها ، أو على مضاحك فمها، مضاً من الألم أو

أثرا من الأنكار لا يلتئم مع مانحن فيه من فوران النفس وثوران العواطف . فسألتها ذات يوم ولسانى يكاد يعقله الحياء عن سبب ذلك . فقالت : ان اسم الله يؤلمني . فقلت لها . وكيف تؤلمك هذه الكلمة التى تضمنت سر الحياة ومعنى الحب ومغزى الخير وأنت أكمل مخلوقة صاغتها يده ؟! فقالت بلهجة اليائس الآسف : ذلك لأن هذه الكلمة كانت تدل فى اعتقادى على الكائن الذى وجب وجوده ، وان استحال شهوده ، وثبتت حقيقته ، وان خفيت ماهيته . فأصبحت الآن فى رأيي ورأى الحكماء الذين ثقفونى بدروسهم ، وهذبونى بنفوسهم ، من أعاجيب الأحلام ، وترهات الأوهام ، وضلالات العقول . فقلت لها : وكيف ؟ أمعلموك لا يؤمنون بالله ؟ واذا لم يؤمنوا به فكيف لا تؤمنين وأنت تحبين ؟ ألا تجدين فى كل نبضة من نبضات قلوبنا اعترافا بالله واعلانا عن وجوده ؟ فبادرت الى الجواب قائلة : لا تفسر بهذا الضلال حكمة أولئك الأعلام الذين أماطوا لى عن وجه الحكمة ، وأناروا لى طريق العقل والعلم ، بغير ذلك المصباح الوهمى الخافت الذى يضىء به المشعوذون والمخرفون ذلك الظلام الذى ضربوه عمداً حول عقائدهم ومعابدهم . انى أكفر برب امك ورب حاضنتى ، أما رب الطبيعة وإله الحكماء فانى به مؤمنة وله قانتة . انى أومن أنا وهم بموجود هو الأصل

والغاية ، وهو المبدأ والنهاية لكل موجود عداه . أو هو الأبد والطبيعة ، والصورة والشريعة ، لهذه الكائنات الظاهرة والخفية ، الذكية والغبية ، الجامدة والحية ، التي يتركب منها الاسم الحقيقي لكائن الكائنات وهو اللانهاية . أما فكرة العظمة التي لاتحد ، والقضاء الذي لا يرد ، والضرورة المطلقة النافذة ، لهذا الكائن الذي تدعونه الله وندعوه نحن القانون ، فهي تصدنا عن الفهم العميق ، والوصف الدقيق ، والادراك الصادق ، والرأي المستقل ، والخيال الملهم ، والاتصال الممكن بهذا الموجود ، حتى عن الحمد والصلاة ، فان الغاية لاتعبد الأصل ولا تصلي له

واحر قلباه ! لشد ماسكبت بين يديه من التحيات والدعوات والعبرات منذ أحببتك !. اني أدهشك وأولمك ، ولكن عفوك ! أليست فضيلة الصدق رأس الفضائل اذا كان هناك فضائل ؟ انا لانستطيع أن نتفق على هذا الموضوع فلنمسك عن الجدل فيه . لقد نشأت في حجر أم تقية ، ودرجت من أسرة مسيحية ، فرضعت التقى مع اللبن ، ونشقت الايمان مع الهواء ، ثم جروك من يدك الى المعابد ، وأروك الصور والأسرار والهياكل ، وعلموك الصلوات وقالوا لك ان الله يراك ويسمعك ويستجيب لك . فصدقت وآمنت لأنك لم تبلغ بعدئذ سن التمييز والبحث والحكم ، فلما بلغتها نقيت

اعتقادك من عبث الطفولة ، وتصورت إلهـا آخر غير ماصورته النساء ومثلته الكنيسة . ولكن البهر الأول لايزال عاشياً على عينك ، والنور الذى ظننت انك تراه كان مشوبا على غير علمك بنور الحداثة الكاذب الذى بهر بصرك وسحر بصيرتك . فبقى فى نفسك ورأيك أثران من هذا العهد الغرير والعقل الصغير هما أسرار الدين والصلاة . ليس فى الدين أسرار ولا متشابهات ، وانما فيه العقل الذى يبدد كل سر ويكشف كل غامض ويجلو كل شبهة . ان هذه الأسرار من اختراع الرجل الماكر الشديد التلفيق ، أو الساذج السريع التصديق. أما العقل فهو من نور الله وصنعه . كذلك ليس فى الدين صلاة ، لأن الصلاة التماس تغيير، ورجاء تحوير ، وليس فى القوانين الصلبة مايلين، ولا فى الضرورية منها مايتغير . وقد عرف القدماء على جهالتهم هذه الحقيقة فضلوا لجميع ماخلقوا من الآلهة الارمز القدر فلم يرفعوا اليه صلاة،ولم يطلبوا منه دعاء،لأنه القانون الذى لايخرق، والقضاء الذى لايرد ، والقول الذى لايبدل » . ثم أمسكت عن الكلام وأمسكت أنا عن الرد فترة طويلة . ثم قلت لها : « يظهر أن الاساتذة الذين علموك هـذه العقيدة وألهموك هذا الرأى غلبوا جانب العقل على جانب الشعور فى نظرية العلاقة بين الانسان والله . فنسوا القلب فى الانسان وهو منبع الحب كما أن الذكاء منبع الفكر.

ان ما يتصوره الانسان فى الله قد يكون سخفاً وخطلا ، ولكن غرائزه وهى قانونه الموروث لايجوز أن يعتورها الخطأ والكذب ، والا كانت الطبيعة التى كونتها كاذبة وأنت لاتجوزين الكذب على الطبيعة ، فقد قلت منذ قليل ان الصدق ربما كان هو الفضيلة الوحيدة . فسواء اذن أكانت حكمة الله فى وضع هاتين الغريزتين غريزة السر والخفاء ، وغريزة الصلاة والدعاء ، فى قلب المرء أن يعلن اليه بذلك أنه غير معلوم ولا مفهوم ، وأن الخفاء هو أصح أسمائه وأدل نعوته ، أم يريد أن جميع خلقه يسبحون بحمده ويلهجون بذكره ، وأن الصلاة هى ثناء الطبيعة العام ونشيدها الجامع ، فان الانسان اذا ما ذكر الله دفعته غريزته الى دعائه واعتقاد سره وخفائه . أما الخفاء فعمل العقل أن يبسطه ويجلوه ، دون أن يبدده ويمحوه . وأما الدعاء فهو أريج القلب كما أن العطر أريج الزهر ، فمن طبعه ألا يفتر عن اعلانه بين يدى الله سواء أنفع أم لم ينفع ، سمع أم لم يسمع ، وسواء أوقع هذا العطر على أقدام الله أم وقع على الأرض . ولكن من يدرى ؟ ربما كانت الصلاة وهى الصلة الخفية بيننا وبين الله القادر الذى لا تدركه العيون ولا تناله الظنون أعظم قوى الانسان الطبيعية والروحية ؛ أو ربما قضت مشيئة الله عز اسمه أن يوحى بها الى القلوب ليشرك المصلين بصلاتهم فى تصريف أمورهم وتدبير

حياتهم . أم من يدرى ؟ لعل الله جعل هذه الصلاة ماتة بينه وبين خلقه الذين برأهم على مثاله ، وخصهم بحبه وافضاله ؛ أولعله وهو فى عزلته المقدسة التى لا يعمرها غيره أراد أن تكون الصلاة حديثاً متصلا بينه وبين الطبيعة فيصعد اليه تسبيحاً وحمداً ، ويهبط منه رحمة وبركة . وعلى أية حال فالصلاة أجل ميزة للرجل ، لأنها الوسيلة الى مناجاة الله وتكليمه ، فنحن نناديه وان لم يسمع ، لأن عظمتنا فى أن ندعو ، وعظمته فى ألا يجيب »

رأيت أن براهيني عطفت قلبها ولم تقنعه ، وأن نفسها وقد أيبستها جفافة العلم لا تزال ينابيعها مسدودة من جانب الله ، ولكن الحب لا يلبث أن يرطب اعتقادها كما رطب فؤادها ، والهوى بنعيمه وبؤسه لابد أن يفتق قلبها عن العبادة والصلاة ، وهما عطران يفوحان من كل نفس تذوى وتحترق ، فأحدهما ملئه السكرات ، والآخر ملئه العبرات ، وكلاهما جليل مقدس .

٣١

على أن سعادة القلب ، وخلوة الحب ، وملاءمة هذا الفردوس للنفوس الرقيقة ، ووقوفها كل يوم منى على مجهول من الفكر أو مستور من الأمر يتفق مع أسرارها الخاصة ، وهواء الخريف فوق

الجبال محتفظاً بدفء الشمس حتى منعقد الثلج ، والجولات البعيدة خلال الجواسق أو فوق الماء ، وما تجده فى ميدان الزورق أو فى خطران المطية من راحة المشاعر ولذة الجسم ، ولبن البقر الذى يأتيها به الرعاء صباح مساء فى أقداح من خشب الزان ، وذلك الثوران اللذيذ والهذيان الهادئ والدوران المستمر مما تشعر به النفس الشابة مستها مواسُّ الحب الأول فطار بها على أجنحته فى أجواء جديدة ، ينقلها من فكر الى فكر ، ومن حلم الى حلم ، كل أولئك مسح ما بها من نهكة الداء وأوفى بها عجلان الى العافية . فمن ضحى اليوم الى عشيته كان ذاهبها يؤوب ، وجسمها يثوب ، ووجهها يشبو ، فذهب ما كان يدور بالجفون من بقع كلفاء أو زرقاء كأنها طابع الموت ووسمه ، وأصبح الوجه مشبوب الخد منضور اللون فوار الدم مكسوا بالزغب كوجه الفتاة صعّدت فى الجبل طويلا فتورد ، وقرسه نسيم الثلاجة فتضرج ، ثم ذهب ما بالجفون من ثقل ، وما بالعيون من ظلمة ، وما بالشفاه من ذبول . وكانت نظراتها تسبح فى ضباب شفاف تراكم من هموم النفس ، فهو بخار للقلب الملتهب انعقد فوق مقلة العين دموعا لا تفتر عن الفيضان . ولكن تلك النار التى تلوع القلب وتلهب الحشا تجفف هذه الدموع فلا تقطر . ثم عاودت هيئتها القوة ، وحركتها المرونة ، ومشيتها الخفة ،

حتى لتحسبها عادت طفلة . وكان الطبيب وأسرته كلما رأوها فى فناء البيت عائدة معى من نزهتها أخذ منهم الدهش مأخذه ، وصاحوا متعجبين من وفور حظها من العافية، وسرعة تقدمها فى الصحة، وما تشمه مقلتاها من نور الصبا وضوء الحياة فى بحر يوم وليلة

كأنما للسعادة أشعة ، وكأنما تجمع حولها من هذه الأشعة جو يغمرها ويغمر كل من ينظرها . وما كانت هذه الأشعة الا أشعة الجمال ، وما كان هذا الجو الا جو الحب ! ولا تظن ذلك اختلاق مصور أو اختراع شاعر ، وانما فضل الفنان على غيره أنه دقيق النظر قوى الملاحظة ، فهو يبصر مالا يبصره السادرون أو العاشون من سائر الناس . لقد طالما قالوا فى الغادة الحسناء إنها تبدد غياهب الليل ، ويصح القول فى چوليا أنها تدفئ ما أحاط بها من الهواء ، فكنت أحيا وأسير مغموراً بهذا الدفء الصادر عن جمالها المبعوث من مرقده ، وكل من مر بها وجد هذا الدفء وأحسه !

٣٢

كنت كلما أويت الى غرفتى أثناء اللحظات القصيرة التى أضطر فيها الى تركها أشعر وأنا فى رائعة النهار كأنى فى نفق تحت الأرض لا يمر به الهواء ولا ينفذ اليه الضياء ! وكانت الشمس نفسها على

شدة تألقها وقوة توهجها لا تضيء لى الأشياء مالم تنعكس فى عينى منها ، وكنت كلما زدتها نظراً زادتنى اعجابا بها وارتيابا فى أنها خلقت من النوع الذى خلقتُ منه . ولقد أصبحت ألوهية حبها فى ذهنى حقيقة ثابتة ، وعقيدة راسخة، فنفسى لا تفتر عن الخضوع والركوع أمام هذه المخلوقة التى جلت بحنانهـا عن أن تكون إلهـًا ، وسمت بقداستها عن أن تكون امرأة . وما أعرف فيما أعرف من اللغات اسما ينطبق عليهـا ويدل على حقيقتهـا ، فسميتها فى نفسى بالسر . ورحت أؤدى اليها تحت هذا الاسم المبهم شـعائر يصلها بالأرض الحنان ، وبالسماء العبادة ، وبالخيال النشوة ، وبالحقيقة الوجود

ثم ألجأنى ما أشاهد منها وما أعتقد فيها الى أن أبوح لهـا بأنى صنعت فى بعض الحالات شعراً ، ولكنى لم أعرضه عليها ، ولم أنشده على مسمعيها ، لأنى لاحظت أنها قليلة العناية بهذا النوع الصناعى من الكلام الذى يسىء التعبير عن العواطف الساذجة والميول الصادقة ، فيفسدها وهى صالحة ، ويبهمهـا وهى واضحة . وهى من طبعها المبادهة والمصارحة والرزانة ، فلا ترضيها هذه المواضعات ، ولا تلك المداورات ، ولا تروقها روية الشعر المكتوب ، ولا زخرفة الخيال المكذوب ، وانما هى شعر بغير وزن ، وغناء من غير مزهر . وهى عارية كالقلب ، بسيطة كالكلمة الأولى ، حالمة كالليل ، مضيئة

كالنهار ، سريعة كالبرق ، واسعة كالفضاء ! وكانت نفسها سلماً موسيقياً لاحد لدرجاته ، ولا قيد لنغماته ، وكان صوتها غناء رخيما لا تعادله رنة الوزن ولا ايقاع النغم . فلو عشت بجانبها ما عشت لما أحسست حاجة الى انشاد الشعر أو الى قرضه ؛ لأنها كانت لي القصيدة الحية التي تصور لى مشاهد الطبيعة ، وتعبر عن خطرات نفسي . فعواطفي رنانة في قلبها ، وصوري مرسومة في نظرها ، وأنغامي شادية في صوتها . ناهيك بأن الشعر المادي الرنان الذي ظهر في آخر القرن الثامن عشر وتمثل في شعر دُليل وفُنْتانِسْ لا يروقنا ولا يلائمنا . ان نفسها التي هدهدتها أمواج المحيط الحنانة الرخيمة كانت مقراً للآلام والأحلام والحب ، فلا يكفي لاثارتها تصفيق الماء ، ولا أغاني الهواء . ولقد حاولت مراراً أن تقرأ امامي شيئاً من دواوين هؤلاء الشعراء وأن تظهر اعجابها بما نالوا من سمعة ، ولكنها ما كانت تطيق الاستمرار في القراءة فتمسك ، وتبقى الكتب تحت يدها خرساء كأنها الأوتار المقطوعة يعالجون اخراج الصوت منها بالعزف عليها في غير طائل . كان في قلبي أثرها ونفحها وشعرها ، ولكني عجزت عن توقيعها وتقطيعها وترجيعها . ولم انشد الأشعار التي ألهمتني اياها ، وأوحت اليّ معناها الا على قبرها ، فلم تعرف من تحب قبل موتها . لقد كنت في نظرها أخا ، فما كان

يعنيها كثيراً أن أكون فى نظر العالم شاعراً . ففى ذات مرة بحث لها عن غير عمد بملكتى الضعيفة فى قرض الشعر ، وما كانت تأنس ذلك فى ولا تريده لى . واتفق أنه وفد علينا صديقى لويس فقضى معنا أياما كنا نقطع انصاف لياليها فى القراءة والحديث والمنى ومطارحة الشكوى أو مبادلة الفرح . ولقد كنا نعجب العجب كله لتصرف القدر فى هذه الحظوظ الثلاثة كيف جمعها من شتات ، وعرّفها من نكر ، وعقد بينها أسباباً كانت بالأمس مفصولة ، وأبان لها أشياء كانت منذ قليل مجهولة ، ثم ضمها فوق فرش واحد تحت عرش واحد فى بلد واحد . وطفقنا نتسالف النظر ونستفتى القدر عن مصيرنا ، فلا ندرى أتعصف بنا عواصف الدهر فنتفرق الى غير رجعة ، أم ينسدل بيننا حجاب النوى ثم نعود فنجتمع . لم نر فى سماء الغد مخايل لليمن ولا دلائل على السعادة، فشملنا الأسى واستولى علينا الحزن، ولبثنا صامتين أمام منضدة الشاى الصغيرة التى جلسنا اليها ، واعتمدنا بمرافقنا عليها ، حتى أحس لويس دبيب الشعر فى نفسه ، وكان شاعرا ، فأراد أن يصور بالكتابة أشجان قلبه وبواعث بؤسه . فقدمت اليه جوليا قلماً وقرطاساً ، فخط على رخام المدفأة هذه الرباعيات الشاكية الباكية على مثال الرباعيات الحزينة التى نظمها جلبرت . وأكبر ظنى أنها ستخلد ما خلدت أنات أيوب فى سفره

قال منها : —

الى وليمة الحياة أجبت أنا الضيف المنكود ،

فلم أُقم على خوانها غير يوم ثم دعتني المنون .

فأنا أرِدُ حياضها على رودٍ وأناة ،

دون أن أرى باكياً يسكب عليَّ عبرة !

الخ الخ

فحركت شجوني أبيات لويس فأخذت القلم من يده وانتبذت ناحية من الغرفة ، ثم نظمت هذه الأبيات التي ستقبر معي دون أن تجمع وتنشر. نظمتها فيها مستمداً من قلبي لا من خيالي. ثم قرأتها عليها دون أن أجزؤ على النظر اليها ، وهالكِ هي ، ولكن لا ، ان عبقريتي كانت كلها في حبي وقد فنيت بفنائه، وانقضت بانقضائه . فلما فرغت من انشاد تلك الأبيات رأيت على وجه جوليا وقد انعكس عليه ضوء المصباح سيماء العجب الجنون والجمال الفائق ، فوقفت حيران متردداً بين الملاك والمرأة ، وبين الحب والعبادة ، فتغلبت العاطفة الثانية على نفسي ونفس صديقي . فجثونا أمام كنبتها وقبلنا طرف شالها المرسل على قدميها ، وعرفت هي أن هذه الأبيات شعاع ضوئها في نفسي ، ولهيب غرامها في قلبي ، فأثنت عليها ثم لم تعد الى الحديث عنها مرة أخرى . لقد كانت تؤثر الحديث المسلسل المرسل

بيني وبينها ، أو الصمت المفكر المؤثر فى قلبها ،على هذه الصناعات اللفظية، والنكت الفكرية التي تبخس قدر النفس بدل أن تشرحها .

ثم رحل لويس عنا بعد أن أقام معنا بضعة أيام

٣٣

على أثر هذه الأشعار التى نظمتها تصويراً لقلبي فكانت صدى خافتاً لأنغامه ، وترجماناً عيياً لأحلامه ،وأنيناً خفياً لآلامه، طلبت الى أن أنظم لها قطعة فى أحد خلطائها وموضع اجلالها وثنائها، من رجالات باريس وهو السيد بونال ، وما كنت أعرف منه إلا اسمه النابه وذكره الطائر فى التشريع والفلسفة والدين ، فتخيلت انى أخاطب موسى جديداً يقبس من نور سيناء هدًى من الله يفيضه على الوجود ويبثه فى قوانين البشر ، ثم انفقت فى هذه القصيدة سواد ليلة وأصبحت فغدوت اليها وقرأتها عليها فى ظل شجرة من أشجار الكستناء ، فاستعادتنى قراءتها ثلاث مرات ثم أخذتها وفى المساء نسختها وفى الصباح أرسلتها الى باريس ، فجاءها الجواب من الأستاذ بونال يقرظ القصيدة ويتنبأ لناظمها بالمستقبل الزاهر والفوز الباهر والصوت البعيد . وتلك كانت سبب المعرفة بيني . وبين هذا الرجل الكريم . وقد أعجبت به وأعززته منذ عرفته

وخبرته ، اللهم الاعقائده التيوقراطية[1] فلم أرضها منه ولم أشاطره اياها . وهو مثل السيد دُمستر نبي من أنبياء الماضى ، وشيخ من شيوخ الفكر ، يجلهم الناس ويوقرونهم ، ولـكنهم جالسون على أبواب المستقبل يقرعون ولا يلجون ، وانما يتسمعون وهم على أعراف الزمن بين القديم والحديث أنين الاشياء والآراء وهى تعالج الروح وتكابد الموت فى أذهان البشر

٣٤

بينما كان الخريف يقوض خيامه ، ويستدبر أيامه ، اذا بطلائع الشتاء قد دهمته وهو على وشك الرحيل فترك فى يديها شيئاً من آثاره ، وقبساً من أنواره ، ثم ولى . فكان الجو لايزال مشرق الجنبات رقيق النسمات تطالعه الشمس من خلال الغمائم فترة بعد فترة فتقبسه الجفاف والحرارة . فكنا نخادع أنفسنا ونزعم أننا لا نزال فى الخريف ، لأن الاعتراف بقدوم الشتاء وهو نذير النوى وموعد الرحيل كان يملأ قلوبنا رعباً وفزعاً . وكان الثلج يتساقط فى الصباح نتفاً بيضاء على ورد البنْجال وفوق زهور الروض كأنه زغب البجع الأبيض نسله أثناء الليل فذهب أباديد[2] مع الهواء فى جو السماء . فاذا متع النهار ورنّقت ذكاء[3] فى الأفق

(١) الاعتقاد بأن سلطان الحكومة مستمد من الله وحده (٢) متفرقاً (٣) الشمس

أذابت ذلك الثلج فتدفق فى البحيرة ، فيكون لتدفقه منظر يثلج الصدور ، ويجلو صدأ الهم ، ويلطف حرارة الجو . وكانت أشجار التين الدانية على الصخور المعرضة للأمواج لا تزال كاسية باوراقها العريضة ، وكان انعكاس الشمس على هذه الجنادل لا يزال خالعاً عليها من جمال الصيف أضواء أيامه وحرارة لياليه . غير أن هذه الساعات كانت تفر منا عجالا فرار مجاديفنا من الصخور الناتئة على جانب البحيرة . وكانت أنوار الشمس الصالبة فوق أشجار التنوب وعلى الأشنة الخضراء ، وطيور الشتاء المرتاشة الوثابة الألوفة ، وفيضان الشلالات وزبدها المتلوى تلوى الأفاعى فوق المروج الخادرة ، وتجمعها فى مدارج السيول ثم تدفقها من رءوس الصخور السوداء الملساء فى البحيرة ، وما نشعر به فى هذا الجو الدافئ المنير من سعادة النفس ونعيم العيش لصفاء القرب وهدوء الخلوة فوق هذه اللجة بعيدين عن الارض ، كل ذلك كان الى تلك اللحظة يغمرنا بفيض من لذة الحياة ونشوة القلب وسكينة الحب لا يستطيع الدهر نفسه أن يزيد عليه ولا أن يضيف شيئاً اليه . على أن هذه السعادة كان يشوبها فى نفوسنا الخوف من انقضائها ، فكأنما كل تجديفة بالزورق خطوة فى سبيل الفراق . ومن يدرى ؟ لعل هذه الاوراق المهتزة اليوم تسقط فى الماء غداً ، وهذا

النجيل الذى نستطيع الآن أن نفترشه لا يلبث أن تطمره طبقة كثيفة من الثلج ، وهذه الصخور البراقة والسماء الناصعة والامواج اللامعة يعجل اليها ضباب الليل فتغرق منه فى بحر مسجور!

تنفسنا الصعداء فى وقت معا ، لأننا كنا نجيل هذه الخواطر فى أذهاننا دون أن نجرؤ على تبادلها مخافة أن نوقظ المصيبة اذا ذكرناها

آه ! كل منكم ذاق ولا ريب هذه السعادة العاجلة الزائلة التى لا أمان لها ولا غد. تتجمع الحياة واللذات والمنى كلها فى ساعة فيتمنى المرء لو تطول وتخلد ! ويشعر بافلاتها منه فى كل دقيقة وفى كل ثانية كلما سمع البندول يدق الثوانى، أو رأى العقرب يلتهم الساعة، أو أحس العربة تنهب المسافة فى كل دورة ، أو نظر حيزوم السفينة يشق عباب الماء فيدنيه من الشاطئ حيث يهبط من سماء آماله وأجواء خياله الى أرض الحقيقة الباردة الوعرة ! !

٣٥

واتفق مرة أن كنا بعد الغداء يترجح بنا الزورق على ضوء الشمس فى خليج هادئ دافئ بين ذراعين من جبل القط ، فنزل الملاحون الى الأرض يرفعون شباكا كانوا نصبوها بالأمس، وبقينا

وحدنا فى الزورق وهو مشدود بحبل دقيق الى فرع من شجر التين ، فانفتل الحبل من نوَدان الزورق فكسر الغصن وسار بنا الزورق دون أن نشعر حتى بلغ منتصف الخليج على مسافة من الصخور العمودية التى تكتنفه . وكان لماء البحيرة فى هذا المكان لون البرنز وبريق المعدن المذاب وسُجوُ الليل الساكن . فأخذت المجداف وعدت بالزورق الى الشاطئ ؛ ولكن هذه العزلة عن الأحياء بعثت فى أجسامنا نشوة لذيذة ، فتاقت أنفسنا الى أن نضل على تلك الحال فى جو لا يدركه البصر ولا يحده الفكر ، لا على بحر يحصره شاطئان ويحده قاع . وانقطع عن آذاننا أصوات الملاحين وقد رأيناهم على مدى البصر يصعدون كثيب سفوا . ثم واراهم رأس الجبل فلم نعد نسمع لهم ركزا ولا نرى لهم شخصاً . وما كان يبلغ أسماعنا الا همهسة الشلال متقطعة على بعد ، ورفيف الريح حاملة أنين الصنوبر ، والتطام الأمواج على جوانب الزورق . وكان نور الشمس وظل الجبل يتقاسمان القارب ، فللشمس مقدمه وللظل مؤخره . وكنت جالساً فى جوفه بين قدمى جوليا كما كنت يوم عدت بها من دير المتكمب . وما كان أنعم لعيوننا وأحلى فى صدورنا أن نذكر فى كل محادثة وفى كل مناسبة ذلك اليوم السعيد الذى ابتدأ فيه تعارفنا وكلامنا ، وولُد به تآلفنا وغرامنا ، وأصبح

لعلاقتنا الوثيقة الخالصة تاريخ اعجاب واخلاص ومودة . كانت جوليا مضطجعة على المقعد وإحدى يديها مرسلة على حافة الزورق والأخرى معتمدة على كتفى تعبث بخصلة من شعرى الطويل ، ووجهها محنى على وجهى كأنها ترقب فى جبينى الشمس وفى عيونى النهار، وقد فاضت على قسماتها نضرة السعادة الهادئة العميقة، نخلعت على محياها بهاء النفس الكريمة وصفاء الضمير النقى ، فكان خليقاً أن يكون لنفسها مرآة ولخلقها صورة . وبينما نحن على هذه الحال نتساقى كؤوس الهوى بالفكر، ونتبادل أحاديث المنى بالنظر، اذ علاها شحوب وآوت اليها ذراعيها ، وسترت عينيها بيديها ، واسترسلت فى الفكر ملياً وهى صامتة . ثم رفعت كفيها وقد اخضلتا من الدمع ، وصاحت بصوت ملئه الوضوح والسكون والعزم قائلة : «أوه ! فلنمت ! . . . . .» وأدركها قبل أن يتبين غرضها الوجوم فسكتت لحظة ثم عاودت الكلام تقول : « أوه ! أجل لنمُتْ ! . فليس فى الارض على ما نلنا مزيد، ولا فى السماء فوقه مطمح » ثم سرحت طرفها طويلا فى السماء والجبال والبحيرة وخاطبتنى بضمير الواحد ، وتلك هى المرة الأولى والأخيرة التى استعملت فيها هذه الصيغة الكلامية التى خصص العرف استعمالها لله أو للأليف . قالت : أنظر تجد كل شىء كأنما هيئ وأعد للاحتفال بانقضاء

حياتنا وتهوين مماتنا على أقدس صورة وأجمل حالة . فها هى الشمس وهى أجمل فى هذا العام منها فى أعوامنا الأوَل تغرب وربما لا تشرق علينا غداً ! وها هى الجبال تتراءى لآخر مرة فى جوانب هذه البحيرة ، وترسل علينا ظلالها وكأنها تقول : أدرجا نفسيكما فى هذا الكفن الذى أبسطه لكما ! وهاهى الأمواج تتعاقب على الساحل صافية صامتة عميقة فتهيء لنا مرقداً من الرمل لا تقع عليه عين ولا يهتدى اليه انسان فيصدع قلبينا بخبر السفر ! ولن يعلم أحد السبب الذى قضى على هذا الزورق أن يسير غداً وحده حتى ينشب فى صخور الساحل . ولن يجد الفضوليون أو الخليون على صفحة الماء أثرا يدل على المكان الذى غاب فيه جسمان متعانقان تحت الموج الهادر ، وصعد منه روحان متلازمان الى الأثير الخالد ! ولن يبقى على الأرض منا صوت ولا أثر غير صوت الموجة تنشق لجسمينا ثم تنطبق ! . . . . . فلنمت الآن فى هذه السكرة التى استولت على النفس وهيمنت على الطبيعة حتى لا نذوق من الموت غير لذته . فربما احتجنا اليه فى مؤتنف الزمن فلا نجده عذب المذاق ولا سهل الملتمس كهذه الموتة . انى أكبُرُكِ ببضع سنين ، وهذا الفرق فى السن وان ظهر يسيراً اليوم سيعظم مع الزمن ، فما يفتنك الآن فى وجهى من الوسامة والجاذبية

ستذهب بلَّتُه عما قليل ويذبل ، فلا يبقى فى نفسك منه الا عهده المتوهم وأثره الدارس . وسيجد قلبك حينئذ الحاجة الى هوى جديد وسعادة أخرى ، وأنا لا أستطيع الا أن أكون معك ولك . فاذا وجدت هذا الهوى ، وصادفت تلك السعادة فى امرأة أخرى هلكت أسى وغيرة . واذا آثرتنى على نفسك هلكت ألما وندما لعنائك فى سبيلى وشقائك بسببى ! . . . أوه ! فلنمت اذن ، ولنقض على هذا المستقبل المريب فى هذه اللحظة وقلوبنا جياشة بالسرور فياضة بالسعادة . . . . . »

فى هذه اللحظة وبهذه القوة كانت نفسى تحدثنى بما ألقاه فمها فى أذنى ، وأداه وجهها الى عينى ، وأوحته الطبيعة الصامتة الحزينة الى قلبى . فكنت أسمع صوتين احدهما داخلى والآخر خارجى يتعاوران على لفظ واحد ومعنى واحد ، فنسيت نفسى وذهلت عن وجودى وأجبتها : فلنمت ! !

. . . .

ثم جئت بحبال الشبكة من الزورق وأدرتها ثمانى مرات حول جسمى وجسمها ونحن متعانقان متلاصقان كأننا فى كفن ، ثم حملتها بين ذراعى لألقيها معى فى الماء . . . . ولم أكد أهم بالوثبة حتى شعرت برأسها الواهن يقع على كتفى وقوع الأشياء الجامدة ،

وبجسمها يسقط على ركبتها سقوط الاجسام الهامدة . فحسبت أن قوة التأثر وشدة السرور بموتنا معا قد عجلتا لها الموت ، ولكنها كانت فى غشية من فرط ما تحس فلم أجرؤ على أن أجرها الى قبرى على تلك الحال مخافة أن يكون قد بدا لها فأجنى عليها . فاستلقيت بها فى قلب الزورق وأسرعت الى الوثاق فحللته ثم ضجعتها فوق المقعد ، وأخذت أنضح جبينها وشفتيها بالماء البارد . ولا أدرى كم لبثتْ على حالها تلك من غير وعى ولا لون ولا صوت ، ولكنى أذكر أنه حين عادت نفسها ، وثاب اليها حسها ، كان الليل غاشياً على الكون ، والموج قد استدرج الزورق الى عباب البحيرة . ولما ذهب ما بها من أثر الغشية قلت لها : ان الله لم يرد ما أردنا ، فأحالنا عما قصدنا ، فما زلنا نتملى بالحياة ونشعر بالوجود . ولكن ما بالنا نستسلم للوجدان ونتحلل من سلطان العقل ؟ أليس ما كنا نظنه حقاً من حقوق الحب كان جريمة مزدوجة ؟ أمالنا فى الأرض أهل وفى السماء إله ؟ فردت على مسرعة فى صوت خافت « دعنا من هذا الحديث فلا نعد اليه . لقد أردتَ أن أعيش ، فلتكن ارادتك . وما كانت جريمتى فى العزم على الموت ، وانما كانت فى حملك عليه وجرك اليه » قالت ذلك وكان فى لهجتها ما يشف عن الألم ، وفى نظرتها ما ينم على الملامة . فقلت لها رداً على آلامها

وملامها : وهل في العالم الآخر ساعات تعدل هذه الساعات التي قضيناها معا ؟ ان أمثالها لفي هذه الحياة الدنيا ، وهذا وحده يحملني على حبها والحرص عليها »

وسرعان ما عاد اليها في هذه المرة صفاء نفسها ونضارة وجهها ، فتناولت المجدافين وارسلت الزورق الى الساحل المرمل ، ونزلنا فوجدنا الملاحين قد أوقدوا ناراً تحت صخرة ، فاصطليناها هنيهة ثم عبرنا البحيرة حالمين ، ودخلنا البيت صامتين

٣٦

ولما جاء موعد السمر دخلت عليها الغرفة فاذابها أمام منضدتها تغالب الدمع وتبكي أحر بكاء . وكان بين يديها رسائل كثيرة مفضوضة مبعثرة بين أقداح الشاي . فلم تكد تراني حتى أومأت باصبعها الى هذه الكتب الواردة من جنيف وباريس وهي تقول : ليتنا متنا تلك الموتة الوحيّة[1] حتى لا نكابد موت النوى الطويل !

لقد كان فيما ألقى اليها من الكتب كتاب من زوجها وآخر من طبيبها . فأما زوجها فيقول إن القلق أخذ يساوره عليها من جراء هذه الغيبة الطويلة في هذا الفصل الذي يصعب ويشتد من يوم الى

---

(١) السريعة

يوم ، وأنه يحس قواه تضمحل من شهر الى شهر ، ويود قبل أن يفارق الحياة أن يعانقها ويباركها . وكان إلحاحه المؤثر ممزوجاً بالحنان الأبوى والتلميح الظريف الى ذلك الأخ الجميل الذى صرفها عن كل شىء وشغلها عن كل صديق . وأما الطبيب فيقول انه كان مقدراً من قبلُ أن يأتى اليها فيصحبها الى باريس، ولكنه اضطر أن يسافر فجأة الى ألمانيا ليطبب أميراً هناك دعاه الى علاجه . فهو مرسل اليها مكانه رجلا وقوراً ثقة يكون فى صحبتها وخدمتها حتى تبلغ باريس . وفعلاقدم هذا الرجل وتحدد الرحيل ثالث هذا اليوم

وقعت هذه الاخبار علينا وقوع الصاعقة كأنها لم تكن من قبل معلومة ولا متوقعة ! وقضيناها ليلة طويلة ثقيلة متكئين على المنضدة متقابلين صامتين لا نجرؤ على النظر ولا نقوى على الكلام مخافة أن نتفجر بالبكاء ، فما كان يقطع هذا الاحتضار الطويل الصامت الا كلمات واهية الرباط طائشة الغرض نلفظها بصوت خافت مبهم فيكون لها فى الغرفة رنين كرنين المدامع فوق ناووس فقيد . . ثم قطعت عزمى أنا أيضاً منذ الساعة على السفر

٣٧

كان اليوم التالى بارحة يوم الفراق ، فأشرقت شمسه وضاحة الجبين

وضاءة الطلعة ، وأصبح جوه دافئ النسيم نقى الأديم جميل الروعة ، كأنما أراد السخر منا والعبث بنا . فتركنا القوم يعدون الحقائب ويجهزون العربة وذهبنا بالبغال والادلاء نودع الخلجان والوديان والجبال ، وسرنا على ترتيب المراحل التى قطعناها قبل أن نصل الى هذا الحب المقدس . فزرنا أولا الأماكن التى تقابل فيها نظرانا ، ثم التى تلاقى بها شخصانا ، ثم التى تساير عليها جسمانا ، ثم التى تحادث فوقها لسانانا، ثم التى تألف عندها قلبانا . فابتدأنا بتْر يسرّف ، وهى هضبة جميلة قائمة بين البحيرات ووادى اكس ، كأنها كومة من الخضرة ، جوانبها متعامدة على الماء مغطاة بأشجار الشاهبلوط ذوات الاغصان الفينانة المتهدلة على اللجة ، تحسبها اطاراً للسماء اذا نظرت الى أعلى ، وللماء اذا نظرت الى أسفل . ثم هبطنا منها على حَدُور دافع الى قصر صغير منعزل يدعى بُون بُور ، وهو مطمور من جهة البر تحت شاهبلوط تريسرف ، ومن جهة البحر تحت مطاوى الخليج ، فلا تأخذه العيون لا من الهضبة ولا من البحيرة الا بعد لأى . ثم يفصله عن سِيف البحيرة المرمل الهادر بالامواج والزبد مَشْرِفٌ مغشى بأشجار التين ، فهو للقلوب الحبيبة عش وللنفوس المكروبة جنة . ولشد ما غبطنا أولئك السعداء الذين يملكون هذا العش المحجوب عن العيون ، المخبوء بين الماء والغصون ،

فلا يعرفه الا أطيار البحيرة ، ونسمات الشمال ، وأضواء الشمس ! ولطالما باركناه ، وحمدنا مراحه ومغداه ، وتمنينا على الله ألا يجعله ملاذاً الا لقلوب كقلوبنا تستحقه وتفهمه

٣٨

خرجنا من قصر بون بور وصعدنا تاركين طرف الهضبة متجهين شمالا نحو الجبال الشاهقة المشرفة على وادى شمبيرى ، فرأينا الربى والمراعى والاكواخ والسفوح المخضرة وما فوقها من العجول المجترة التى تدب فوق العشب فترن اجراسها فى رقابها رنيناً ينبه رعاتها الى حركاتها . ثم علونا حتى بلغنا الجواسق العليا . وكان قر الشتاء عندها قد بدأ يحرق أطراف العشب ، فتذكرنا ما قضيناه بها من الأوقات الهنية ، وما تبادلناه بقربها من الأحاديث الشهية ، وتمليناه فيها من الخلوة الممتعة والعزلة المحبوبة ، وما حمّلناه أجنحة الهواء وأشعة الضياء من النفثات الزافرة والدعوات الطاهرة الى الله فى سمائه وعلائه

تذكرنا فى أنفسنا هذه الأوقات الرضية الذاهبة ، وأخطرنا ببالنا تلك الكلمات والنظرات والحركات والأحلام والأوهام التى نعمنا بها فى خلواتنا وجولاتنا ، كأننا نريد أن ننقلها معنا كما ينقل

الانسان ثمين الرياش وفاخر الأثاث من منزل إذا تركه. ثم دفنا هذه الكنوز وتلك الذكريات كلها بين جدران هذه الجواسق الخشبية التى لا يفتحها الا قدوم الربيع، حتى اذا كان فى مقدور الله لنا أن نعود وجدناها سالمة غير منقوصة

٣٩

هبطنا فوق ربوة ذات قرار جلله النبات وجمله الشجر، ثم انحدرنا منها الى مسيل مزبد، يمده شلال هادر، أقيم على جانبه ضريح صغير لفتاة تدعى (بروك)، تردت فيه منذ سنين فحملها السيل الجارف الى مغارة، ثم أظهر الموج بعد طويل ثوبها الابيض، فدل الناس على جسمها فأخرجوه ودفنوه. جلسنا طويلا أمام هذا الضريح المبلل والقلب واجف، والدمع واكف، نفكر فى قيمة هذه السعادة الهشة التى تذهب بها زلة فوق الحجر الأملس! . ثم غادرنا هذا الشلال صامتين الى جهة البحيرة، وكان الواقف تحت قصر (سنت إنوسان) يأخذ بنظره عرض الماء ولجته. فلما بلغناه تركنا البغال ترعى فى الغابة تحت نظر الغلمان، وسرنا راجلين وحدنا تحت أدواح من السنديان تتخللها مزارع الخلنج، وكانت حينئذ موحشة مقفرة، أما الآن فقد عاد اليها

أحد أبنائها من طلاب الرزق فى الهند فابتنى بها دارا جميلة ، وخطط فيها حدائق بهيجة . فتقدمنا متنقلين من سَرْحة الى سرحة ، ومن رحبة الى رحبة ، حتى بلغنا طرف اللسان الداخل فى البحيرة ، ورأينا بريق لألائها ، وسمعنا اصطفاق مائها . وكان فى أقصى هذا اللسان الأرضى صخور من الحجر الصوان الأغبر تخضل كلما طغى الماء عليها ، وتجف وتلمع كلما انحسر عنها . فجلس كل منا على صخرة من هذه الصخور ، وقُبالتنا على العدْوة الأُخرى من البحيرة دير المتكمب يبدو للعيون أسود اللون هرمى الشكل ، وعلى مقربة من مشارفه السود نكتة بيضاء هى منزل الصياد الذى ألقانا به الموج ليتحد قلبانا على طول الأبد . فرأيت جوليا تمد ذراعها وتشير باصبعها الى هذه النقطة البيضاء وقد كاد يحجبها البعد وتخفيها ظلال الشاطىء وهى تقول : « لقد كان ذلك هناك ! ! » ثم عقبت على هذه الجملة تقول بصوت مؤثر ولهجة حزينة : « ألا يمكن أن يأتى زمان ويوجد مكان تصبح فيهما ذكرى هذه الساعات التى قضيناها هناك مطموسة لطول العهد فى خاطرك ، طموس هذه النكتة البيضاء لطول البعد فى ناظرك ؟ » فقطع هذا السؤال المريب حشاى ، وزاد فى مخاوفى وجواى ، وأخذ علىَّ سبيل القول فصمت اللسان ونطق الدمع ، فحاولت أن أستر مدامعى بأصابعى ،

وأن أواجه مهب الريح لتجفف ما بدر منها ، ولكنها رأتها ، فأقبلت عليَّ بلبها ، وأظهرت اليَّ رقة قلبها ، وقالت : كلا يارفائيل ! انك لن تنساني ، وأنا أستيقن ذلك وأحسه . ولكن الحب قصير والحياة بطيئة . انك ستعمر بعدي طويلا ، وستذوق حلو الحياة ومرها ، وستبلو خيرها وشرها ، وسيتقلب على عينيك ما يتقلب على عيون الرجال من سعودها ونحسها ، ونعيمها وبؤسها ، وستكون فى الرغيبة الواحدة من رغائبك من روح الأمل والقوة ما يكفي الوفاً من الأحياء ، وستعيش ممتعاً بكل ما يشتمل عليه معنى الحياة من نشاط ونفوذ وقوة . أما أنا . . . . . » ثم توقفت قليلا ورفعت يديها وعينيها الى السماء ، ثم نكست بصرها فِعلَ من يحمد الله ويشكره وقالت : « أما أنا فقد عشت . . . . عشت ما يكفيني ويرضيني منذ تنسمت وتزودت أرج نفسك الحبيبة ، وهى وحدها التى كنت أنتظرها على هذه الأرض ، وهى التى ستقويني حتى على الموت الذى أنقذتني منه وغلبته على ! . . . . . سأموت فى وفرة الشباب وزهرة العمر ، ولكني يوم أموت لا آسو على فائت ولا آسف على آتٍ ، لأنني استغرقت فى نفَس واحد من الحياة ما لا تستطيع أنت ان تستنشقه قبل أن يأخذ المشيب بوفرتك الجميلة الفاحمة ، فتصبح فى بياض هذا الزبد الراغي تحت

قدميك . ان هذه السماء وذلك الساحل وتلك البحيرة وأولئك الجبال كن مسرحا لحياتى الحقيقية فى هذا العالم ، فأقسم لى أنك تمزج هذه الأشياء بذكراى فى ذهنك ، وأن تدوم صورة هذا المكان مع صورتى فى نفسك ، وأن تظل هذه الطبيعة فى عينك مادمت أنا فى قلبك ، حتى اذا عدت بعد أيام طويلة الى هذا البلد تستمتع بهذه الطبيعة الجميلة ، وتجول تحت هذه الأشجار الظليلة ، وتجلس فوق هذه الشواطىء الوعرة ، وتسمع جرجرة هذه الأمواج الهادرة ، تكون قد رأيتنى وسمعتنى أنا كذلك موجودة مشهودة محبوبة كما ترى هذه الأشياء وتسمعها » ثم أدركها الجزع فعييت عن متابعة الحديث ، واستخرطت هى أيضاً فى البكاء ، فتصبب الدمع حتى أخضل الثياب ، وبلل النحور ، وخدد صفحة الماء الراقد ، وحتى اختلط نحيبنا ونشيجنا بانتحاب الموج على الساحل المرمل . وأقسم ما أصف الآن هذه الحال وقد أتى عليها عشرون حولا الا وأنا أبكيها أحر بكاء . أيها المحبون ! لا تجزعوا على عواطفكم ، ولا تخشوا أن يعصف بها الزمن ، أو يعدو عليها البلى ، فليس للدوى القوى الذى يملأ الذاكرة أمس ولا غد ، انما له اليوم الحاضر والوجود المستمر . ولا تظنوا أن من ينقطع شعوره قد شعر حقيقة من قبل . ان لكل امرئ ذاكرتين : ذاكرة الحس

وهى تبلى كما يبلى الحس ، ويذهب مافيها ذهاب الأمس ؛ وذاكرة النفس ، وهذه لا تعهد النسيان ولا تعرف الزمان ، فنظرها الى الماضى والحاضر سواء ، وادراكها للقريب والبعيد كِفاء ، ولها ما للنفس من الحلول فى كل مكان ، والبقاء على طول الزمان ، والعموم الذى لا يقيده ظرف ، ولا يحدده وصف . فسكنوا روعكم أيها المحبون ، واعلموا أن سلطان الزمن على ساعاتكم وأيامكم ، لا على نفوسكم وأحلامكم !

٤٠

حاولت الكلام فخانني المنطق ، والتاث علىّ القول ، فرددت عليها بزفراتى ، وأقسمت لها بعبراتى . ثم قمنا فلحقنا بالمُكارين وعدنا والشمس فى الطَّفَل من طريق الحور التى سلكناها ليلة أُبْنا من منزل الصياد وهى فى المحفة وأنا بجانبها أسير على قدمى ويداى فى يديها طول الطريق. فلما بلغنا الضاحية الكبيرة التى بظاهر المدينة وأجزْنا الساحة واخترقنا الشارع الصاعد الى اكس بدت وجوه كاسفة حزينة من شبابيك المنازل وأعتاب الأبواب تلقى علينا السلام كما تلقيه القلوب الرقيقة على زوج من السنونو تعوّق عن الرحيل مع سربه . ووقف النساء المساكين اللائى كن يغزلن جالسات على مقاعد من

الحجر قريباً من بيوتهن ، وهرع الولدان الينا تاركين ما يسوقون أمامهم من قطعان الشاء ورعائل الحُمُر ، وكلهم جاء ليوجه الى الفتاة والى من يظنونه أخاها اما نظرة واما كلمة واما انحناءة صامتة . وهى جميلة فى كل عين ، حبيبة الى كل قلب ، خفيفة على كل نفس ، فكأنها كانت الشعاع الأخير من أشعة العام يرتد عن الوادى .

ولما ظهرنا على المدينة ترجلنا وصرفنا الغلمان ببغالهم ، ومازال من يومنا الأخير بقية تضىء الثلوج الوردية التى تُقَنِّع رأس الألب ، فكرهنا أن نضيعها على أنفسنا بالدخول الى المدينة ، ومضينا وحدنا نصعد فى طريق منحوتة تؤدى الى حديقة فوق بيت جميل يسمى بيت الفارس . فلما وقفنا على سطح هذا المنزل استطاعت عيوننا أن تجول حرة طليقة فى المدينة والبحيرة ، وفوق مضايق الرون المجمَّعة ، وبساتين الكروم الموشَّعة ، ومناظر الألب الجميلة ، وجلسنا فوق جذع مجندل على الأرض معتمدين بمرافقنا على سور هذا السطح صامتين جامدين ننظر اما معاً واما متعاقبين الى الأماكن المختلفة التى ملأناها فى ستة أسابيع بنظراتنا وخطواتنا وأحلامنا وأنفاسنا ، حتى اذا انطفأ مصباح النهار فى هذه الأمكنة واحدا بعد واحد ، ولم يبق الا بصيص من النور يلمع شمالا فى حاشية الأفق ، نهضنا واقفين دون مشاورة ولا مداولة ، وانصرفنا راجعين نلتفت

عبثاً الى الوراء كأن يداً خفية طردتنا من هذا الفردوس . ثم أخذت الطبيعة تطوى على أثرنا ما أقامته من زينة، وما اتخذته من زخرف ، احتفالا بسعادتنا واحتفاء بحبنا

٤١

رجعنا المنزل وقضيناها عشية كئيبة عابسة ، وتم الأمر بيننا على أن أصحب جوليا حتى تبلغ ليون . فلما آذنتنا الساعة بوهن الليل قمت أنصرف لأترك لها ما بقى منه لتستريح فيه حتى الصباح . فشيعتنى الى الباب وتقدمت ففتحته ثم قبلت يدها وقلت لها : (الى الغد !) فلم ترد على . ولكنى سمعتها تغمغم قائلة وهى تنتحب خلف الباب : « هيهات ! لم يبق لنا من غد ! » بلى ! قد بقى لنا فى صحيفة الزمن أيام ، ولكنها قصيرة مرة كأنها النطفُ الأخيرة من كأس فارغة !

رحلنا قبل أن يخلع الصباح ثوب الغلس الى شمبيرى حتى لا يظهر الناس منا على خدود أذواها الأرق ، وعيون قرحها البكاء. وقضينا سحابة ذلك اليوم فى فندق من فنادق هذا البلد . وكان لهذا الفندق شاذَرْوان من الخشب يشرف على حديقة يجرى وسطها نهر صغير ، فألقى فى روعنا بضع ساعات اخرى أننا لا نزال

على صلة بمسكننا فى اكس وما يتصل به من ظلال وسكون وعزلة

٤٢

وددنا قبل أن نغادر شمبيرى وواديها العزيز أن نزور معاً منزل جان جاك روسو والسيدة د ڤرنس فى شرميت . وما الرّبع الا رجل أو امرأة . والدار لولا ساكنوها بناء ، والأرض لولا عامروها خلاء . فما ڤسكلوزُ لولا بترارك ؟ وشوارنت لولاتاس ؟ وصقلية لولا ثيوكريت ؟ وبرَاكليه لولا هلويز ؟ وأنيسى لولا دڤرنس ؟ وشمبيرى لولا جان جاك روسو ؟ هل تكون هذه البقاع من غير هؤلاء ، الا سماء من غير أضواء ، وأصواتاً من غير أصداء ، ومساكن من غير أحياء ؟ ان الانسان لا يؤثر فى الانسان وحده ، وانما يؤثر فى الطبيعة كذلك . فهو يحمل معه خلوداً فى السماء ، ويترك بعده خلوداً فى الأرض ، تحسه فيما عايش من قوم ، وزاول من عمل ، ولابس من ربوع ؛ فاذا ماوجدت آثاره فقد وجدته ، أو زرت دياره فكأنك زرته . ذهبنا نزور هذا المكان ومعنا كتاب الاعترافات الذى وصف فيه شاعر شرميت هذه الأرباض الريفية أجمل وصف . وكان هذا المكان أول ملجأ لأولى غرقات روسو فى خضم الحياة ، ألقت به أمواج القدر بين ذراعي امرأة فتية جميلة مخاطرة ارتطمت

بها سفينة الحظ مثله فانتشلته . وكأنما صيغت هذه المرأة عن قصد من الفضيلة والرذيلة والحياء والوقاحة والرقة والقسوة لتُشبِل على حداثة هذا العبقرى الشاذ الذى تجمعت فى نفســه المتناقضة صفات الحكيم والحبيب والفيلسوف والفقيه والأحمق . فلو قيض له الله امرأة أخرى لكان من الممكن أن تصوغ منه رجلا آخر . فان أثر الحبيبة الأولى فى حياة المحب من أقوى الآثار وأبقاها

فما أسعد من عرف السيدة دفرنس قبل رجسها وتبذل نفسها ، فقد كانت صنما تهوى اليه الأفئدة ، فما زالت الأرجاس تتعاوره حتى تدنس ، واستحالت العبادة التى كانت تؤديها اليها تلك النفس الطاهرة الوامقة الى حقارة وضَعة . وماحب هذا الفتى وهذه المرأة الا صفحة من (دفنس وكلويه) انتزعت من الكتاب ثم وُجدت ملطخة مدنسة على فراش عاهرة

وعلى أية حال لقد كان حبها الغرام الأول لهذا الشاب الجميل ، وبيتها منبت هذا الغرام ومثابته ، فكان فيه العريش الذى نشأت فيه أوائل اعترافاته ، والغرفة التى خجل فيها من أولى علاقاته ، والفناء الذى كان يتمجد بالاسفاف فيه الى أحقر الأعمال البدنية خدمة لحبيبته ونصيرته ، وأشجار القسطل المتفرقة التى كان يجلس فى فيئها الحبيبان يتحدثان عن الله ، ويقطعان سياق هذا الحديث اللاهوتى الفرح

بالضحكات الجنونية والمداعبات الطفلية . وكانت صورتاهما مطبوعتين فى كل هذه المشاهد المونقة الريفية ، ممتزجتين بهذه الطبيعة الموحشة الخفية . وللشعراء والحكماء والأخلاء الى كل ذلك انجذاب قوى وميل شديد . فأما الشعراء فلأنها الصفحة الأولى من نفس هى فى مجموعها قصيد ونشيد ، وأما الحكماء فلأنها مهد ثورة ومسرح تجديد ، وأما الأخلاء فلأنها عش لأول حب ومهد لأول عاطفة !

٤٣

كنا نصعد ونحن نتحدث عن هذا الحب فى طريق مُحَصب يخوض فى جوف وادٍ يؤدى الى شرميت ، وكنا نسير وحدنا لانحس من أحد ولانسمع من صوت ، حتى رعاة المعز غادروا السهول بعد أن تركوا المروج جديبة ، والأسوجة سليبة . وكانت الشمس تضىء من خلال الغمائم الجهام فتتجمع أشعتها فى جوف الوادى فيشتد حره ، والعصافير المطوقة تثب فى الأدغال تحت أيدينا وهى آمنة . وكنا نقف الحين بعد الحين فنجلس على مصرف من مصارف الماء لنقرأ صفحة أو صفحتين من كتاب الاعترافات، ولنتحد بجسومنا ونفوسنا مع هذا المكان ؛ قرأينا الأفاق الشاب فى أطماره البالية يقرع باب أنيسى ويلقى كتاب التوصية فى حياء وخجل

الى الغادة المتكفة وهى فى الطريق المقفرة بين قصرها والكنيسة . وكان الفتى والفتاة ماثلين لعيوننا، حاضرين فى قلوبنا ، حتى ليخيل الى أنهما يسمعاننا ، وأننا سنراهما عما قليل فى الشباك أو على مماشى الحديقة بشرميت . ثم ننهض فلا نكاد نعاود السير حتى نعاود الوقوف، كأنما فى كل مكان عاملان أحدهما يجذب والآخر يدفع. وكأنما فى المكان الواحد كانت قداسة هذه الحب ونجاسته . ولكن حبنا ولله الحمد بنجوة من هذا الخطر ، فنستطيع أن نتخيله ونتمثله كما حملناه فى قلوبنا نقى الصفحة نزيه الغرض لا يقرف بسوء ولا يحاط بشبهة

ثم قلت فى نفسى : آه ! لو كنت أنا روسو وكانت چوليا دڤرنس فماذا كان تأثيرها فى ، وسلطانها علىّ ، وهى أسمى من فتاة شرميت ، وأنا أدنى من روسو فى الذكاء وان كنت أدانيه فى الحساسة ؟ !

وكنا اذ ذاك قد علونا وَرَاقاً(١) من الأرض شديد الانحدار والتعرج ، تتخلله أشجار من الجوز قديمة العهد كاديبليها مرور الزمن . وهذه الشجرات شهدت هناء الحبيبين ورأتهما يلعبان معاً فوق جذورها . ورأينا على اليمين فى الموضع الذى ضاق فيه الشعب حتى

---

(١) الوراق ، الارض المخضرة من الحشيش

كاد جانباه يتماسان شرَفاً من الحجارة الوعرة المتنافرة يقوم عليه منزل السيدة دفرنس ، وهو مكعب من الحجارة الغُبر ينفذ فيه من جهة الشرف باب وشباكان ومثلهما من جهة البستان ، ومن فوق ذلك ثلاث حجرات واطئة وردهة كبيرة على سَواء الأرض ، وليس فيه من الرياش الا صورة للسيدة دفرنس وهي فى وفرة شبابها ، ولا يزال محياها الوسيم الضاحك يشع الجمال والخيال والفرح من خلال الغبار الغاشى على الصورة. مسكينة هذه المرأة الفاتنة ! لو لم تصادف هذا الصبي الشرير فأمّنت سربه ، وفرجت كربه ، وفتحت له بيتها وقلبها لانطفأت فى الوحل والقذر عبقرية قريحته الحساسة المعذبة . وقد يُظن أن هذه المقابلة جاءت عرضاً من طريق المصادفة ، ولكنها حظ هذا الرجل العظيم كتبه الله منذ الأزل على وجه خليلته الأولى فأنمته وثقفته وحمسته بالخلوة والحرية والحب . فكان أثرها فيه كأثر الحور العين على رأى المشارقة فى نفوس المؤمنين ، اذ يسمو بهم طمعهم فى اللذة الى مقام الصديقين والشهداء . ثم جعلت منه مخيلة قوية مفكرة ، ونفساً نسائية مؤثرة ، ولهجة حنونة رقيقة ، وميلا شديداً للطبيعة ، ووصلت نفسها الشاعرة بنفسه ، فغيرت من طباعه وحسه ، وأعطته العالم فقابلها بالكفران والجحود ، ومنحته المجد فجازاها بالفضيحة والسبّة !!! ولكن الأعقاب

يجب ان يكونوا أشكر للنعمة ، وأرعى للحرمة، وأولى من اغتفر لها ذلك الضعف الذى خلق لنا نبى الحرية . على ان روسو حينما آثر العوراء على الغيناء فكتب ما كتب عمن أشبلت عليه وأحسنت اليه لم يكن روسو ، وانما كان ذلك المأفون الأحمق . ومن يدرى ؟ لعل التصور المريض المضطرب الذى خيل اليه أن الصنيعة اهانة والمحبة كراهة، هو الذى أوهمه ان المرأة الحساسة الشاعرة ، هى المرأة الهلوك الفاجرة ، وان الغرام والصراحة ، هما السفاهة والوقاحة . لقد خامرنى فى أمره الريب ، وحكّت فى صدرى هذه التهمة ؛ وانى أتحدى ذوى الدراية بالمنطق والبصر بالكلام أن يحللوا هذه الصورة الغريبة التى صور بها روسو حبيبته ، ويعللوا هذه العناصر المتناقضة المتعارضة التى جمعها فيها وخلقها منها . . ألا يجدونها متنافرة متناكرة يدفع آخرها أولها ؟ لو أنها عاشقة مخلصة لروسو لما أشركت به (كلود أنيت) فأحلته معه قلبها ، وقسمت بينهما حبها ؛ ولو أنها كانت حريصة عليهما مؤثرة لهما ، لما هويت الغلام البيغانى ؛ ولو انها كانت تقية فاضلة لما تمدحت برذائلها وتبجحت بمخازيها ؛ ولو أنها كانت جميلة فتانة سهلة كما وصفها روسو لما بلغ بها الأمر أن تنشد هواتها وعبادها بين الصعاليك والأفاقين على قوارع الطرق وأفواه الشوارع ؛ ولو كانت حياتها تصنعاً وتخلقاً لكانت امرأة مال وصنيعة

نفاق ؛ ولو كانت مداجية منافقة لما كانت هي المرأة الحرة الصريحة المطبوعة التي تجدها في اعترافاته. كلا ليست هذه الصورة صحيحة، وانما هي رأس وقلب رسمتهما يد عابثة لاعبة. ولا بد أن يكون لهذا الامر سر، وربما كان هذا السر في اليد الضالة التي صوّرت، لا في طبيعة المرأة التي صوِّرت، فلا ينبغي ان نتهم المصور الذى خل ميزانه وضل حكمه، ولا أن نصدق الصورة التي شوهت خلقة جميلة، وكرّهت نفساً نبيلة، بعد أن رسمتها وحسنتها. أما أنا فلم يصح في اعتقادي مطلقاً أن السيدة د ڤرنس تتمثل في هذه الصفحات المريبة المبهمة التي كتبها روسو في هزال الشيخوخة وضلال الكبر، وانما كنت أتمثلها دائماً في خاطري كما بدت للشاعر الشاب في أنيسى جميلة حساسة رقيقة فيها شيء من النزق والمجون على عفاف نفس وورع قلب، مسرفة في الطيبة، ظمأى من الحب، متحرقة الى أن تجمع بين عاطفتي الأمومة والعشق في علاقتها بهذا الطفل الذى ساقته اليها المقادير، فوجدت فيه بغية قلبها وحاجة هواها. هذه هي الصورة الصحيحة صورتها كما سمعتها من أفواه العجائز والشيوخ في شمبيرى وأنيسى رواية عن آبائهم

ان روسو ليحمل في نفسه الشهادة على ظلمه واجرامه. والا فمن أين له هذه الشفقة السامية الحنون، وهذا الانقباض المؤنث

المحتشم ، وهذه الحساسة الرقيقة الصافية ، اذا لم يكن استمدها من قلب امرأة ؟ كلا ان المرأة التى خلقت مثل هذا الرجل ما كانت وقحة ولا فاجرة ، وانما كانت هيلوزَ ساقطة . وما كان سقوطها فى رَدَغة الفحش ولا فى سفالة الخُلُق، وانما كان فى لجة الهوى والصبابة .

٤٤

جاءت البستانية فأوقدت لنا فى غرفة السيدة دفرنس ناراً وتركتنا نصطليها ومضت لعملها فى المطبخ والفناء دون ان تحذرنا أو تشغل بنا ، لانها تعودت ان ترى الأجانب فى هذه الدار وأن تسمع أحاديثهم الطويلة عن هذا المسرح الذى شهد السنين الأولى لهذا النابغة النابه . ثم قمنا نحن فتنقلنا أحراراً من الردهة الى الحديقة ومن الحديقة الى الغُرف . وكانت الحديقة وهى مغمورة بالشمس عارية من العشب والبقل كاسية بالنبات الطفيلى أشبه بمقابر القرى يأتيها الفلاحون أيام الآحاد فيجلسون تحت جدران الكنيسة يضحون للشمس وأرجلهم على قبور الموتى . ترى مماشيها بعد ان كانت فى عهدها الأول مفروشة بالرمل محصوبة بالحصا قد كساها التراب النَّدِي وغشاها النجيل الأصفر . وما كان أشوقنا الى أن نكشف

عن آثار أقدام السيدة فى العهد الذى كانت تتنقل فيه من شجرة الى شجرة ومن كَرْمة إلى كرمة ، وفى يدها مقطف تجنى فيه الكمثرى من البستان أو العنب من الكرم ، وبجانبها ذلك التلميذ أو المعترف تطير معه فى الروض طائشة كما يطير الفراش أو يطيش الظليم . على أنه لم يبق من أثرهما فى بيتهما غير نفسهما . فكان اسماهما ، وذكراهما ، وصورتاهما ، والشمس التى رأياها ولا تزال تشعُّ بشبابهما ، والهواء الذى نشقاه ولا يزال دافئاً بأنفاسهما رناناً بأصواتهما ، كل ذلك كان يغمرنا بما كان يغمر به ربوعهما ويبهج ربيعهما من نور وتنفس وحلم وحركة . وكنت أرى من سحنة جوليا المفكرة وصمتها الناطق ان هذا المعبد معبد الحب والعبقرية قد فعل فى قلبها ما فعله فى قلبى من الأثر القوى والتفكير البالغ . وقد حاولت الفرار منى لتخلو الى نفسها ، وتستسلم الى فكرها وحسها ، فتركتنى فى الحديقة وعادت هى الى البيت تريد ان تستدفئ . فلما لحقت بها هناك انقلبت الى الحديقة ، فجلست على مقعد حجرى فى الجوسق فتبعتها اليه . وكان ما تخلف من الأوراق الذاوية المصفرة على عساليج الكرم لا يستطيع حجب الشمس عن هذا الجوسق فنام فيه الضوء وتمدد . ثم قلت لها بلهجة العاتب الحانى : ما هذا الذى شغلك فأردت أن تفكرى فيه من دونى ؟

فقالت : واأسفاه ! وهل أستطيع أن أفكر وحدي ؟ انى أقول لنفسي : ليتني كنت لك فصلا واحداً من الدهر كما كانت السيدة دڤرنس لروسو، حتى ولو قضيت مثلها بقية أيامى فى القطيعة والمنقصة، وكنت أنت مثله كافراً بالمعروف رامياً بالتهم ! ما كان أسعد قلبها وأرغد عيشها ! لقد استطاعت ان تضحى بنفسها فى سبيل من أحبت ! فقلت لها وقد عدت بها الى البيت : ما هذا الكفران والنقصان اللذان تصمان بهما نفسك وحبك ؟ هل بدرتْ منى اليك لفظة أو لحظة تفهمين منها أن هنائى مَشُوب وأن سعادتى منقوصة ؟ لم لا يتصور خاطرك الطاهر أن يكون لهذا الذى تشبهينه بروسو حبيبة أخرى فتية نقية عذراء تقدم اليه نفسها لا جسمها، وتفتح له قلبها لا بيتها، وتبسط له انقباض الحياة، وتنير أمامه ظلام الوجود، وتطهره من رجس الهوى بنار الحب، وتغسله من دنس الشهوة بدموع الألم، وتعلمه أن لذة الحب فى التأمل والحرمان أبلغ منها فى التبذل والمنح، وتدفعه الى المجد والفضيلة والايثار بحملها اياه على أن يعتقد أن هذه الخلال قبس من الحب، وهى كلها مدد لكنز الجنان الذى يمتلىء فى الأرض ليُفتح فى السماء ؟ وأدركنى الخور والاعياء من التأثر فتطرحت بعيداً عنها على كرسى واعتمدت وجهى بيدى ولبثت طويلا لا أتكلم . فقالت لى : هلمَّ

فانى أحس البرد وهذا المكان لايلائمنا . . فأعطينا المرأة شيئاً من النقود وخرجنا فأخذنا الطريق الى شمبيرى

٤٥

كانت جوليا قد اعتزمت الرحيل بكرة الغد الى ليون ، وكان لويس قد جاء ليلة السفر يزورنا فى الفندق . فحملته على أن يسافر معى بضعة أسابيع فى بيت أبى . وكان موقع هذا البيت على الطريق بين ليون وباريس . وخرجنا معاً نبحث عند السراجين فى شمبيرى عن مركبة صغيرة مكشوفة تقلنا ، ثم نستطيع ونحن على مقعدها أن نتتبع بالنظر مركبة صاحبتى حتى البلد الذى يدهمنا التفرق فيه . فظفرنا بما كنا نبغى . ولم يكد الفجر يبزغ حتى كانت الخيول تعدو بالمركبتين فى المضايق المتعرجة من سفوا . وكلما بلغنا مرحلة نزلنا فسألنا عن حال المريضة . واحسرتاه عليها ! لقد كانت كل دورة من عجلة المركبة تقصيها عن منبع الحياة الذى وجدته فى سفوا ، وتجفف ما ترقرق من ماء الشباب فى وجهها ، وترد الى محاجرها وملامحها ذلك النحول الكاسف وتلك الحمى الباردة التى أثرت فىَّ ونالت منى يوم لقيتها لأول مرة : ولما وردنا برج الصنوبر من طريق ليون صعدنا اليها فى مركبتها نهوّن عليها ونسليها ، ورجوت منها أن تغنى

لصديقى أغنية الملاح الايقوسى ، فغنتها إطاعة لى ، ولكنها لم تكد تبـدأ المقطوعة الثانية التى تذكر فراق الحبيبين حتى تمثلت فيها موقفينا، ووجدتها تعبر عن حالينا، فخانها الصبر وزهقها الجزع وانهلت مدامعنا ومدامعها انهلال القَطْر . فسدلت على وجهها شالا أسود ، ورأيتهـا تنتحب من خلاله طويلا ، حتى بلغنـا المرحلة الأخيرة فأصابتها غشية شـديدة دامت الى ان وقفنا على باب الفندق . فساعدتنا خادمة الخانـ على حملها الى سريرها ولزمته حتى المساء فاستفاقت . وفى صباح اليوم التالى تابعنا المسير الى (ما كون)

٤٦

وفى هذا البلد حُم الفراق ودنت روعة البين ، فزودنا سائقها بنصائح ضرورية ووصايا لازمة . واختصرنا التوديع مخافة أن يهيج أشجانها ويزيد آلامها كما يسرع الجراح فى شق الجرح اتقاء لصيحة المجروح . ومضى صاحبى الى ضـيعة أبى وتخلفت عنه لألحق به . على أن لويس لم يكد يغادر ماكون حتى وجدتُنى فى حالة لا أستطيع معها البر بما وعدته ، ولا الصدق فيما قلته . فقد وقع فى فكرى انى اذا تركت جوليا تقطع هذه الشقة البعيدة فى فصل الشتاء شاكية باكية لا يُعنى بها ولا يقوم بأمرها غير خادمين، أدركها المرض أو

عاجلها الموت وهي وحدها في خان أو في أي مكان تذكرني ولا أدري ، وتدعوني ولا أجيب ، فعدلت عن السفر وقررت في نفسي أن أسايرها على بُعد فاسهر عليها وأرعاها ، حتى تبلغ مأمنها ومأواها . ولكن يدي من المال صفر ، والشيخ الطيب الذي أقرضني الخمسة والعشرين دينـاراً زاره الموت في غيبتي . فخلعت ساعتي وسلسلتها الذهبية من صـدري ، وسيفي من عاتقي ، وطرازي من سيفي ، وشرائطي الفضية من حلتي ، وجمعت هذا كله في معطفي وذهبت به الى جوهري أمي فبعته منه بخمسة وثلاثين ديناراً ومضيت مسرعاً الى الفندق الذي نزلت فيه جوليا ، ودعوت سائق مركبتها وقلت له اني مسايرك من بعد حتى تبلغ أبواب باريس ، ولكن لا أريد أن تفطن سيدتك الى ذلك مخافة أن تحول بيني وبينه . ثم استفهمته عن أسماء المدن والفنادق التي سيقف بها أو ينزل فيها حتى أنزل بنزولهم وأرحل برحيلهم . ثم أجزلت له المكافأة مقدماً على حصانة صدره وصيانة سره ، ومضيت فاختجزت لي خيلا من البريد وقمت على أثرها بعد سفرها بنصف ساعة

٤٧

لم يحل بيني وبين هذه الرعاية الخفية حائل . ومضى السائق

أمامى كلما مر بمحطة يسر الى عمال البريد أن مركبة من ورائه توشك أن تصل وهى تحتاج الى جوادين ، فيعدونهما وينتظروننى بهما حتى أصل فأشدهما ، ثم أتابع السير مسرعا مرة ومبطئا أخرى تبعاً لما أريد من البعد أو القرب من المركبة الحبيبة . فاذا ما علوت شرفا من الارض أبصرت بها تدرج على جَدَد السهل فى أطباق الضباب أو فى ضوء الشمس حاملة سعادة نفسى ونعيم حياتى ، فيسبق فكرى اليها عَدْو الجوادين ويغشاها فى المركبة فاذا هى راقدة تحلم بى ، أو يقظانة تبكى ايامنا الخالية وهناءنا الراحل . ولا أستطيع أن أعلل الآن كيف تسنى لى أن أغالب شعورى ، وأكظم على ما فى نفسى من النزوع والتوثب مسافة عشرين ومائة فرسخ ، فلم أقتحم الطريق إلى المركبة التى أقلت هواى ، وتجمع فيها مناى ، وتعلقت بها روحى ، تاركة جسمى يهيم وراءها غير عابئ بما يصدمه من هزات العجلات ، ويؤلمه من سفعات الجليد ! ولكن خوفى عليها من أثر اللقاء المفاجئ ، وتجديد موقف الوداع المؤلم ، ورغبتى فى أن أقوم على حراستها ، وأسهر على سلامتها ، بعين العاشق النزيه حبس عنانى وقطع علىّ وجهى

نزلتْ للمرة الأولى فى فندق أوتين الكبير ، ونزلتُ أنا فى خان الضاحية على مقربة منه . فبتنا ، وقبل أن يتنفس الصبح كانت المركبتان تكران على الطريق خلال السهوب المغبرة ، أو بين غياض

السنديان العتيقة من عُلْيا بورجونيا . ثم وقفنا بدسكرة أڤالون ، هى فى قلبها وأنا فى طرفها . وفى غد ذلك اليوم أخذنا الطريق الى سَنْس . وكان ماركنته ريح الشمال من الثلج حول الهضاب الوعرة الشم (من لُوسى لُبْوا) و(فرْمانتون) قد أخذ يسّاقط كُبباً منحلة على الجبال والطرق ، فأخفت صوت العجلات ، وأصبح مما يشق على العيون أن تميز الأفق المُضبَّ من زرور الثلج الذى تعصف به الريح فوق الأرض ، فاستحال علىَّ حينئذ أن أقيس المسافة بين المركبتين بالسمع والبصر . وبينا أنا كذلك اذ بصرت فجأة بمركبة جوليا واقفة أمام جواديَّ فى وسط الطريق ، والسائق قائماً على سلمها ينادى بالويل والجزع ، ويبدى حركات الحزن والهلع ، فوثبت الى الأرض وطرت الى المركبة ودخلتها فاذا هى مغمى عليها من أثر الكلال وتغير الجو وروعة البين ، ووصيفتها تحاول تنبيهها فلا تتنبه ، فأخذت بين يديَّ رأسها الحبيب ساعة طويلة من الزمن كانت هى فى غيبوبة الحس ، وأخذت الوصيفة بقدميها ووضعتهما على ركبتها ، وطفقت تفركهما وتضمهما الى صدرها ، وذهب السائق الى الأكواخ البعيدة يقتبس منها ناراً ، أو يلتمس منها ماء ساخنا ، وأنا فى أثناء ذلك ينتابنى من الشعور المختلف بين الرغبة فى أن تعرفنى ، والرغبة فى أن تجهلنى ، ما لا يدركه ولا يعبر عنه الا من اقتتل الموت والحياة على قلبه . وكانت

نتيجة هذه العناية الرءوف والعلاج المنعش أن دبت فى جسمها الحرارة ، وانتشرت فى وجنتيها الحمرة ، وانفرجت شفتاها عن تنفس طويل خافت . فعلمت أنها تستفيق ، فوثبت خارج المركبة حتى لا يقع بصرها على اذا ما فتحت عينيها ، ووقفت الى جانب العجلة قليلا وقد سترت وجهى بمعطفى ، وأوصيت الخادمين أن يخفيا عنها وجودى . فأشارا الىّ أن السيدة قد عادت الى نفسها ؛ وسمعتها تقول وكأنها تحلم : « آه لوكان رفائيل حاضراً ! لقد أحسست رفائيل بجانبي ! » فصعدت مركبتى وانطلقت الخيول تعدو حتى وقفت بنا فى « سنس » . وهناك فى العشية سألت عن حالها فقيل لى : انها الليلة أصلح ، وهى الآن نائمة ملء عينيها . ثم تقصصت أثرها حتى « فوسار » وهى محطة للبريد قريبة من مدينة مونترو . وفى هذا الموضع ينشعب طريق سنس الى باريس شعبتين احداهما تمر بفنتنبلو والاخرى بميلن ، وهذه الشعبة أقصر من تلك ببضعة فراسخ ، فأخذتها حتى أسبق جوليا الى باريس فأستطيع أن أراها وهى تنزل من المركبة أمام بيتها . وضاعفت الأجر لساقة البريد فأدخلونى باريس قبل دخول الليل بوقت طويل . فنزلت بالفندق الذى اعتدت النزول به . ولما غشى الليل ذهبت فكمنت على رصف من أرصاف السين إزاء بيتها وقد كنت عرفته من طول ما وصفته

لى فكأنما قضيت به ذاهب عمرى . اطلّعتُ فى داخل البيت فرأيت من خلال زجاجه ظلالا تذهب وتجىء استعدادا لقدوم الضيف العزيز ، ولمحت فى غرفتها سطوع نار الموقد فى سمائها ، وفى أحد الشبابيك وجه شيخ يقترب فيرى الناس ويتسمع الى حركة الشارع ، ذلك كان زوجها وأباها . وكان البوابون قد تركوا الباب مفتوحا وهم بين آونة وأخرى يخرجون فينظرون ويسمعون أيضاً ، وأمام البيت مصباح قد عبث بضوئه هواء ديسمبر العاصف فهو ينشر نوره على البلاط ثم يطويه فى خمود وسرعة . ثم خرجت من أحد الشوارع مركبة من مركبات البريد وأقبلت تسرع حتى وقفت أمام ذلك المنزل . فبادرت الى ظل عمود هناك أمام البيت المجاور لبيتها فتسترت به ، ورأيت الخدم يستبقون باب المركبة ، وجوليا تنزل منها فى حضن الشيخ ، والشيخ يقبلها قبلات الوالد لولده بعد غياب طويل ، ورأيتها تصعد السلم متثاقلة متطرحة تتحامل على ذراع الحاجب . وقفلت المركبة بعد تفريغها من المتاع راجعة ، وأغلق الباب وعدت الى محلى الأول بالقرب من حاجز النهر

٤٨

لبثت طويلا أرقب شبابيك بيتها وقد أضاءتها المصابيح ،

وحاولت أن أقف على ما يحدث داخل البيت فلم أر الا الحركة العادية التى تعقب قدوم المسافر من حمل حقائب وفك صرر وترتيب أثاث . فلما همدت الحركة ووقف تنقل المصابيح من حجرة الى حجرة ، وانطفأ النور الا من غرفة الشيخ فى الطابق الأول ، رأيت من خلال الزجاج قدها الأهيف الممشوق يرتسم ساكنا أسود على بياض الستور ، وبقيت ساعة على تلك الحال ، ثم فتحت الشباك على رغم البرد واطلعت لحظة فى السين من الجهة التى تلينى، كأنما ألهمها الحب أن تصوب نظرها الى . ثم استرجعت بصرها وأرسلته الى جهة الشمال فراقبت كوكبا كنا نديم النظر اليه معا واتفقنا على أن نجعله موعدا للقاء ، ومجتمع النجوى متى حُمَّ الفراق وشط المزار ، فيرقبه كلانا من جهته ، وتلتقى عنده روحانا فى خلوة السماء الآمنة . رأيتها ترعى هذا الكوكب فكأنما لذع كبدى جمرة متقدة، وأقصد فؤادى سهم ناصل. ففهمت أن روحينا تلاقيا فى مكان واحد واجتمعا فى فكرة واحدة . فحل ذلك عرى عزمى فقمت كأنما نشطت من عقال ، وعدوت حتى وقفت تحت نافذتها ، وناديتها بما يدلها على أن أخاها تحت قدميها ؛ ولكنها فى تلك اللحظة كانت تغلق الشباك ، وطغى دروج المركبات على صوتى فأخفاه ، وانطفأ النور من أسفل البيت فوجمت مكانى لا أتحرك ، حتى سمعت ساعة تعلن

انتصاف الليل فاقتربت من الباب وقبلته وأناواجف القلب مرتهك المفاصل . ثم جثوت على عتبـة البيت وابتهلت الى جدرانه أن تحفظ ما استودعتها من مهجة القلب ومنية النفس وأثمن القُنى ، ثم غادرت المكان والنفس هائجة والفؤاد زاخر

٤٩

وفى الصباح تركت باريس دون أن أعوج على أحد من أصحابى فيها . وكنت بذلك سعيد النفس راضى الضمير ، لأنى لم أنظر نظرة ولم أقل كلمة ولم أخط خطوة الا فى سبيلها . غير انى وضعت فى صندوق البريد قبل أن أغادر المدينة رسالة قصيرة الىچوليا تصلها عند هبوبها من النوم وما فيها غير هـذه الكلمات : « لقد تبعتك من بعيد ، وكلأتك بعينى خفية ؛ ولم أستطع أن أفارقك قبل أن أراك فى حمى الحانين عليك ، ورعاية الكلفين بك ؛ ولقد كنت هنالك ساعة فتحت الشباك عند منتصف الليـل وتنهدت وأنت تنظرين الى الكوكب . ولو كنتُ تكلمت لسمعت كلامى ؛ غير أنك تقرأين هذه السطور حينما أكون بعيداً عن باريس محمولا على جناح النوى الى البلد القصى . . .

٥٠

سرت النهار وسريت الليل ذاهب اللب ، مستطار القلب ، مشرد الفكر ، لا أحس البرد ، ولا أجد الجوع ، ولا ألاحظ المسافة حتى بلغت (م) . . فكأنى صحوت من حلم ، وكأنى لم أذهب الى باريس . فوجدت صديقى لويس ينتظرنى فى ضيعة أبى ، فكان وجوده جلاء لقلبي من الهم ، وعزاء لنفسى من روعة البين ، اذ استطعت أن أناقله الحديث عن تلك التى أعجب بها ، وهام فى حبها ، كما أعجبت وهمت . كنا ننام معا فى حجرة واحدة ، فكنا نقطع صدور ليالينا بالحديث عن هذه الظاهرة الالهية والمخلوقة الفاتنة ، وكانت فى رأى لويس خَلْقا مما يكبر فى صدور النوابغ ، ويسمو فوق الطبيعة ، أمثال بياتريس حبيبة دانتى ، وإلينور حبيبة تاس ، ولورَ حبيبة بترارك ، أو مثل ڤيتوريا كولونا التى جمعت بين الشعر والحب والبطولة ، وغير هؤلاء ممن هبطن الأرض وجزنها دون أن يمسسنها أو يقفن بها الاريثما يَفتِنَّ بعض العيون البصيرة ، ويسبين بعض القلوب الكبيرة ، ويوحين الى نفوس المصطفين الأخيار حقيقة الخلود ، وسر الوجود ، وطموح العظمة . على أن لويس لم يستطع أن يرفع حبه لها الى مستوى اعجابه بها ، لأن قلبه الرقيق

المدنف قد شغلته من زمن باكر فتاة يتيمة من أهله ، حلاها الله بالجمال والأدب ، كما أخلاها من الأهل والنشب . وكان حديث قلبه ومَرَاد أمانيه أن يتزوج منها ويعيش معها فى هدوء العزلة ودعة الخمول فى بيت صغير على هضاب شمبيرى . ولكن الفاقة التى هاضت جناح الحبيبين قعدت بهما عما يبغيان ، فلم يتعديا حدود الصداقة البائسة ضنا بأهلهما على الخصاصة والعوز ، وإشفاقا على أولادهما من عاقبة الشقاء ووراثة البؤس . ولم يمض بضع سنين حتى لحقت الفتاة بربها مفجوعة بحبها ، فريسة للخذلان والوحدة ، وعهدى بها أنضر زهرة فى روض الحياة مسها الفقر والضر فصوحها وأذواها ، ورأى عينى[١] وجهها تشرق فيه لمعة من أثر الشباب النضر ، وتلوح عليه تلك السمة التى يطبعها الشقاء على الوجوه العروفة[٢] المحتسبة . وكان قد ذهب ضوء عينها قبل ذهاب حبيبها من فرط الاستعبار وطول الانتظار فى الأسى والشك . ولقد لقيتها مرة وانا عائد من ايطاليا تقودها اختها الصغيرة فى شوارع شمبيرى . فلما سمعت صوتى انكفأ[٣] لونها وانسرقت قواها ، وتحسست بيدها شيئاً تتحمل عليه مخافة السقوط . ثم قالت لى : عفواً ومعذرة ،

(١) أى كنت أرى وجهها دائما على هذه الحال (٢) العروفة الصابرة
(٣) انكفأ لونها : تغير

إن ذلك حدث لأنى تعودت كلما سمعت هـذا الصوت أن أسمع بجانبه صوتاً آخر . وارحمتاه لك أيتها الفتاة ! انك تسمعين اليوم صوت حبيبك فى السماء !

٥١

ما كان أطول الشهرين اللذين قضيتهما بعيداً عنها على الرغم منى ومنها فى الضيعة أو فى المدينة انتظاراً لموعد اللقاء بها فى باريس ! ! لقد استنفدت اثناء ثلاثة الأشهر المنصرمة كل مارصد لى أبى من مال ، وأمدتنى به أمى من معونة ، واستعنت بمال أصحابى على اداء القروض التى ألجأنى الى عقدها السرف والميسر والأسفار ، فلم يعد فى وسعى احتيال شئ من المال اتبلغ به الى باريس ، وأعيش عليه هناك ردحاً من الزمن ولو فى ضيق وعزلة . فاضطررت الى انتظار يناير وهو موعد القسط الرابع من مرتبى الذى أجراه علىّ أبى ، والوقت الذى تعود فيه عمى الغنى الجامد ، وعمتى البرة الحازمة ، أن يرضخا (١) الى شيئاً من مالهما ، ورجوت أن يتجمع فى يدى من هذه الموارد ستمائة فرنك أو ثمانمائة تمكننى من الاقامة بباريس بضعة شهور . ولم أعد أشعر بمض الغضاضة من عيش الكفاف

---

(١) رضخ له : أعطاه قليلا

لأن سعادة نفسي وراحة حياتي تجمعتا في حب . فلو أن لي ما في العالم من رزق ومال لبذلته راضياً في شراء لحظة من نهار أرجو أن أمضيها معها . ثم شغلت أيام الانتظار بالفكر فيها والكتابة اليها وفعلت هي كذلك . فكنا نجلس كل يوم بعد الهبوب من النوم كل في غرفته يكتب الى الآخر فلا يمر يوم دون أن تتقابل رسائلنا وأفكارنا في الطريق فتتساءل وتتجاوب وتمتزج دون أن ينقطع سيلها أو تجم خيلها يوماً واحداً . فلم يكن في الحقيقة بيننا غير فراق ساعات من المساء والليل . على أنني كنت أملأها هي أيضاً بالنزوع اليها ، والتفكر فيها ، وأضرب حولي نطاقاً من رسائلها أنشرها على مكتبي ، وأنثرها على سريري ، وأحفظها عن ظهر قلب ، ثم أقرأ على نفسي منها الفقر الغزلية المؤثرة مقلداً في القراءة صوتها ولهجتها ، وحركتها ونظرتها ، ثم أرد عليها بصوتي ولهجتي فيتسنى لي بذلك أن أخدع نفسي وأوهمها أن حضورها معي حق لاشك فيه ، حتى اذا اقتحم الحجرة عليَّ زائر أو خادم أحس كأنه انتزعها مني أو طردها عني ، وأخرج الى النزهة في الجبال والمروج الحافة من حول النهر ومعي رسالة الصباح الواردة منها ، ثم أجلس لقراءتها مرات فوق الصخور أو على شاطئ النهر أو فوق قطع الجليد . وكلما قرأتها مرة تكشف لي الكتاب عن كلمة أو لهجة ندّت عني

أول مرة . وأتذكر أنى كنت أتجه دائما فى جولاتى الى الشمال عن غير قصد، كأنما كل خطوة أخطوها نحو باريس تدنينى منها وتقلل من تلك الشقة البعيدة التى تفصل بيننا . وكثيراً ما كنت ألج فى المسير وأمعن فى طريق باريس على هذه النية حتى يستحيل المضى ويتحتم الرجوع ، فينشب فى نفسى عراك شديد قبل أن اقتنع بالعودة. هنالك أرسل طرفى الباكى الى الناحية التى تظلها من الافق، ثم أعود أدراجى ثقيل الخطى بطئ الحركة . ولشد ما كنت أغبط الغربان السابحة فى الضباب الى جهة الشمال على أجنحتها الموقرة بالثلج ! وما كان آلم لنفسى وأمض لفؤادى أن أرى المركبات دارجة على طريق باريس ! وما كان أرضانى أن أنزل عن شبابى الباطل الى هذا الشيخ العاطل الذى ينظر الى من باب المركبة على أن أذهب فى طريقه ويعود فى طريقى! آه ! ما كان أطول أيام ديسمبر ويناير على قصرها ! ان الساعة الوحيدة التى كنت أهنأ فيها من بين تلك الساعات هى التى كنت أسمع فيها وأنا فى غرفتى خطى ساعى البريد وصوته . حينئذ أفتح الشباك وأطلع فأراه فى أقصى الشارع مملوء اليدين بالرسائل يوزعها على الخادمات ثم يقف أمام كل بيت هنيهة ينتظر أن يخرجن اليه بالأجر . وكم مرة لعنت هؤلاء النسوة الساذجات على تلكؤهن ، وحرصهن على أن يعددن النقود فى يد

الساعى قطعة قطعة . وقبل أن يقرع الساعى باب منزلنا كان يرانى واقفاً على العتبة خافق القلب فارغ الصبر، فيأخذ فى تصفح العناوين وعيناى تسبقانه الى اكتشاف الرسالة الأنيقة ذات الورق الهولندى والخط الانجليزى حتى أجدها فأتناولها واليد مضطربة والمفاصل مرتهكة ، والعين عاشية ، والقلب واجف . ثم أخفيها تحت ثيابى مخافة أن تراها أمى فترتاب فى هذه المكاتبة المستمرة ، وأهرب بها فى غرفتى فأوصد بابها على، ثم آخذ فى تلاوتها وأنا آمن . ولا تسل عما ذرفته فوق هذه الأوراق من عبرات ، وما طبعته عليها من قُبل ! ولقد فتحت بعد سنين هذا المجلد من الرسائل فوجدت وا أسفاه كثيراً من الكلمات قد محته شفتاى فاستبهمت معانى الجمل ، وكثيرا منها خلطه الدمع أوعبثت بورقه نشوة الطرب !

٥٢

وبعد الغداء كنت أصعد الى غرفتى العليا فأعيد قراءة رسالتها ثم آخذ فى الرد عليها . وتلك كانت أطيب ساعات النهار فى نفسى وأسماها : كنت آخذ أربعة أدراج من الورق الهولندى الرقيق الكبير ، فأبدأ الكتابة من أول طرفها الأعلى الى آخر طرفها الأسفل حتى لا أترك فيها فراغاً . ثم أعود فأدبج الهوامش ،

وأطرز مابين السطور ، حتى لا أدع فيها بياضاً . املأ هذه الصحائف كل صباح ثم أشعر أنها أضيق من أن تسع خواطرى الفائضة المضطربة ، وأعجز من أن تصور عواطفى المتشعبة الملتهبة . لم يكن لتلك الرسائل ابتداء ولا انتهاء ولا وسط ولا قواعد ولا شيء مما تواضع الناس عليه فى الانشاء ، وانما كان فيها نفس عارية مجردة أمام نفس أخرى تشرح لها جهد الطاقة مايجيش فيها من شعور ، ويعتلج بها من عواطف . تشرحه بهذه اللغة الناقصة القاصرة لغة الناس التى لم تخلق لشرح الغامض وتفسير المبهم ، وانما هى علامات ناقصة ، وكلمات فارغة ، وجمل جوفاء ، والفاظ باردة ، تصهرها نفوسنا بقوتها وحميتها واضطرامها صهر المعدن الآبى على النار ، ثم تصوغ منها لغة أثيرية مبهمة متقدة كألسنة اللهب تفهمها نحن ولا يفهمها الناس لأنها من نفوسنا وذواتنا . أبداً لا ينقطع تدفق نفسى ولا يبرد . فلو أن السماء كانت صحيفة وأرادنى الله على أن أرقم فوقها حبي لما وسعت هذه الصحيفة كل ما أردده فى نفسى وما أريد أن أقوله ! لقد كنت افرغ من تنمنمة الصحائف الأربع وكأنى لم أقل شيئاً ! والحق أنى لم أقل شيئاً ، فان الاحاطة باللانهاية والتعبير عنها محال وباطل

٥٣

لا أزعم أن هذه الكتب من طرائف الكلام، ونوادر الفكر، وروائع الفن، وانما أزعم أنها لذتنى وأفادتنى ومهدت لى سبل الكتابة حينما عرضت فيما بعد لأحوال الناس ولأخلاقهم بالوصف والتحليل فيما ألفت من كتب ونظمت من شعر . فاستطعت أن أرسم الفروق الدقيقة، وأصور المنازع المختلفة، واعبر عما يعترى النفس من فتور وسقم، أو حمية وحدة . لقد كنت أجاهد على غير قصد فقر هذه اللغة وجمودها وبرودها لأنى مضطر الى استعمالها مادمت لا أعرف لغة السماء . وكانت الجهود الخارقة التى بذلتها فى اخضاعها وتليينها وبسطها وليها وتصويفها وتلوينها، وإلهاب عبارتها أو اطفائها، ثم الحاجة إلى التعبير بالكلمات عن أخص العواطف وأدقها، واسمى الخواطر وأرقها، وعن نوازى القلب الجموح، وعفة الهوى المحتشم، والى تصوير النظرات والهيئات والزفرات والصمت والنحول وفناء القلب فى عبادة حبيبه النائى، كل هذه الجهود وان كسرت القلم فى أناملى كما تكسر الآلة العصية فى يد الفنان، مكنت لهذا القلم الكسير أن يجد أحيانًا الكلمة أو الحيلة أو العبارة أو الصرخة التى يبحث عنها ليظهر الخفى ويبرز

١٥٩

العقلى ويصور المستحيل

لذلك أتذكر أنى كنت كلما فرغت من رسالة نهضت من كرسى كأنى خارج من معركة شعواء خصومى فيها الكلمات واليراعة والطرس ، فأفتح الشباك وأعرض وجهى لنسيم الشتاء البارد ليجفف ما ارفض عليه من العرق

٥٤

على أن رسائلى لم تكن مقصورة على صرخات القلب وأنات الحب ، وإنما كانت فى الغالب من الأمر صلوات وأدعية، وتأملات وتعزية ، وأملا فى المستقبل ورجاء فى الله . لأن هذا الحب المحروم بطبيعته من الملذات التى تميت القلب بإحياء الحواس ، كان قد فجر ثانية فى نفسى ينابيع الشفقة التى غورتها الشهوات السافلة ، أو كدرتها النزعات الباطلة . وكثيراً ما كانت هذه العاطفة الدنيا تتغلب على العواطف السامية الطاهرة ، فأجهد أن أرفع معى الى ملكوت السموات هذه النفس الثانية المعذبة المجدبة على أجنحة مخيلتى الوثابة الطموح . فكنت أتحدث فى هذه الوسائل عن الله ، وهو وحده القادر بكماله على أن يخلق هذا الجمال الفاتن ، وتلك العبقرية الرائعة، وهذا الحنان المحض ، وهو وحده القوى على أن يحتوى أملنا

الواسع ، ويستوعب حبنا العظيم . وأعزى چوليا عن تضحيتنا بهذه السعادة الدنيوية الكاملة على مذبح الواجب ، وأرفع لها من قيمة هذه التضحية عند الله الذى يثيب على الخير ويكافئ على الفضيلة ، ويبارك على نزاهة حبنا اليائس ، وطهارة قلبنا الكسيرين ، مادام هذا الشقاء الزائل يؤدينا الى السعادة الخالدة والنعيم المقيم مع الأبرار فى عليين . حتى لقد بلغ بى الأمر أن عددتنى وعددتها فى زمرة السعداء ، ورحت أرتل أناشيد التفويض والتسليم كما شاء الحب العذرى وقضى به الواجب المقدس . وتوسلت الى چوليا ألاّ تألم وألا تفكر فى آلامى . وأظهرت لها الجلادة على المكروه ، والاحتقار لتلك السعادة الدنيوية التى كانت تجرى على لسانى دون أن يتأثر بها وجدانى ، وأريتها أنى تجردت من منازع الناس ، وتخلصت من طبائع الحيوان ، وأصبحت فى روحية الأملاك ، وسموت الى مسبح الأفلاك ، حتى لا يخامرها شك فى أننى آلم من حبها ، أو نادم على عبادتها ، ورجوت منها أن تنشد فى ظلال الكنيسة وفى ايمان المسيح الله الدموع ورمز الألم ماوجدته أنا نفسى فى عهد صباى من الرجاء القريب والعزاء المفرج والبشاشة المروحة . ثم ألفت لها أدعية ضارعة قوية تصعد الى السماء صعود اللهب لا يحجبه حاجب ولا تعبث به ريح . وطلبت اليها أن تتلوها فى ساعات معينة

١٦١

من الليل والنهار حتى أتلوها معها ، فتجتمع خواطرنا وترتفع معاً فى ساعة واحدة وفى صلاة واحدة . . . . . . ثم أبلل كل هذا بالدموع ، فتترك الدموع أثرها بين السطور . فيكون هذا الأثر أنطق من السطور نفسها وأبلغ .

ثم كنت أذهب خفية الى البريد فألقى به نخاع عظامى وسواد قلبي ثم أعود رافه النفس خفيف الجسم كأنما ألقيت حملا كان يفدح قلبي ويبهظ حشاى

٥٥

ومهما يكن من جهودى المستمرة فى هذه المعركة الناشبة بينى وبين اللغة العاجزة العصية ، وإعناتى القريحة وهى ملتهبة فتية ، لتلهب رسائلي بنار قلبي الكاوية ولتجتاز نفسى مسكوبة على القرطاس هذه المسافة النائية ، فانى لم أبلغ مدى چوليا فى هذه السبيل ، ولم أستطع أن أجرى معها الى هذه الغاية . فان الجملة الواحدة من رسائلها كانت أبلغ دلالة وأقوى أثراً من صفحاتى الثمانى . فلقد تدنيك من نفسها حتى تجد أنفاسها فى الكلمات ، وترى نظراتها فى السطور ، وتحس حرارة شفتيها فى الجمل . فلا تفقد شيئاً فى نقل الشعور الى اللفظ . ومن عادة هذا النقل أن يخمد الشعور ويذوى

العاطفة فى قلم الرجل . ولكن المرأة ليس لها أسلوب ، فهى لذلك تحسن القول فى كل وجه ، وتبلغ به فى كل غرض . وما الأسلوب الا ثوب، والنفس عارية على لسان المرأة أو فى يدها . فالعبارة عنها تنبعث من العاطفة عارية عرى الزُّهرة ولِدت بنفسها ثم تعجب لأنها ولدت ، وأعجب من عجبها أنها قبل أن تعرف نفسها قد عُبدت !

٥٦

ولا تسلنى عن رسائلها كيف كانت . فماذا عسى أن أقول لك عن الضرَم المتقد ، والضوء الشاحب ، والألوان المتغيرة ، واللهجات المؤثرة، والنار المختلطة بالنقاء ، اختلاط الومض والصفاء فى حجر الماس، والحمية والطهر على جبين الفتاة المحبة ؟ وكيف أحدثك عن السذاجة القوية ، والمناغاة الثرّة ، واليقظة الفاجئة ، والاغانى الشادية ؟ وبماذا أصف لك الحب الحزين الذى تشعر به شعورك بالرجع الخافت فى آخر اللحن الرخيم ، وتلك الملاطفة بالكلمات التى تحسها على جبينك كما تحس انفاس الأم المداعبة على جبهة طفلها الباسم ، وتلك الهدهدة اللذيذة بالصوت الخافت ، والجمل المغمغمة التي تغمرك بالنور والسرور والعطر والدعة ، وتنقلك بالمقاطع المنومة

على رُودٍ ومهل حتى تصل بك الى راحة الحب وغفوة النفس ، وتقف عند قبلة الوداع التى طبعتها شفتها على الصحيفة فتقطفها فى سكون وصمت ؟

لقد وجدت ثانية هذه الرسائل و تصفحتها ورقة ورقة . وجدتها بعد موتها وقد جمعتها ورتبتها وغلفتها يد صديقة تقية ، وقرنت كل كتاب الى جوابه ابتداء من أول رسالة الى آخر كلمة لفظتها المحتضرة وخطتها يد أرعشها الموت وسندها الحب . فأعدت قراءتها ثم احرقتها وانا دامع العين دامى الفؤاد ، بعد أن غلقت الابواب كأنى أهم بجريمة ، وبعد أن نازعت اللهب عشرين مرة على كل صحيفة أكل نصفها لأعيد قراءتها قبل أن يأتى عليها . . . . . . ! ! تسألنى لماذا أحرقتها ؟ أحرقتها لأن رمادها نفسه ما كانت تطيق حرارته الارض فذريته فى الهواء ، وبعثرته فى جو السماء ! !

٥٧

دنا اليوم المنتظر ، وأصبحت أستطيع عد الساعات التى تفصلنى عن جوليا . وكان المال الذي تجمع لى من كل الموارد لا يقوم بنفقتى ثلاثة أشهر أو أربعة فى باريس . فهزت الشفقة أمى ، وهى تنظر الى شجنى وهمى ، دون أن تعرف السبب ، فانتزعت من علبة

جواهرها خاتما ركبت فيه ماسة كبيرة ، وهى وا أسفاه آخر ما أبقاه حنانها على وايثارها اياى من حلى شبابها ! ثم وضعتها خفية فى يدى وهى تقول باكية : « انى ليؤلمنى كما يؤلمك يا رفائيل أن أرى شبابك يذويه الفراغ ، وتبليه البطالة بين خمود القرية وذهول الحقول . لقد كنت أرجو أن المواهب التى جملك الله بها وباركتها فيك منذ الصغر ترفعك فى الناس وتفتح لك طريق الثروة والسؤدد ، ما دام الفقر الذى نصارعه وندافعه لا يمكننا من أن نفتحه نحن لك . والله لم يشأ بعد أن يهيىء لنا هذا الأمر ؛ ونحن خاضعون لأمره ، راضون بحكمه ، لا يخامرنا الشك فى عدله ، ولا يدركنا القنوط من فضله ، فكل أعماله لحكمة . غير انى أراك استسلمت بعد الجهود المخفقة الى الهم فنال منك وغلب عليك . عالج الحظ مرة أخرى ، سافر يا ولدي ما دامت هذه الأرض تحرق قدميك ، وعش فى باريس حينا من الدهر ، واقرع أبواب السراة من أصدقائنا الأقدمين ، فى عزة وتحفظ ، وأظهر مواهبك التى حبتك بها الطبيعة وقواها فيك العمل . ومن المحال أن يغفل رجال الحكومة الجديدة عن تقريب الأكفاء من الشبان ليخدموا هؤلاء الامراء[1] الذين أعادهم الله الينا ، فيؤيدوا ملكهم ويزينوا حكمهم . ان أباك على فقره

---

(١) تريد عودة الملكية بعد سقوط نابوليون .

كابد الأهوال فى تربية أطفاله الستة ، وتحمل مضض الحياة القروية، ولكنه لم يطأطئ من إشرافه ، ولم يهبط من سامى درجته . وبقية أهلك كلهم بررة محسنون ولكنهم لا يريدون أن يفهموا أن لا بد من الهواء للتنفس ، ومن العمل للنفس الشابة النشيطة . دونك آخر حلية من حلي وقد عاهدت أمى ألا أتخلى عنها الا فى الضرورة القاهرة . فخذها وبعها لعلها تساعدك على أن تطيل الأقامة فى باريس بضعة أسابيع . انها آخر شاهد من شواهد حنانى أطرحه فى سُهمة القدر ، وعسى أن يعود اليك بالسعادة والربح ، لأنى طرحت معها كل ما أملك لك من صلاة وحنان وعناية »

فتناولت الخاتم واضعاً على يد أمى قبلة ، وسال كبا على الماسة دمعة ، ثم انفقتها والأسفاه لا فى طلب الحظوة عند الرؤساء والأمراء الذين عموا عنى لفقرى وخمولى ، وانما انفقتها فى ثلاثة أشهر من حياة الوجدان والقلب ، وكل يوم منها يساوى قروناً من المجد والعظمة. لقد كانت لى هذه الماسة المقدسة كلؤلؤة كليوبطرا ذابت فى كأس حياتى فأروتنى حيناً من الدهر بالحب والسعادة

٥٨

على أننى غيرت من طبعى ، وأصلحت من نفسى ، احتراما

لكثرة الضحايا التي بذلتها أمي المسكينة ، وتنفيذا للفكرة التي جمعت كل أفكاري ، واستوعبت جميع أماني،وهي أن أرى الحبيبة وأطيل الأقامة بجانبها ما استطعت . ولا يتسنى ذلك الا بقبض الكف وتضييق النفقة . فأصبحت دقيق الحساب كز الأنامل شديد الحرص على ما أملك من ذهب قليل . وخيل الى أن كل درهم أنفقه انما هو ساعة من هنائي تمر ، ونقطة من حياتي تضيع . واعتزمت أن أحيا حياة روسو على الاعدام أو الاقتار ، فاقطع مما انفق في الأبهة واللباس والطعام ما أبذله في اسعاد قلبي وارضاء حبي .

ومع ذلك ما كنت خاليا من رَوْح الأمل ، فقد كان في مرجوّي أن أستفيد من قريحتي لهواي ، وأستخدم مواهبي في تحقيق مناي . ففي ثلاثة الأشهر المنصرمة أخذت نفسي بقول الشعر في ساعات الأرق ، فوقع لي منه طائفة صالحة من القصائد الغزلية والخيالية جمعتها في ديوان ثم نقلت منه نسخة بخط جميل ، وقرأت بعضه على أبي ، وهو سديد الحكم دقيق النظر فاستحسنه ، وعرضته على بعض صحابتي فحفظوه واستنسخوه . فغلفت هذا الكنز الشعري بغلاف أخضر ، وهو لون الفأل الحسن والرجاء الصالح ، وأخفيته عن أمي مخافة أن يتألم شعورها النقي التقي العفيف من بعض مراثيه التي نحوت فيها منحى الجاهليين لا منحى المسيحيين .

وكان معقد رجائى أن رقة هذه الاشعار وما فيها من الحمية الوثابة ، والمعانى الخلابة ، تغرى بها أحد الطباعين الأذكياء فيشتريها أو يطبعها على نفقته ثم يتركها لذوق الجمهور ، وهو لا شك واجد فيها ما يستهويه من أسلوب طلى جديد نبت فى الغابات ، وتفجر من الينابيع ، فيكون لى من وراء اقباله عليها نباهة فى الاسم ، وسعة فى الثروة

٥٩

لم يكن يشغل بالى أمر السكنى فى باريس ، لأن أحد صحابتى وهو الكنت الشاب (ف) . . قد عاد من رحلته منذ قليل ، وعزم أن يقضى فيها الشتاء والربيع . وقد عرض علي أن أساكنه فى طابق أرضى من قصر ريشليو الفخم فى شارع (نوف سنت أو جستين) وهو عليم بحقيقة أمرى ، واقف على دخيلة سرى ، لأن بينى وبينه مكاتبات متصلة لا تكاد تنقطع . فكتبت اليه كتاب تقدمة الى جوليا ليعرف روح روحى ويعلم معنى عبادتى ان لم أقل هذيانى لهذه المرأة . وما هى الا الزيارة الأولى حتى فهمها حق الفهم وشاطرنى الأعجاب بها والميل اليها . ومضى يصف لى فى رسائله مايشعر به من الاجلال والأشفاق لهذه الفتاة الكاسفة المعلقة بين الحياة والموت لا يمسكها

الا ما تجد لى من الهوى العذرى والحب الدخيل . ولم يفتر عن التحدث عنها الى كما يتحدث عن منحة من منح الله من بها علىّ نوراً لعينى وسروراً لقلبى ، وسبباً من أسباب المجد يرفعنى فوق الانسانية درجات . ولما اقتنع بطهارة هوانا ، وشرف علاقتنا ، اعتبر حبنا فضيلة ، فلم يجد غضاضة فى أن يكون موضع سرنا ، ونقطة اتصالنا . وأخذت چوليا تصفه بصدق الوفاء الى حتى تؤكد بيننا عقدة الصداقة بدلا من توهينها بسخف الغيرة . وكان كل منهما يستعجل قدومى ، وما يعلم أحد غير صديقى ف . . تلك الأسباب الخفية التى حالت بينى وبين القدوم الى الآن . ولكنه على الرغم من اخلاصه الى وحدبه على وايثاره اياى منذ عرفته الى يوم فقدته لم يكن قادراً يومئذ على تذليل هذه العقبة وتفريج هذه الكربة . فان أمه قد أنفقت جل ما تملك فى تربيته تربية تلائم بيئته ودرجته ، وزودته بما بقى منه فى رحلته التى رحلها الى أقطار أوربا . ثم عاد مثقلا بالدين فما فى وسعه الا أن يقدم الى ركنا من مسكنه الذى تحملت أسرته بأجرته

سافرت من ماكون فى مركبة صغيرة حقيرة يجرها جواد واحد يغير فى كل قرية . وهى من النوع الذى يسير بين ليون وباريس لينقل البنائين والعمال من أهل بربونيه وأوفرنى ، ومن

أصابهم الونى من الراجلين ، أو أدركهم الوجى من الجند المساكين، فيرفهون عن أنفسهم بركوبها مرحلة بأجر زهيد . وركبت هذه العجلة دون أن استشعر خجلا أو أحس ألما من ابتذالها وخشونتها. ولو أنى قطعت الطريق حافيا على الثلج لما شعرت ابدا بضعة فى مكانتى ، ولا بنقص فى سعادتى، لأنى أوفر بذلك ديناراً أو دينارين اشترى بهما أياما من حياة الغبطة والنعيم . وصلت باب باريس وما شعرت بلغوب السير ولا وعثاء الطريق . وكان الليل حالك الجلباب ، والمطر دائم التسكاب ، والجو قارس البرودة . فحملت حقيبتى على كتفى ، وذهبت أطرق باب المسكن المتواضع على الكنت (ف) . . فلقيته فى انتظارى ، وما وقع نظره على حتى عانقنى عناقاً طويلا ، ولقينى لقاء جميلا ، واندفع يقص على أخبارها وأنا أستفهمه وأستعيده واستزيده لا أفتر عن ذلك ولا أمل . وفى الليلة نفسها صممت أن أراها . فاتفقنا على أن يزورها (ف) . . ويعلن اليها قدومى ويمكث عندها حتى ينصرف السامرون وتخلو الى نفسها فيأتى الى فى قهوة مجاورة فيذهب بى اليها . ثم فكرت بعد ما دبرت هذا كله أن أجفف ثيابى على المدفأة ، وأسد رمقى على المائدة ، وأرتدى حلة نظيفة لا تكون سبباً فى إخجالها أمام أصحابها

وفى الساعة الحادية عشرة خرجت أنا وصديقى فسرنا على

أقدامنا حتى وقفنا تحت شباكها فوجدنا لدى الباب ثلاث مركبات منتظرات ، وصعد (ف) . . وذهبت انتظره فى القهوة المعهودة . وما كان أثقل الانتظار وأطول الزمن ! ويا كثرة ما لعنت هؤلاء الزائرين الخليين الذين أرادوا أن يقتلوا ساعات من الفراغ فقتلوا غيرعامدين ساعات من الهناء يترقبها قلبان حبيبان ! ثم ظهر الكنت (ف) . . فاندفعت أمشى على أثره حتى بلغ بى الباب فتركنى وصعدت

٦٠

ان أعَمَّر الف سنة فلن أنسى هذه اللحظة ولا هذا المنظر ! ! لقد كانت واقفة فى النور، مرفقها على رخام المدفأة ، وقدها الممشوق وكتفاها وجانب وجهها ينعكس عليها الضوء فتتراءى فى المرآة ، ووجهها متجه الى الباب ، وعيناها محدقتان فى الدهليز المظلم الذى يتقدم البهو ، ورأسها قد امتد قليلا وانحنى الى جانب : هيئة من يحاول أن يميز بالسمع وقع خطوات تقترب. وكانت ترتدى سلابا[1] من الحرير الأسود مزدان الحواشى بالمخرم (الدنتلا) لايشرق فى ظلام هذا الثوب الا كتفاها وجيدها ووجهها . وكان من أثر انعكاس الموقد فى المرآة ، ومناغاة المصباح لخدها من فوق المدفأة ، ويقظة

(١) السلاب بالكسر ثوب الحداد والحزن

الانتظار ، وقلة الاصطبار ، ان انتشر فوق محياها رونق الشباب وبهجة الحياة ، فكأنما غير الحب هيئتها ، وبدل صورتها .

كان أول ما انفرجت عنه شفتاى أن صحت صيحة الفرح والغبطة ، إذ رأيتها أوفر حياة وأوفى جمالا وأسمى كمالا منها أيام كانت تتقلب فى شمس سفوا وتمرح تحت سمائها الضاحية الجميلة . وحاولت هى أن تغمغم ببعض الكلام حين رأتنى فاضطربت شفتاها وما استطاعت . فخررت على قدميها وألصقت فمى بالبساط ، ثم رفعت جبينى لأنظر اليها وأطمئن عليها مخافة أن أكون فى حلم . فوضعتُ احدى يديها على شعرى المرتعد واستندت بالأخرى على زاوية الرخامة ، وجثت هى أيضاً أمامى على ركبتها ، نتخاطب بالنظرات فلا تكفى ، ونتلمس الكلمات فلا نجد . لقد انعقدت السنتنا من فرط السرور ، واضطربت اعصابنا من شدة التأثر ، فبقينا صامتين لا لغة الا هذا الصمت ، ولا حركة الا هذا السجود . فاما سجودى فلئه العبادة ، وأما سجودها فلئه السعادة . وكأنما تنطق هذه الهيئة قائلة : « انهما يتساهمان الحب بالقلب ، ويتساقيان الهوى بالنظر ، ولكن بينهما شبح الموت ، وحجاز الواجب ، فهيهات أن يتعانقا ! »

٦١

لا أدرى كم دقيقة لبثنا على هذه الحال ، ولا كم سؤال وجواب وعبرة وفرحة تطارحناها بالشفاه ، وتجاذبناها بالعيون ، وتبادلناها بالوجوه ! لقد أصابتنا السعادة بالصمم والبكم والسكون ، وانمحى من حولنا الزمن بأسره ، حتى سمعنا طرقا على الباب ، وأقداما تصعد فى السلم ، فنهضنا وأخذت هى مكانها من الكنبة ، وجلست أنا فى الجهة المقابلة ، متسترا بالظلام لأخفى احمرار وجنتى ، واخضلال جفونى : ودخل الغرفة رجل متقدم السن ، شديد الهيبة ، وقور الهيئة ، نبيل الطلعة ، مشرق الديباجة ، يخطو خطوات ثقيلة حتى دنا من الكنبة فقبل يد چوليا قبلة أبوية . كان ذلك الزائر الاستاذ بونال ، ولا أذم مجيئه لأنه أفاقنى من نشوتى وأعادنى من ذهولى ، بل أحمده لأنه صد النظرة الأولى فى الساعة التى يثمل فيها القلب من رحيق الحب ، ويذهب رشاد العقل فى ضلال الهوى . لقد كانت ساعة دخوله من الساعات التى تحتاج فيها النفس الى ذلك الثلج الذى يلقيه أمثال هذا الحكيم على لهيب الحواس فتستعيد صادق عزمها ، وتسترد ما ذهب من حزمها

٦٢

عرفتني چوليا الى السيدونال، وعرفته انى صاحب الأشعار التى قرأها . فدهش لحداثة سنى، وقابلنى بشىء من الاغضاء والتسامح، وأقبل على الفتاه يناقلها الحديث بذلك التبسط الأبوى الذى يكون فى شيخ استفاضت شهرته بالنبوغ، وأشرقت نفسه بتقدم السن، جاء يلتمس من جانب هذه الفتاة شعاعا من الجمال يضىء به عينه، وساعات من السمر العذب يختم بها يومه. كان صوته هادئاً عميقاً، لأنه يصدر عن قلبه وينقل عن شعوره، وكان حديثه مرسلا طليقاً، لأنه يترجم عن فكرا سترخى ليستجم ، وكانت نبرات الشرف الصميم تتمثل فى لهجته، ودلائل الخلق العظيم ترتسم على جبهته . وامتد بينهما نفس الحديث، وأوشكت الساعة أن تؤذن بانتصاف الليل، فرأيت من الواجب أن أخرج أولا حتى لا أدع لهذا الصديق سبيلا الى الريبة فى هذه الألفة القوية، وهو فى هذا البيت أوثق منى صلة وأسمى منزلة. خرجت وما نلت جزاء على هذا الانتظار المحرق والسفر المرهق الا نظرة وصمتا . على انى نلت رؤيتها، وحملت صورتها، وتأكدت انى سأراها كل يوم، وليس هذا بالشىء اليسير. خرجت على وجهى فهمت طويلا على ارصاف

باريس ، وبى من حمى السعادة ورعدتها مابالمرجل الفائر ، فكشفت صدرى وفتحت فمى لنفحات النسيم النديّ عسى أن يطفئ حرارة قلبي ، ويهدئ ثائر أعصابى . ثم عدت الى مسكنى فوجدت صديقى (ف) . . يغط فى النوم منذ ساعات طويلة . وبت أنا أعالج النوم وأتملقه فما اطمأن لى نافره الاحين تبلج الصبح ، وملأت أصوات الباعة شوارع المدينة

٦٣

كانت هذه الأيام أملأ أيام حياتى ، لأنها لم تعد غير فكرة طويت عليها أحناء الصدر كما تطوى على المسك نافجته مخافة أن يتعرض للريح فتتبخر منه قطرة . كنت أستيقظ من نومى عند تباشير الصباح فأفتتح نهارى بكتابة رسالة ضافية الى جوليا استعيد فيها حديث البارحة والرأس مستريح والأعصاب هادئة ، فأعقب عليه ، وأتناول ماسنح لى من الافكار بعد تركها فأضيفه اليه . فكانت تتلقى هذه الرسالة لدى يقظتها كأنها تكملة لحديث الليل باتت تسمعها بصوت خافض وهى نائمة . ثم تكتب الجواب فيصل الى قبل بلوغ الشمس حد الظهيرة . وبذلك كانت تبرد جوانحى ويهدأ قلبي من ثائرة الليل . ولكن الشوق الى لقاء المساء وحديثه لا يلبث أن

تتحرك عوامله ، فأحاول تسكينها بالشواغل ، وتعليلها بالمنى ، وأرغمت نفسى على المطالعة والدرس والعمل ساعات طوالا ، أريد بذلك أن أقتل الوقت الذى يكر بنى ما بين فراق جوليا الى ساعة لقائها ، وأن أهذب نفسى واكملها من أجلها لا من أجل غيرها ، فانى أحب الا تخجل يوماً مامن تفضيلها إياى على سواى ، وأن أولئك الاعلام الذين يغشون نديها ، ويبصروننى أحيانا فى بهوها ، واقفاً بجانب المدفأة ساكتا ساكنا كأنى أبو الهول أو تمثال التأمل ، يجدون اذا ما وجهوا الىّ الكلام عرضاً تحت سكونى الرهيب وحيائى المريب نفساً وذكاوة وأملا ومستقبلا . ثم ثارت فى نفسى احاديث المنى ووساوس الأحلام فتخيلت انى بنيت خطط المجد ، وأدركت خطير المساعى ، وغالبت الدهر فى الميادين الظاهرة . فبت وأصبحت كأنى ورقة من أوراق الشجر انتزعتها عاصفة من حديقة أبى ثم سمت بها فوق متون الهواء ، ورأيت جوليا قريرة العين إذ ترانى على البعد أصارع الدهر وأناضل الناس وأسمو فى القوة والعظمة والفضيلة ، فتفتخر بانها أول من رأى مخايل ذلك فىّ ودلائله علىّ

٦٤

كل ذلك فضلا عن العطلة القاهرة والفكرة الواحدة التى

شغلتني عن كل فكرة ، والفقر المدقع الذى غل يدى عن كل مشغلة ، والمحبس الذى اعتقلت فيه عن رضا وطواعية ، قضى على بأن أحيا حياة درس و تنقيب ومطالعة . فكنت أقضى عامة اليوم جالساً الى منضدة صغيرة تنيرها كوة مطلة على الفناء ، ويدفئها موقد من الفخار المدهون . ثم يستر تلك المنضدة وذلك الكرسى عن عيون السراة من زوار صديقى حجاب ساتر . وكانت تتجاوب فى أفق ذلك الفناء الواسع اصداء العربات ، وتنعكس فيه أضواء الشمس وهى تصارع الضباب الزاحف فى شوارع باريس . وكنت أرى فيه الحين بعد الحين صبيا جميلا فى الثامنة أو العاشرة من عمره يلعب فيه وهو ابن البواب ، فذكرنى رأسه الشبيه برأس الملك الموجع ، وشعره ذو الطرة الجعدة السابلة على الجبهة ، وسحنته الدالة على النجابة والحساسة ، بمحيا الاطفال البررة من أهل بلدى . فلا ريب أن أسرته من قرية مجاورة لقرية أبى عدا عليها الفقر فلاذت منه بباريس. وكان من أمر هذا الغلام ان اتصل الود بينى و بينه من طول ما يرانى فى النافذة التى فوق مسكن أمه . فجعل نفسه فى خدمتى وكفانى كل ما أحتاج جلبه من الخارج من غير أجر . فكان يأتى الىّ كل صباح بطعام اليوم من خبز وجبن وفاكهة ، فأنال منه عند الحاجة فوق المكتب بين الكتب المبعثرة والصحف المنشرة . وكان

١٧٧

للغلام كلب أسود نسيه أحد النازلين فى الفندق ، فكانا متلازمين لا يفترقان حتى أنس الكلب بى واطمأن الى وألفنى الفه لصاحبه. فكنت تراهما اكثر اليوم نائمين أو لاعبين بين قدمى على الحصير تحت المنضدة. فلما تركت باريس فى مؤتنف الزمن أخذت الكلب معى واحتفظت به أعواما طوالا تذكارا مخلصاً وفيا لهذا العهد عهد الاعتكاف والخلوة. ثم فقدته وبكيته عام ١٨٢٠ وأنا اجتاز غابات (بونتين) بين روما وتراسين. أما الغلام فقد كبر واحترف صناعة الحفر وتعاطاها فى ليون موفقا فيها. ولما رن صيتى فى مسمعه، ووصل اسمى الى مصنعه، جاء يزورنى. وما كان أشد سروره برؤية صديقه، وأمض حزنه على فقد كلبه! مسكين قلب ابن آدم! كل ما يحبه مرة يصبح ضرورة له، سواء فى ذلك ما قل وما جل! والدموع التى يذرفها على ضياع مملكة هى من نوع الدموع التى يذرفها على فقد حيوان!!

٦٥

فى ألوف الساعات التى قضيتها معتقلا بين الموقد والحجاب والنافذة والصبى والكلب، أعدت قراءة ما كتب الأقدمون من علم وأدب، ماعدا أولئك الشعراء الذين اتخمونا بشعرهم فى المدرسة فلم تستطع عيوننا الكليلة أن ترى منه الا الوزن والطول والقصر:

ويكون من أثر ذلك ان يقوم بنفس الطفل اشمئزاز باكر يذوى فيها أنضر ما أنبتته القرائح البشرية من زهر وعطر . قرأت كل الفلاسفة والخطباء والمؤرخين فى لغاتهم ، واختصصت باعجابى وايثارى من اجتمعت فيه هذه الملكات الثلاث : الحكاية والأداء والبحث . أو الحدَث والحديث والمغزى . وكان السبق والقدم فى ذلك لتوسيديد وتاسيت ، ثم لمكيافلى الخبير البصير بأدواء الشعوب والممالك ، ثم لشيشرون ذلك الوعاء الرنان الذى يحتوى كل شىء : من العبرات السافحة من جفون الرجل والزوج والأب والصديق ، الى النكبات الجائحة التى ضعضعت روما وزعزعت بناء العالم ، الى ما أصابه هو من عنت الدهر وصروف القدر. فشيشرون أشبه بمرشّح استقرت فيه هذه الحياة ثم راقت وانجلت عن فلسفة عالية ، وحكمة صافية ، تتراءى فى جوانبها نفسه الكبيرة فياضة بالبلاغة والحكمة والرحمة والانسجام . وكنت أظنه قبل الآن ثرثاراً أجوف يضع المعانى الضئيلة فى الجمل الطويلة ، فأدركت الآن خطأى وضلال حكمى . إنه الرجل الالهى فى القدماء بعد أفلاطون . أسلوبه أبرع الأساليب فى كل اللغات . تحسبه هزيلا لأنه ملفف بأحكام ودقة ، فاذا نضوت عنه هذه اللفائف بدت لك النفس الكبيرة التى أدقت الحس ، وأحسنت الفهم ، وأجادت القول فى كل ما يحس ويفهم

ويقال فى روما على عهده

٦٦

أما تاسيت فلم انازع هواى فى الميل اليه والتعصب له . لقد فضلته حتى على توسيديد. وهو ديمستين التاريخ، لأن توسيديد أقوى على عرض الصور منه على إحيائها وتمثيلها . وتاسيت أولى أن يسمى مختصر الجنس البشرى لا مؤرخه : حكايته ردةُ الحادثة وصداها فى قلب رجل حر فاضل حساس ، والقشعريرة التى يختلج لها جبين قارئه لا تهز الجلد وحده ، وانما تهز الجسم والنفس معا . حساسته أقوى من تأثره وتلك هى الشفقة ، وحكمه أقوى من انتقامه وذلك هو العدل ، وسخطه أقوى من غضبه وتلك هى الفضيلة. تمتزج روح القارئ بروح تاسيت و تتحد ، فيتيه بهذه الصلة ويفخر بتلك القرابة . فاذا أردتم أن تطهروا قلوب ابنائكم من رجس الجريمة ، وتحركوا فى نفوسهم عوامل الفضيلة ، فأقرئوهم تاسيت وغذوهم بأدبه . فاذا لم يصيروا بعد ذلك ابطالا فاعلموا أنهم خلقوا بطبيعتهم فجارا ، لأن الشعب الذى اتخذ من تاسيت انجيلا لساسته سما فوق الشعوب وشأى كل الممالك . أما أنا فمدين لهذا الكاتب لا بألياف لحمى ، ولكن بأسباب كيانى ونوازع نفسى . فاذا أصبح عصرنا

الصعلوك المفلوك فى عظمة عصره وفجيعته ، وأصبحت أنا أكرم ضحية فى أكرم قضية ، فسأقول وأنا اريق بنفسي : ردوا شرف حياتى وشرف موتى للاستاذ لا للتلميذ ، فان تاسيت هو الذى عاش باسمي ومات فى جسمى

٦٧

وأنا بالخطباء كذلك مولع . درستهم دراسة من يعد نفسه لخطابة الجماهير الصم . فهو يدرس أولا معازف الانسانية ومطربيها أمثال ديمستين وشيشرون وميرابو ، ولا سيما اللورد شاتام [١] أقربهم فى رأيي لذوق العصر ، وأملكهم لأعنة القلب ، لأن خطابته الالهامية الوجدانية أولى أن تسمى صرخة لاصوتا . إنها تتعدى حدود الحفل وتتجاوز أغراض الزمن طائرة على أجنحة الشعر الى عالم الحقيقة السامية والعواطف الباقية . ان شاتام يتلقى الحقيقة من يد الله فيجعل منها نورا للهدى ، وصواعق للجدل . ولكن وا أسفاه لم يبق منه الا ما بقى من فِدْياس فى بريتون : أنقاض وأشلاء ! على أن هذه البقايا المحطمة اذا أعاد بناءها الفكر

(١) اللورد شاتام (١٧٠٨ — ١٧٧٨) أحد رجالات انجلترا ونوابغها فى السياسة والخطابة والحكم . وقد اكتسب ملكة البلاغة وقوة اللسن من كثرة ماقرأ من نماذج القدماء

أخرج منها للناس صوراً ساحرة من البلاغة

لقد صورت لنفسى مثال ما بعث هذه الروح فى هؤلاء النوابغ من زمن وظروف وأهواء ومطامع و(فورم)، ثم أخذت أكلم الجموع الحاشدة فى نفسى، والأشباح الماثلة فى خيالى، كما كان ديمستين يكلم أمواج البحر

٦٨

قرأت لأول مرة فى هذا العهد خطب (فكس) و (بِتْ)، أما فكس فوجدته خطيباً سوقيا جدليا خلق للمعارضة لا للقول، ومحامياً ألدّ الحجاج وضع ضميره فى صوته، ودافع للشهرة قبل أن يدافع للحق. وأما بت فقد وجدته رجل الحكومة، فكلماته عقود، واشاراته عهود. وقد استطاع وحده أن يمسك بلاده حين تدهورت أوربا على دعائم من رصانة عقله، وعماد من متانة خلقه. فبِتْ كاد يكون ميرابو لو لم يتميز الأول بالانصاف والثانى بالتوثب. وقد أصبح هذان الرجلان منذ يومئذ أكبر ساسة العصر فى عينى، وأجلهم موقعا من قلبى. واذا قست غيرهم عليهم وجدت (منتسكيو) علامة بحاثة وقياسياً حاذقا، و(فنلون) الهيا خيالياً يتعلق بخيوط الوهم، ويستمسك بحبال الهباء، وروسو طبيعياً ينقل عن أحلامه، اكثر

مما ينقل عن الهامه ، فهو فى معاناة السليقة ، أقوى منه فى معالجة الحقيقة . ووجدت لبوسويه لسانا من ذهب ، ونفسا من رياء وملق ، فاجتمع له من لسانه وفؤاده وصفان متضادان فى حضرة لويس الرابع عشر : استبداد أهل الدين ، ومصانعة رجال البلاط

انتقلت بطبيعة الحال من التاريخ والخطابة الى السياسة، فكان شعورى بذل القيد وفداحة النير الذى رفع عنا منذ قليل بزوال الأمبراطورية وفظائع النظام العسكرى الذى كنا نعانيها منذ طويل كان يدفعنى الى الحرية . ولكن ذكريات الأسرة ، وتأثيرات الصداقة ، والحال الأليمة التى كانت عليها الأسرة الملكية من الانتقال من العرش الى المشنقة ، ومن المنفى الى العرش ، وأولئك الشيوخ الذين توجهتهم الأرزاء كما توجهتهم الآباء، وأولئك الأمراء الذين تبعث فيهم حمية الشباب وحرارة المصاب روح الأمل فى كل شىء ، كل ذلك حملنى على الرغبة فى التوفيق بين الحرية والملكية ، فوددت أن العرش التالد والحرية الطارفة يتصالحان فى هذه المملكة ، فيتم للحكومة بذلك التوفيق نفوذ القدم ونفوذ الحدوث ، أو قوة الذكرى وقوة الأمل .

تلك كانت أمنية نفسى وأحاديث أحلامى فى ذلك العهد . ولكن الأيام مافتئت تبدد جزءا من هذا الحلم فى كل صباح حتى انجلى

١٨٣

عن هذه الحقيقة المؤلمة ، وهى أن النظم القديمة لا تتحمل الآراء الحديثة ، وأن الملكية والحرية لا يمكن أن يجمعهما ظل الا بالمشادة ، وأن هذه المشادة تستنفد قوة الدولة ، وأن الملك سيظل دائما متهما ، والحرية ستكون ابدا مخونة

٦٩

ثم عدوت هذه الدراسة العامة الى دراسة أخرى شغلت فراغى وغلبت على فكرى ، مع أنها بطبيعتها أجدب وأجف وأبرد وأبعد من قلب فتى سكر بخمر الخيال والحب ، أعنى دراسة الاقتصاد السياسى أو علم ثراء الأمم . وكان (ف) قد وجه اليه باله وأخلى له ذرعه ، فترى كل ما كتب عن هذا العلم فى الايطالية والانجليزية والفرنسية مبعثرا على موائده ورفوفه

فعكفنا على هذه الكتب نقرأها ونناقشها ونعلق عليها بما عنّ لنا فيها ، فصغت قلوبنا الى هذا العلم الذى كان بالأمس ولا يزال الى اليوم يقرر من المبادئ اكثر مما يقرر من الحقائق ، ويضع من المسائل اكثر مما يضع من الحلول . ووجدنا فيه فضلا عن ذلك موضوعا للحوار الدائم والحديث المسلسل الذى تمضغه الألسنة ولا تشعر به الأفئدة ، وتشتغل به القريحة دون أن تعبأ به النفس ،

ويسمح لك وأنت تسرده أن تشعر بما وراء قلبك من فكر مضمر وخاطر مستتر. فالحديث عن هذا العلم كالحديث عن الالغاز والمعميات، يروقك أن تبحث عن حلها ولا يهمك أن تجد. ثم حسبتني بعد المطالعة والمناقشة والتعليق أستطيع أن أميز بعض أصول هذا العلم النظرية، فاذا بى لا أستطيع الاجابة عن شىء، واذا بغريزة الوضوح فى نفسى غير قانعة ولا راضية. فرميت بالكتب عند قدمى وانتظرت النور. إن هذا العلم لم يزل فى طوره الأول، وهو من العلوم التجريبية لا بد له من عصور تمر ودهور تتعاقب. فالأعوام القليلة التى عاشها لم تبلغ به حد النضج، ولم تضمن له قوة التأكيد. إنه يمنى ولاة الأمور ببعض القواعد التى تقيم أود النظام، وتشد أواخى الصلات بين الأنام، وتضمن للأمم الرخاء والأخاء والسلام

٧٠

تلك كانت شواغل أيامى، وموضع فكرى واهتمامى، لا أرغب معها فى شىء، ولا أطمع بعدها فى حاجة. وما كانت رغبتى فى تولى منصب من مناصب الدولة صادرة عن نفسى ولا مترجمة عن هواى، وانما نشأت فى اطاعة لارادة أمى المسكينة، ومخافة أن أنفق ماستها دون أن ترتجع منها رجعة صالحة فى تحسين حالى واصلاح أمرى.

وقد كان من الممكن حينئذ أن يجدوا لى سفارة فأترك باريس، ويبوئونى قصراً فأنجو من هذه الغرفة الحقيرة ، لولا أنى تعاميت حتى لا أرى أبهة الجاه، وتصاممت حتى لا أسمع وسوسة الثروة، ووجدت السعادة الكاملة فى أن أعيش فى ظلامى على ذلك الشعاع الذى لا يدركه الناس بينما هو يضيء ليلى ويشعله

كانت سعادتى تشرق حينما تغرب الشمس، فأتعشى عادة وحدى فى غرفتى على قطعة من الخبز وقدة من اللحم المسلوق متبلة بالبقدونس وشيء من سلطة البقول . ثم لا أشرب الا الماء القراح توفيراً لثمن النبيذ ، فكنت اتكلف لهذا العشاء الذى كان يكفينى ويكفى الكلب الذى ألفنى عشرين صالديا . حتى اذا طعمت استلقيت على سريرى استجماما من الإعياء واختصاراً لساعات الليل التى لا بد أن تمر قبل أن تحين ساعتى و تبتدئ زيارتى ، وهى الساعات التى ينفقها الشباب فى المسارح والمواخير كدأبى أيام كنت خليع العذار من الصبابة والعمل . ثم أستيقظ فى الساعة الحادية عشرة فألبس لباس فتى محتشم يرى فى رشاقة قده ونضارة وجهه وتموج شعره غُنية عن الزينة : حذاء نظيف، ووشاح أبيض، وحلة سوداء نقية من الغبار مشدودة الازرار الى موضع البنيقة كحلل التلاميذ فى العصور الوسطى، ثم معطف عسكرى مرسل الثنايا على الكتف الأيسر يصون الثوب

١٨٦

من دنس الطريق . ذلك كان لباسي ، وهو كما رأيت ساذج قاتم لا ينم على دخيلتي ، ولا يكشف عن حقيقتي ، ولا يشف عن سعة ولا ضيق ، وانما يسمح لى أن انتقل من خلوتى الى جنتى دون أن أجذب الابصار الى ما تستملحه أو تستقبحه . ثم أقطع المسافة على قدمى ، لأن أجرة المركبة تحرمني يوماً من حياتى . كنت أسير الهوينى فوق الأفاريز وتحت ظلال الجدر اتقاء لمطر السماء ووحل الطريق ، وحذراً من أن ينم قذر ردائى ووحل حذائى عن مجيئى ماشياً . على انى ما كنت عجلان ، لأنى أعلم أن جوليا كانت تستقبل كل مساء أصحاب زوجها فى البهو أو فى الحجرة ، فكنت أفضل الانتظار ريثما تنصرف آخر مركبة من أمام البيت ، حتى لا ترتاب العيون فى هذه الزيارات الليلية من فتى مجهول لفتاة جميلة ، وحتى لا يشاطرنى الخليون كلماتها و نظراتها وهى مضطرة أن تعدل بين السامرين وتعمم السمر . لقد كان يخيل الىّ اذا ما جالستها فى جماعة أن كل أمرئ منهم يسلبنى جزءاً من حضورها ، وشعاعا من نورها ، ويكون أهون علىّ أحيانا ألا أراها من أن أراها وأسمعها وهى غير خالصة لى من دون الناس

٧١

كنت أنفد هذه الساعات وأنفقها فى الذهاب والإياب على

جسر من جسور السين قبالة بيت جوليا . ولا تسلنى كم مرة عددت الواح هذا الجسر فى كل ليلة ! ولا كم قطعة من النقود النحاسية القيتها فى طبق السائل الكفيف الذى ألجأه الثلج أو المطر الى سور هذا الجسر ! لقد كنت أرجو بفضل هذه النقود التى ترن فى قلب هذا البائس أن يستجيب الله دعائى ويحقق رجائى فيعجل بانصراف زائر ثقيل يؤخر أوان سعادتى ويكدر صفاء ليلتى. وكانت جوليا قد عرفت منى النفور والامتعاض من رؤية الأباعد عندها ، فاتفقنا على أشارة تدلنى من بعيد على وجود الزائرين أو عدمهم . فاذا ما أغلقت مصراعى النافذة معاعلمت أن الهوغاص بالسامرين ؛ واذا أغلقت مصراعا وفتحت الآخر دلتنى على وجود زائر أو اثنين لايلبثان أن ينصرفا ؛ فاذا روح السمار وخلا السامر فتحت المصراعين وهصرت الستور ورأيتها من الشاطئ الآخر تجلس الى منضدتها تقرأ أو تكتب منتظرة قدومى . فكان هذا النور المنبعث من النافذة قيد عيانى لا أحول بصرى عنه ولا أرده . وكان على ضآلته وخفوته أسطع فى عينى من الأنوار المنبعثة من الشبابيك والمصابيح والحوانيت والمركبات والقهوات ، بل كانت هذه الاضواء تفنى وتمحى من عينى فلا أرى مصباحا فوق الأرض ، ولا كوكبا تحت السماء ، غير هذا الشباك الصغير المستدير يرسل نوره الى عينىّ كين تحدق

فى وتبحث عنى فى هذا الظلام، فتجذب اليها أنظارى وأفكارى ونفسى

ايه أيها الانسان ! ما أغرب أمرك وأعجب حالك ! أحيانا يتسع أملك وينتشر هواك حتى يضيق عنهما البر والبحر والسهل والوعر ، وأحيانا ينحصران ويتجمعان فى نقطة صغيرة منيرة تلمع فى ضباب النهر ، وتسطع فى خلال الأضواء الوهاجة فى المدينة الصخابة العظيمة ! ! ولطالما رددت ذلك فى نفسى وأنا أسير الهوينا فوق جسرى المظلم ! وكم طلبت الى الله وأنا أراقب هذا النور البعيد أن يطفىء مصابيح الأرض ، ويكور نجوم السماء ، فلا يدع غير هذا النور الضئيل ، وهو نجم حياتين وروح نفسين مرتبطتين . ولو أنه فعل لكفى هو فى رأيى أن يضىء هذا الوجود وينير هذا العالم . ولكن وا أسفاه ! لقد رأيت هذا النور منذ يومئذ، تخبو اضواؤه وذلك الكوكب الذى أشرق فى حياتى يخفت لألاؤه ، فخمد لذلك شبابى، وغشيت عينى، وأظلم قلبى! رأيت المصراعين يغلقان أعواماً طوالا على ظلام الغرفة الحزينة ، ثم رأيتهما يعودان فينفتحان يوماً من الأيام ، فاطلعت لأرى من ذا الذى استطاع أن يعيش حيث كانت تعيش . فرأيت فى يوم من أيام الصيف على حافة هذا الشباك الذى يغمره النور ، وتزينه الزهور، فتاة لا أعرفها قدجاءت

١٨٩

بين ذراعيها مولودا تضاحكه وتناغيه وهى لا تدرى أنها ترتع وتلعب فوق ضريح ، وأن بسماتها تتحول في عين بعض المارين الى دموع ، وأن هذه الحياة التى تحياها سخرية من الموت وهزؤ بالقدر! ثم تعودت أن أغشى هذا المكان بالليل، ولازلت الى الآن أغشاه فادنو من الحائط بخطى الخائف ، وألمس ذلك الباب ، وأجلس فوق المقعد الحجرى ، وأنظر الأنوار ، وأتسمع الأصوات ، ثم أتصور أنى أرى مصباحها ، وأسمع نبرات أصواتها ، وانى ذهبت فقرعت الباب ، وانها كانت تنتظرنى ، وانى صعدت اليها ودخلت عليها ! أوه ! ! واهاً لك ايتها الذاكرة ! أنعمة أنت من نعم الجنة أم نقمة من نقم السعير ؟

. . . .

ولكن عفواً يا صديقى ! سأعود بك الى مساق حكايتى مادمت تريد

٧٢

كانت جوليا قد عرّفت بى شيخها ثانى يوم قدومى الى باريس فلقينى لقاء الوالد لولده الغائب ، لأنه عرف من قبل ما كان من تلاقينا فى سفوا ، وما تبع ذلك من عهد الأخوة وتوثيق عرى

المحبة بائتلاف الهوى والسن والعاطفة ، ووقف على ما تبادلناه كل يوم من الرسائل ، وتناقلناه كل ليلة من الأحاديث ، وعلم نقاء حبنا الخارق للطبيعة على رغم الصلة الوثيقة والشباب اللجوج . ولقد كان شغله الشاغل وقلقه الشديد على سعادة ربيبته وسمعتها وسلامتها . وكان يخشى أن تخدعها النظرة الأولى فتهب قلبها لمن لا يحسن فهمه ولا يستحق عطفه . فلما قرأت عليه نبذا من رسائلي اليها قر باله قليلا وسكن . ولكنه عند ما رآني قرأ ولا بد سطور الاخلاص على محياى ، وتوسم مخايل العفة فى أسرار وجهى ، لأن اللسان ربما وصف الكذب ، وأما الوجه فلا يقدح فى صدقه . تقدنى الشيخ بنظره وخصنى بالعين القلقة والنظر المختلس ، فكلما أدام النظر وأكثر السؤال تطلق وجهه ، وتفتحت عينه ، واطمأنت نفسه ، ومال الىّ يلاطفنى بالنظرات وهى أفضل وأجمل من الكلمات فى المقابلة الأولى . وكانت رغبتى الشديدة فى نيل رضا الشيخ ، والحياء الطبيعى الذى ينال الشاب فى مثل هذا الموقف ، وحضور جوليا بجانبى ، كل ذلك كان له أثر ظاهر فى هيئتى الوديعة ، ووجنتى المحمرة ، ونظرتى الحيية ، فكان لسان حالى أفصح دلالة عنى من لسانى ، وأبين عن دخيلة نفسى من بيانى . فأخذ الشيخ يدى وأقبل على يقول بلهجة الوالد الحنون : « خفض عليك جأشك ياسيدى فقد ظفرت

فى هذا المنزل بصداقتين بدلا من واحدة . وما كان فى الامكان أن يوجد خير منك أخاً لچوليا وولداً لى » ثم قبلنى وأخذ يتحدث الى كانه يعرفنى منذ الطفولة حتى دقت الساعة عشرة فأقبل خادم كهل فأخذ بيد الشيخ وانطلق به على عادته كل ليلة الى مخدعه

٧٣

كانت شيخوخة هذا الرجل جميلة نبيلة ليس وراءها مطمع ولا مطمح غير ضمان الدهر وأمان الغد . كانت شيخوخة نزيهة أبوية ، لا يقذى العين ولا يؤذى النفس أن تُرى بجانب هـذا الشباب النضر . نعم إنها أشبه بظلال الليـل على وضح الصباح ، ولـكنها ظلال حامية واقية لا تذوى هذا الشباب ولا تزرى بهذا الجمال

كانت لهذا الشيخ الجليـل ملامح مطردة منتظمة كخطوط القطاعات الجانبية فى الأبنية الأثرية يدقها الزمن قليلا دون أن يفسدها ، ونظر وديع ثاقب لعينين زرقاوين عبث بهما الـكلال والجهد فهما تنظران من وراء ضباب لطيف ، وفم رقيق كأنه نصف كلمة ، ضاحك كبسمة الأب لأطفاله ، وشعر كزغب البجع فى رخوصته وتكسره ، قد أشعل فيه الشيبَ طول الدرس وتقـدم السن ، ويدان معروقتان بيضا وان كيدى تمثال سنيكا المرمرى وهو

يجود بنفسه مودعاً بولين ، ووجه ظمآن أعجف شاحب اللون من طول ما كد عقله ، لا تجد فيه تغضنا ولا تضمرا ، لأن السنين عرقت عظمه وأذابت شحمه ، اللهم الا أوردة زرقاء نازحة تتلوى على صدغه الأسجح ، وجبين زاهر نحته الفكر وصقله الرأى فانعكست عليه من الموقد أضواء اللهب وهو آخر ما بقى من جمال الرجل ، وخد رفاف البشرة شفاف اللون لأنه شاخ فى ظلال البيت فلم تلفحه ريح ولم تسفعه شمس ، وكلام نضيج مختمر يرسله فى جمل مختصرة مشرقة دقيقة مرن عليها لطول ماعانى من اختيار الصور الكلامية لما يقول ويكتب . يقطع كلامه بالصمت الى فقر منتظمة كأنما يمهلها حتى تمرق من اذن السامع الى ذهنه ، ثم يمزجه بالدعابة الحلوة والهزل الرقيق تخفيفاً من ثقل الجد ودفعا لسآمة السامع

٧٤

لم تمض بضعة أيام حتى أشربت محبة هـذا الشيخ الظريف الكيس . ولو تنفس بى العمر الى عهد الشيخوخة لما تمنيت الا أن أكونه . غير أن شيئاً واحداً فيه يؤلم نفسى ويفت كبدى كلما رأيته . ذلك أنه يسير الى الموت بخطى هادئة وهو لا يعتقد بالخلود ولا يؤمن بالبعث ، لأن طول عهـده بدراسة العلوم الطبيعية عود

١٩٣

فكره ألا يحكم الا بالحس والا يصدق غير الواقع . فما لا يحس لا يعترف بوجوده ، وما لا يحصر ولا يعد لا يقوم عنده الدليل على ثبوته ، فالمادة والرقم هما فى رأيه العالم . . فإلهه الاعداد ، ووحيه الظواهر ، وانجيله الطبيعة ، وفضيلته الغريزة . وما علم أن الاعداد والظواهر والطبيعة والفضيلة ليست الارموزا هيرغليفية على ستار الهيكل معناها المتفق عليه هو الألوهية . ذهن متوقد ذكى ولكنه عنود شرود ، يصعد فى سلم العلوم بمهارة وحذق ، حتى اذا بلغ الدرجة العليا التى تؤدى الى الله وقف وحرن ! !

٧٥

وكذلك الشيخ لم يلبث أن صفا الى بوده ، وأقبل على بوجهه ، وتطوع أن يعطينى من صبح الى صبح دروسا فى العلوم العالية التى طيرت فى الناس شهرته ، وأوجبت الآن راحته . فكنت آتيه الحين بعد الحين فى مكتبته صباحا فاجد چوليا قد سبقتنى اليها ، فيكون لثلاثتنا منظر نادر مؤثر : شيخ جالس بين أكداس من الكتب العلمية والفلسفية التى استوعبت نتاج العقول وثمار القرائح ، واستنزفت أيامه فى حل رموزها وفتح كنوزها ، وشاب واقف وراءه يقبس منه أنوارها ، ويأخذ عنه أسرارها ، وفتاة نضرة الشباب رائعة

الجمال تمثل الفلسفة المثلية والحكمة العاشقة ، وتؤدى واجب التلمذة للشيخ وواجب الزمالة للفتى. فهى تحضر الكتب، وتقلب الصفحات، وتشير ببنانها الوردى الجميل الى الفصول . فعلمت وفهمت فى قليل من الأيام ما لم أعلمه وأفهمه فى كثير من السنين . ولكن عاهات الهرم الملازمة كانت كثيراً ما تقطع هذه المحادثة ، وتحرمنا هذه المدارسة

٧٦

ولكننى واظبت على المجيء فى كل عشية أقضى هزيعا من الليل مع تلك التى أصبحت فى نظرى هى الليل والنهار والدهر والخلود . كنت أغشى بيتها كما قدمت لك حين يخلو منتداها من السامرين . وكان يتفق أحيانا أن أمضى الساعات الطوال على الجسر أو فوق الرصيف واقفاً مرة وماشياً أخرى انتظر انفراج المصراعين أحدهما أو كليهما عن ساعة اللقاء . وكأين من موجة من أمواج السين البطيئة المتخاذلة شيعتها بنظرى حتى توارت فى عيون الجسر حاملة معها أضواء القمر الخفاقة ، أو أنوار الشبابيك البراقة ! ! وكم ساعة أو نصف ساعة دقتها الكنائس القريبة والبعيدة فعددتها ثم لعنتها اما على بطئها ، واما على سرعتها ! ! لقدكانت لى أيام سعد وأيام

نحس . فمرة كنت ادخل لا اتجشم الانتظار لحظة ولا أجد بجانبها الا زوجها يقطع بالحديث الحلو ساعات الاستعداد للنوم ، ومرة لا أجد عندها الا صديقاً أو صديقين من أولئك الذى يقضون صدر الليل فى سمر الصداقة ويمضون عجزه فى جدل السياسة . وكانوا عادة من بين رجال البرلمان ومصاقيع خطبائه مثل سوار وبونال ومنّييه وليننييه ؛ وهذا الرجل من بين المعاصرين قد استأثر باجلالى وحبى ، لأنه صورة ناطقة لفضائل القدماء وبلاغتهم . فهو رومانى القلب واللسان والمظهر لا ينقصه الاشعار الرومان ليكون شيشرون أو كنتون عصره . ولقد رأيت له صوّرة الىّ فهو يختصنى أثناء السمر بنظرات حبيبة وكلمات عطوفة ، ثم أصبح منذ اليوم استاذى. فاذا كان لى فيما بعد وطن خدمته ، أو منبر صعدته ، فانما الفضل كل الفضل لما رسخ فى نفسى من وطنيته و بلاغته

كان هؤلاء العظماء يتعاقبون حول المائدة الصغيرة وجوليا مضطجعة على كنبتها وأنا جالس فى زاوية الغرفة بعيداً عنها لا أنطق بحرف ولا أومئ بطرف ، وانما أفكر وأقدر وأؤيد وأفند فى نفسى . فاذا وجه الى الخطاب انفرجت شفتاى عن كلمات قليلة ألقيها بصوت خافت فى حياء وحذر . حتى كانت تعرض لى آراء أعتقدها تمام الاعتقاد فأجد حرجا شديداً فى بسطها أمام القوم ، لأنهم كانوا

أعلى منى سنا وأسمى منزلة . واحترام السن والنبوغ والشهرة جزء من طبيعتى ، فشعاع المجد يخطف بصرى ، وبياض المشيب يملك قيادى ، ونباهة الاسم تستعبد نفسى ، وكثيراً ماصغرت من قدرى وقالت من قيمتى بهذا الحياء ، ولكنى لم آسف على ذلك يوماً ما . إن شعورك بسمو غيرك وتفوقه خير لك فى شيبتك وهرمك ، لأنه يرفع فى نظرك المثل الأعلى الذى تطلبه ، والمطمح الأسمى الذى ترغبه . أما الشعور بالكمال والاعتداد بالنفس فوقاحة على الطبيعة واهانة للدهر . وإن يكن الشعور بسمو الغير ضلالة ووهما فإن أقل ما فيه أن يعظم الانسانية ويكبرها ، بدل أن يحقرها ويصغرها

لم يكترث لى أولئك الرجال فى بادئ الأمر ، وكنت أراهم يميلون أحيانا على چوليا فيسألونها بصوت خافت عنى . وكأنما أعجبهم منى وأدهشهم تلك السحنة المفكرة ، والهيئة المتواضعة المؤثرة ، فاقتربوا منى وحولوا الىّ بعض الخطاب فى رقة ولطف تشجيعاً لى من طرف خفى على الخوض معهم فى غمار الحديث . فكنت أجاذبهم طرفا منه بالكلمات القليلة أعبر بها عن شكرى ثم ارتد سريعاً الى ظلامى وصمتى مخافة أن تنشط المحادثة بالأخذ والرد فتطول . وما كان هؤلاء فى نظرى الا اطارا للصورة . والصورة وحدها هى التى كانت مرمى بصرى ومسترق سمعى ومتجه هواى

٧٧

ولشد ما تبتهج نفسى ويخفق فؤادى حين أراهم يخرجون وأسمع دروج المركبة الأخيرة تجاوز وصيد الفنـاء ! حينئذ أخلو اليها ، وأنشر نفسى بين يديها ، وقد سجا الليل وسكنت الحركات وخشعت الأصوات فلاتسمع أحيانا الا كر العجلات على الرصيف ، أو غطيط البواب تحت السلم . تبدأ المناجاة بيننا باللحظ لا باللفظ كأنما يتولانا الدهش من السعادة . ثم أدنو من المائدة التى جلست اليها لتخيط عليها فيسقط المخيط من بين أناملها الذاهلة ، وتنفتح عينانا وتنفرج شفتانا وينبض قلبانا ويزدحم الكلام على اللسان ازدحام الأمواج على الفرجة الضيقـة ، فيتلـكأ بادئ ذى بدء فى الجريان فلا تسيل افكارنا الا قطرة قطرة . لا نستطيع أن نعجل فى اختيار ما نفصل الحديث عنه من الاشيـاء المتراكمة المختلطة ، والآراء المتشـابكة المرتبطة ، فيتفق أحياناً أن نظل صامتين من حرج الموقف وفيضان القلب بالقول دون أن يجد متنفسـا ولا مغيضاً . ثم يأخذ الـكلام فى التتابع والانثيال رويداً رويداً كطل الغمامة يسبق الوابل الهتون . ثم يتشقق الحديث بعضه من بعض حتى يعب عبابه فنرسـل الـكلام فى وقت واحد ، فيخرج مختلطا

مضطربا لا تعرف له نظاماً ولا جوابا ولا نتيجة . لقد كان كل منا يسابق الآخر الى التعبير عن عاطفة مشتركة ، ويظن أنه هو الذى سبق الى احساس هذه العاطفة منذ حديث الليل أو رسالة الصباح، ولكن هذا الفيضان الصاخب الذى كان ينتهى بنا الى الخجل أو الضحك كانت فورته تسكن آخر الأمر ، ثم يعقبه سقاط الحديث الهادئ نعطر به الفضاء ونكشف به عن أغوار القلب . ذلك كان انسكاب نفس فى نفس ، وتبادل طبيعة وطبيعة ، واستحالتها فىَّ واستحالتى فيها ، بما بيننا من اتصال متبادل فى الحياة والحس والفكر . أبدا لا تجد مثلينا مخلوقين عفيفى الطرف نزيهى الفكر يتصون كل منهما عن الاصحار بقلبه ، والاعلان عن حبه أمام الآخر . على أن نفسينا كانتا عاريتين لا يسترهما حجاب ولا يحجبهما نقاب . ومع ذلك ظلتا طاهرتين كالنور يطهر كل شيء ولا يدنس شيئاً . وما كان موضوع الحديث غير هذا الحب العفيف الذى يطهر نفوسنا كلما صهر جسومنا ، ذلك الحب الذى يستمر تجدده بفضل طهارته ونقائه دون أن يتغير نوره فى النفس ، ولا سروره فى القلب ، ولا بهاؤه فى العين ، فهو لا ينفك زهرة نضرة ، وريحانة عطرة ، ونشوة خالصة ، لأننا أبدا لا نقطف ثمرته

٧٨

ظهر هذا الحب وعلن فى كل صورة من الصور التى مكن الله بها النفوس من أن تتعارف وتتآلف . فمن نظرة تنعكس فيها نفوسنا وتتردد ، الى غمضة تنطبق على صورنا فلا تتبدد ، ومن سقم باد الى هذيان متصل، ومن زفرة محرقة الى آهة صارخة، ومن صمت طويل شامل الى كلام دافق لا ينقطع مدده ، ولا ينتهى أمده ، يقطع النفس ويجفف الريق ، ويتحرك به اللسان ، دون أن تسمعه الآذان ، ثم هو بعد ذلك لا شيء غير العجز عن تصوير ما يستحيل تصويره . . .

كنا كثيراً ما نتحدث الساعات الطوال بصوت منخفض والمرفق على المنضدة ازاء المرفق ، والوجه بجانب الوجه ، والبصر غائب فى البصر، ونحن نظن أن المحادثة لم تدم اكثر من رجع النفس أولمح البصر ، ونعجب العجب كله أن يسرع زماننا بمقدارما يسرع كلامنا وأن تفاجئنا الساعة بدقات الوداع ! كانت تلك الأحاديث تدور تارة على الفروق الطفيفة بين طبيعتنا وآرائنا ، والمشابه القوية بين رغباتنا وأهوائنا ؛ وتارة على اعترافاتنا الخجولة نعبر عنها بأنات القلب الكسير، ولوعات الكبد القريحة؛ وطورا على اكتشافنا لتلك

العواطف المتحدة التي تتجاوب فى قلبينا تجاوب الاصداء ، و تنعكس فيهما انعكاس الأضواء ، ثم ينتهى بنا الأمر الى وهن الجلد وخور العزيمة متأثرين من ذلك الاتحاد العجيب ، باكيين من ذلك الشعور الجميل ، بأننا نفس فى صورتين ، وروح فى جسمين !

٧٩

وما كان أطيب للنفس أن نعود بالحديث فى أكثر الليالى الى ذكرى الأماكن والظروف والساعات التى درج فيها غرامنا وشب ، كما تنتثر لآلئ العقد من جيد الفتاة فترجع أدراجها تلتقطها واحدة فواحدة والرأس خافض والعين محدقة !! . وما كنا نريد أن تمحى من ذاكراتنا تلك الأمكنة ولا تلك الأزمنة مخافة أن يمحى معها شعورنا بتلك السعادة الخالصة والهناء المحض

ذكرنا جبال سفوا ووادى شمبيرى وبحيرة بورچيه وما بين أولئك من شلالات وثلاجات وسيول ومروج وشجر ، وما نعمنا به فيها من لقاء وتعارف وتآلف وحب وسمر . ذكرنا ذلك وأعدناه وفصلناه دون أن نجد ثقلا فى اعادته ، ولا مللا من تفصيله ، كأنما كنا نحكى حديثاً لا يتعلق بنا ولا يتصل بحبنا

واهاً لك أيها القلب ! ما اكثر عجائبك وأبعد رغائبك !

٢٠١

انك لجوج طموح لا يفوتك ممن تحب لحظة ولا لفظة ، ولا يخفى عليك منه معرفة ولا نكرة ، مع أن ايغالك فى تقصيه تأجيج لنارك وتسعير لجواك !

٨٠

وفى بعض الأحايين كان الأسى يدهم جوليا على غرة فتتحرق ضلوعها ، وتنهمر دموعها ، حزنا على ما أكابد جراها من عناء ووجد . فهى ترانى وقد قضى على هذا الموت الماثل بينى وبينها الا أجد فيها غير شبح للسعادة وظل للهناء اذا ضممت ذراعى عليه انمحى وتبدد . لقد كانت تتوجد وتتأوه وتتهم نفسها بأنها شغلت فؤادى بحب لا يدنيه من غبطة ، ولا يعده لمسرة ، وتقول : « وا شوقاه الى الموت ! انى أريد أن يعجل الىَّ وأنا شابة محبوبة ما دمت لا أستطيع أن أكون لك الا حقيقة من مرارة الحب ، وخيالا من حلاوة الغبطة . فانا سراب فى يدك ، وغليل فى كبدك . ومن العجب أن يسوق القدر المنحة والمحنة والسكرة والحسرة فى سلك واحد . ليقتلنى الحب ولتعش أنت لتنعم بحب يلائم طبعك ويناسب قلبك . انى اذا مت أكون أقل شقاء منى اذا عشت شاعرة بأنى أحيا بموت سعادتك وشبابك ، وأنعم بالحياة بفضل ألمك وعذابك » فاجبتها

وأناملي المرتجفة تموّه عبراتها المسفوحة : ما أقبح ما تتحدثين عن هـذا النعيم المقيم ! وما أسوأ ما تظنين بذلك الذى شرفه الله بأن يعرفك ويفهمك ويحبك !! الا تعلمين أن لى من هذه المدامع الحارة التى يسكبها قلبك الآن على يدى بحراً من الحنان والغبطة أجد فى ريه من اللذة والبهجة اضعاف ما أجد فى تلك اللذائذ البهيمية السوقية من المسرات الاثيمة والمتع العقيمة ؟ هل علمتنِى أوسمعتنِى يوما ما ولو فى ساعات هذيانى أعتب على القدر فى أن رفعنى بك ولأجلك فوق مستوى البشر ؟ انما جعلنى القدر أعبد فيك الجمال الروحى الخفى الجسد ، لا تلك المرأة التى تُضم وتُشم ثم تتصوح وتذوى بين الأحضان الفانية . ألم تستطع تلك النار القدسية التى تتقد فى قلبى وجسمى أن تأتى على هذه الشهوات الباطلة والنزعات السافلة ؟ الم تحولنى تلك النار الى لهب صاف كقلبك نقى كحبك ؟ أولى لك ياچوليا !! اتخذى من نفسك عن نفسك فكرة تكون أوفق لك وأليق بك . ولا يبكينك الألم الذى تظنين انك اصبتنى به وجرزته على ، فانى لا أحس ألما ولا أستشعر ندماً ولا أجد فى قلبى غير السعادة الفياضة والسرور الدائم والهدوء الشامل والنوم الذى لا يخالطه الا طيفك . أنا أتألم ؟ ليتنى وفقت الى هذا الألم ! فانى كثيراً ما تمنيت أن أذوقه وأكابده لأجعل منه لله قربانا على ما أولانى منك

ولولم يكن غير البكاء والحرمان . لأن الألم فى سبيلك هو وحده الذى يستطيع أن يزيد فى كأس هنائى المترعة قطرة . فكيف تُسمين مثل هذا الألم ألما وهو لذة ! لا لا يا جوليا ! الحق أن الحياة على مثل هذا موت ، ولكنه موت سنين معدودة فى هذه الدار الفانية ، ليتسنى لنا الحياة السعيدة فى تلك الدار الباقية

٨١

فصدقت ما قلت ونقعت به نفسها ، لأنه صدر منى عن اقتناع وصدق . ثم افترقنا وقد تزود كل منا من اللحظ واللفظ ما يغذى به عواطفه ، ويقوى به عزائمه ، على احتمال البعد طول اليوم . فلما بلغت الباب تطلعت فاذا هى محنية على حاجز الطنف بين الأزهار تشيعنى ببصرها . وظلت واقفة ما أمكنها من رؤيتى ضباب السين. ومضيت أنا كلما خطوت ثمانى خطوات تلفت فأرسل اليها نفسى الطائرة ، ونظرتى الحائرة ، وزفرتى المتقدة . وكان يخيل الى انى مقسم موزع : ففكرى معها لا يبرح ، وجثمانى يسير فاقد الارادة ، بطىء الخطى ، يتامس فى ظلام الشوارع المقفرة باب الفندق

٨٢

على هذه الحال قضيت أشهر الشتاء السعيدة لا يكاد يختلف يوم عن يوم الا بمطالعاتى المتنوعة ، وانفعالاتى المتجددة ، حتى التمعت تباشير الربيع على أعالى البيوت ، وانصاح بياض السماء فى أرض باريس المظلمة الرطبة . فسافر صديقى (ف) إجابة لدعاء أهله ، وخلفنى فى الغرفة وحدى بعد أن وعد بالرجوع مع الخريف. ونقد المالك أجرة السكن العام كله حتى لا يحرمنى كرم عنايته وحسن ضيافته أثناء غيابه . فأورثنى بُعده كربا وغمة ، وأعوزنى من استريح اليه بمكنون صدرى وأناقله عن جوليا أطيب الحديث . ثم ورد على من أمى أن أبى رزئ فى ماله وأصيب فى رزقه فأعسر بعد يسر ، وأبأس بعد نعيم ، وأصبح المنزل الخصيب المضياف مهبط الاملاق والعدم ، فاضطر الى انقاص مرتبى الى النصف حتى يستطيع ولو بشق الانفس أن يعول ستة أطفال أُخر. وأخبرتنى أن لا مناص من احدى اثنتين : اما أن أعجل فأكسب لنفسى من طريق شريف ، واما أن أعود الى بيت الأسرة فاقاسمها قوتها وأعيش معها عيش الكفاف والرضا . ثم كانت تهون على وقع هذا النبأ الفاجع بما تظهره لى من شدة العطف على ، وازدياد الشوق

الى ، وما تصوره لى من جمال الريف وبهجة الحقول ونضرة الزروع وهدوء المعيشة القروية

ومما زاد الطين بلة ، والقلب علة ، أن نفرا من الاخدان الذين لبستهم فى عهـدى الخالى على موائد القمر ، وسابقتهم فى ميـادين اللهو والخمر ، مسهم الضر وعضتهم الفاقة فلقونى فى باريس فذكرونى مالهم على من يد سابقة ، ورجوا أن أساعدهم من فضل ، أو أواسيهم من كفاف . فبسطت لهم يدى بالعرف حتى سلبونى أكثر ما ادخرت . فلما أوشكت الراحة أن تصفر والكيس أن يفرغ ، فكرت فى ابتغاء الثروة من وراء الشهرة ، فنشب فى نفسى عراك شديد بين الحياء والحب ، فهذا يدفع وذاك يمنع حتى تغلب الحب ، فعمدت ذات صباح الى المخطوط ذى الغلاف الأخضر ، وهو ديوان شعرى ومناط أملى ، فوضعته تحت ثيابى وذهبت به أقدم رجلا وأؤخر أخرى الى طباع شهير وقع اختيارى عليه دون غيره ، لأنه فضلا عن شهرته فى عالم الطباعة أديب مذكور فى عالم الأدب . فلما بلغت بابه وقف بى الحياء وصدنى الخجل فكدت أرجع أدراجى لولا أن تمثل لى وجه جوليا الجميل فشجعنى على التقـدم ودفعنى الى الدخول . فدخلت على السيد (د) ... وهو رجل ناضج السن مجتمع الأشُد ، له دقة التاجر وسحنته ، وايجاز الحريص على الوقت ولهجته ، فلقينى

لقاء جميلا وسألني عما أريد . فغمغمت بالكلام طويلا ودرت به حول الغرض حتى يفرخ روعى فأتبين وجوه القول . فلما ملكت نفسي أخرجت من بين ثيابي نسخة الديوان ووضعتها بين يديه بيد مرتجفة ونفس خاشعة وقلت له : انى نظمت هذه القصائد وأود أن أطبعها رجاة أن يكون لى من ورائها قليل من المجد، والا مهدت لى على الأقل السبيل الى رجالات الأدب فاخطب ودهم وأكسب عطفهم . وسألته أن ينشرها على نفقته اذا رأى أن سيعود عليه منها عائدة ، ويستفيد الناس من قراءتها فائدة . فابتسم الرجل ابتسامة تنبئ عن التهكم والطيبة ، وتناول الديوان باصبعين مرنتا على تصفح الكتب وتقليب الورق، ثم وضعه على المنضدة وسألنى المهلة ثمانية أيام قبل أن يقطع الرأى فيه . فشكرته وانصرفت

كان اليوم من هذه الأيام الثمانية يمر على وكأنه فى طوله قرن . وكانت ثروتى وسمعتى وأمل أمى وحبي وحياتى ومماتى قد تجمعت كلها فى يد هذا الرجل . فتارة كنت أتمثله يقرأ هذه الأشعار وبه من النشوة والصبوة ما كان بى ساعة ألهمتها وأنا فى بلادى فوق قنن الجبال، أو على ضفاف السيول، فيجد فيها ما سكبت من عبرات عينى ، وحسرات نفسى ، وقطرات دمى، ثم تجمع من حوله صحابته من صفوة الأدباء فينشدهم هذه الأشعار فيطربون منها ويصفقون

لها ، وتارة يدركنى الخجل ويصيبنى الندم من عرضى هذه البضاعة المزجاة على مثل هذا الرجل ، وكشفى عن عجزى وعوزى سعيا وراء أمل كاذب من الفوز قد يتحول من المسرة والسعة ، الى المذلة والضعة . ولكن الأمل كان يتغلب على اليأس ، وينبلج صبح الرجاء فى ظلام النفس ، فتحدونى الأحلام وتقودنى المنى من ساعة الى ساعة حتى انقضى الأجل

٨٣

وفى اليوم الثامن صعدت السلم إلى الطباع وأنا مشرد الفكر مبلبل الخاطر . فلما بلغت الدرجة التى أمام الباب لبثت طويلا لا أجرؤ على قرعه ، حتى خرج أحد الناس فتركه مفتوحا فلم أجد بدا من الدخول . دخلت على الرجل فحيانى وأجلسنى وأخذ يبحث عن كتابى بين أكداس من الورق ثم قال : لقد قرأت كتابك يا سيدى فوجدت له حظا من القريحة والذكاء ، ولكنه خال من البحث والدرس . إنه لا يشبه شيئا مما ينشر ويؤثر عن شعرائنا . ولا أدرى من أين أخذت هذا الاسلوب ، واقتبست هذه الآراء ، ونقلت تلك الصور ، التى لا تجرى على سَنَن القواعد المعروفة ، ولا تدخل فى باب من الأبواب المألوفة . على أنها وا أسفاه سلسة عذبة .

فأعرض عن هذا التجديد الذى ينكره الذوق الفرنسى ، واقرأ لفحول أدبنا أمثال دليل وبارنى وميشو ورنوار وفنتان ممن يجلهم الشعب ويفخر بهم الأدب . تشبه بأحدهم اذا أحببت أن يعرفك انسان أو يقرأ لك أحد . انى اذا أشرت عليك بطبع هذا الديوان أكون قد دلست عليك الرأى ، ولم أتحر لك وجوه النصح . واذا قمت أنا بطبعه خدمتك شر خدمة ، واتخذت عندك أسوأ صنيعة» ثم نهض من مقعده ورد الى النسخة ، فأخذتها وغيبتها فى ثيابى دون أن أحاول معارضة القدر أو محاولة القضاء ، فانهما كانا يكلمانني بلسان هذا الرجل . ثم شكرته وحييته ونزلت السلم وجفونى مخضلة بالدموع ، وأعضائى تكاد تتزايل من الهم . وأقسم لو كان يدرى ذلك الرجل الطيب القلب الرقيق الشعور ان ذلك الشاب لم يأته مستجديا مالا ولا شهرة ، وانما جاء وكتابه فى يده ينشد الحب والحياة ، لما تردد فى طبع هذا الكتاب ، ولما ارتجى من غير الله جزاء ولا صلة

٨٤

ثم عدت الى غرفتى وأنا أتعثر فى أذيال اليأس . فأنكر الصبى والكلب مابى ، وعجبا اذ رأيانى لأول مرة مكفهر الوجه طويل

٢٠٩

الصمت . ومضيت الى الكانون فأوقدته ثم القيت فيه الديوان كله ورقة ورقة لا استثنى منه شيئاً . ولم استثنى ؟ وهذا كله لم يستطع أن ينيلنى يوماً واحداً من أيام صفوى وحبى ! ! وما يضرنى أن تأكل النار فيما تأكل خلود اسمى ، فانى أرى الخلود فى الحب لا فى المجد . وفى ذلك اليوم خرجت عند اقبال الليل فبعت ماسة أمى المسكينة ، وكنت لا أزال محتفظا بها رجاة أن أجد فى شعرى فداء لها وغُنية عنها فأردها اليها صحيحة سالمة فلما كذب الرجاء وأخطأنى رائد التوفيق دفعتها الى الجوهرى ، وقد أشبعتها بالقبل ، وبللتها بالدموع ، حتى ترقق قلب التاجر وتحقق من حزنى البادى وعبرتى المسكوبة أن الماسة غير مسروقة . ولما نقدنى الثلاثين ديناراً ثمنها تخازلت أناملى عن قبضها ، فتبددت على الأرض كأنها مكسب حرام . ولطالما وددت بعد ذلك بجدع الأنف لو استرد هذه الماسة العزيزة ببذل أضعاف أضعافها مما أملك من نفائس المال والحلى ، ثم أردها الى أمى ، فانها ضوء حبها ، وقطعة من قلبها ، وآخر دمعة من عينها . آه ! ليت شعرى أية أصبع تختمت بهذه الحلية ؟ ؟

٨٥

ورد الربيع مفضَّض السماء مذهَّب الأرض منضور الجنبات

مسكى النسيم ، فامتلأت حدائق التويلرى بالمتبطلين ذوى الدعة ، وكثر خروجنا للاستراضة فى مراتع الجمال ، والاستراحة فى منازه الطبيعة . فكنت اذا أرسلت الطرف من فوق الجسور الى ما وراء الأفق رأيت هضاب (فلورى) و(ماندون) و(سن كلو) تكسوها الخضرة المتموجة ، وتشقها الخطوط المتعرجة ، فتستشعر نفسى الندم على أن فرطت فى جانب الطبيعة ستة شهور . فاذا ما سجا الليل بزغ القمر وتكسرت أضواؤه الزاهرة ، على أمواج النهر الفاترة ، وكشف فى طرف السين عن دروب زاهرة ومناظر ساحرة يضل البصر فى أبخرتها الكثيفة ، وظلالها الوريفة ، وتسير النفس وراء العين كرها مأخوذة بفاتن جمالها . وكانت وجوه الحوانيت وخوارج الطنوف والشبابيك مغطاة بأصص الأزهار يفغم السابلةَ عبيرُها الطيب وأريجها الشذى ، والزهارات فى زوايا الطرق وأفواه الجسور جالسات خلف أستار من النبت المزهر يحركن بأيديهن اضغاث الريحان كأنما يردن أن يعطرن المدينة ، وموقد النار فى غرفة جوليا قد تحول الى غيضة صغيرة من نبات الأشنة ، والمناضد والموائد قد ازدانت بزهريات البنفسج والسوسن والورد ، وغير ذلك من أزاهير الربيع المسكينة التى خرجت من روضها ، ونزحت عن أرضها ، فكانت أشبه بعصافير السنونو أقحمها

النزق داراً من الدور ثم أعياها الخروج فأخذت تدور من جانب الى جانب ، وتتخبط من حائط الى حائط ، وبنو الدار لا يدركون من دورانها وثورانها غير البشارة بقدوم ابريل الجميل !

تضوع الطيب من هذه الرياحين والأزاهير فملأ الخياشيم والقلوب ، فذكرنا بهذه العطور والصور تلك الطبيعة البهيجة ، والأودية الاريجة ، التي تساقينا فيها كؤوس الهوى مترعة صافية ، ونعمنا فيها بطيب الحياة الخلوية الراضية ، وقد كنا نسيناها والأيام عابسة ، والسماء طامسة ، والجو قارس ، والافق مغلق ، وانا وهي جالسان في تلك الغرفة الضيقة لا نشعر بالوجود ولا نفكر في الناس ، ولا نذكر أن هنالك سماء وشمسا وطبيعة غير ما يتصور كل منا في الآخر . فلما أقبلت أيام ابريل الجميلة ذكرتنا إياها ، وازعجتنا بذكراها ، وحركت في أنفسنا عوامل الوجد ، ودعتنا بدافع الغريزة الى اجتلاء انوارها ، واقتطاف أثمارها ، في الغابات والخلوات من أرباض باريس ، اذ نكون أدنى الى الطبيعة وأقرب من الربيع . فكان يخيل الينا ونحن ننعم معا بلذة الاستراضة في غابات (فنتينبلو) و (فنسين) و (سن جرمان) و (فرساى) انا وجدنا غاباتنا وأمواهنا من وديان الألب ، أو على الأقل وجدنا شمساً كشمسها ، وظلا كظلها ، وعرفنا في حفيف الأغصان أنين هوائها

٨٦

وكان من أثر الربيع الذى رد الى السماء رونقها وصفاءها، وللزروع حياتها ونماءها، ان أعاد كذلك الى جوليا بهجة القلب ومرح الصبا وجمال الشباب . فترقرق ماء الحياة فى وجنتيها، وقوى بريق الفتنة والجمال فى عينيها، وازداد كلامها خلابة ونحولها رقة ومشيها خفة، وألهبتها حمى الحياة فتتابعت كلماتها، وتسارعت حركاتها، وبدا على جوارحها القلق، فهى أبدا لا تسكن ولا تستقر . وكانت اذا أمسى المساء تركت الستائر مهصورة، والنوافذ مفتوحة، وأقبلت من لحظة الى لحظة تطل من أحد الشبابيك فتتنسم طراءة الماء وأشعة القمر وعبير النسيم . فقلت لها ذات ليلة وهى على تلك الحال : ما أولانا أن نجعل لأنفسنا أعياداً من هذه الأيام السعيدة! فان الله لم يجمل السموات ولم يزين الأرضين الا للذاكرين الشاكرين من عباده، ونحن أقوى الناس شعوراً، وأجزلهم شكوراً، فلا يزكو بنا أن نكون أول من عمى عن جماله، وفرط فى واجب افضاله. فلننغمس معاً فى هذا الهواء وذلك الضياء، ولنغص فى ذلك المحيط الزاخر بالنبات والحياة الذى طبق الأرض فى هذه الساعة . هلم لنرى هل تغير ما عهدناه فى أنفسنا من وقدة الحس، وفيض الشعور، وقوة الأدراك، واضطرام العاطفة، فوق جبال سفوا أو على أمواج

البحيرة . فقالت لى : أجل هلم ! فانا لن نشعر أكثر مما شعرنا ، ولن نتحاب أكثر مما تحابينا ، ولكننا نشهد على سعادة قلبينا رقعة من الأرض وبقعة من السماء غير تلك البقاع التى شهدت ذلك الحب ورأت تلك السعادة

ثم شجعنا الشيخ على هذا التجوال فى الغابات الخضرة ، والخمائل النضرة من ضاحية باريس ، رجاة أن يكون لنفحات الحقول ، وملابسة الشمس ، ورياضة الجسم ، فى نقاء الهواء وسكون الخلاء ، أثر حسن فى تهدئة أعصاب جوليا وانشراح قلبها وانبلاج صدرها . فكنت أغدو عليها ساعة الظهيرة من كل نهار فأخرج بها الى الخلوات فى مركبة مقفلة اتقاء للعيون ودرءا للظنون ، ولا ننزل منها الا عند مداخل الغاب ، أو على سفوح الهضاب ، أو لدى أبواب البساتين من ضواحى باريس . ثم نبحث فى فلورى ومندون وسفر وساتورى وفنسين عن الأماكن المهجورة التى وشتها يد الطبيعة بأفواف الزهر ، وغشتها بمنضور النبت ، وطهرت من أوضار الناس وضوضاء الحياة ، اللهم الا بعض الأطفال أو بعض النساء يشققن الأرض بأسلحتهن ليقلعن منها الهندبا ، ووعلة وجلة تأتى الحين بعد الحين ترعى ، فاذا لمحتنا فى العريش انطلقت عادية مذعورة . كنا نسير صامتين إما متعاقبين وإما متأبطين ذراعها تحت ابطى . فاذا ما تكلمنا حلمنا

الأحلام وتمنينا الأماني وتصفحنا وجوه المستقبل ، ثم قطفنا مختلف الزهر فتبادلناه لغة ، وصورناه عواطف ، وأودعناه ذكرياتنا ونظراتنا وزفراتنا وصلواتنا ، ثم احتفظنا به لنعود اليه اذا حم الفراق فنذكر به تلك الأحاديث العذبة والأماني الحلوة . ثم كنا نجلس في الظل على حافة الطريق فنفتح كتابا نقرأ فيه فلا نستطيع أن نأتي على آخر الصفحة ، فنلقيه ونفضل عليه أن نقرأ في وجوهنا ما يختلف عليها من شتى المعاني وجم الصور . فاذا مسنا الجوع ذهبت الى ما يجاورنا من الضياع فاحتلت شيئاً من اللبن والخبز الاسمر فأكلناه فوق العشب ثم صببنا فضلة الاقداح للنحل ، ونثرنا فتات الخبز الى الطير . حتى اذا تضيفت الشمس الى الغروب عدنا الى صخب باريس وضوضائها ، فينقبض الصدر ويستوحش القلب ، فأبلغ چوليا بيتها وهي نشوى من بهجة اليوم ، وأرتد أنا الى غرفتي الخالية منهوكا من الغبطة متساقطا من الجذل ، فأضرب بيدي حوائطها الأربعة عسى أن تتصدع فترد الى ما سلبته من النور والطبيعة والحب ، ثم أوقد المصباح واتعشى من غير شهية ، وأقرأ من دون روية ، ثم أفزع الى تعداد الساعات مترقبا حلول الساعة التي أذهب فيها اليها ، لأنعم بالمثول بين يديها ، وأسأل الليل أن يعيد عليّ أحاديث النهار

٨٧

كنا نعيد اليوم ما بدأناه بالأمس من استراضة واستراحة .
ولا تسل عما أحدثته بما بقى من السمات فى جذوع الأشجار التى تفيأتها واستنشيت فى ظلالها نسمة من الحياة ، أوشعة من الشمس ، أو نفحة من أريج الغاب . سيرى المار هذه الاشجار دون أن يدرى أنها عند بعض الناس أعمدة لهيكل مقدس على الأرض عابده ، وفى السماء معبوده . هيهات أن أنكر ماحييت هذه الأشجار ! ولازلت الى اليوم أزورها مرة أو مرتين فى كل ربيع . واذا ما وقعت عيناى على الفأس تجذ فروعها ، وتقضب جذوعها ، أحسست أنها تعمل فى لحمى وتقطع من حشاى

٨٨

على هضبة شاهقة من جنبات (سن كلود) تشرف على سهل (ايسى) ومجرى السين وطريق فرساى كان مراحنا ومغدانا . فكنا نتمتع فوقها بعلو القمة وسكون الوادى وهدوء الخلاء ، ونتملى فوق ذلك بما يكتنف المكان من مروج وزروع وسفوح لا يكدر صفوها جلبة ، ولا يقطع سكونها حركة . وهنالك تتردد الانفاس

٢١٦

منتظمة فى الصدر ، وتتوارد الأصوات محددة واضحة على الأذن ، وتطير النفس طليقة مترامية فى أفق الحياة . صعدنا اليه ذات صباح من شهر مايو والغابة يومئذ لا يغشاها الا الظبـاء الشوادن يثبن ويمرحن على مماشيها المقفرة الخلاء ، وبعض حراس الصيد يجتازونها من حين الى حين كالنقطة السوداء فى أقصى الأفق . . وكان مجلسنا تحت الشجرة السابعة التى تتم بها نصف الدائرة فى ملتقى الطرق من الهضبة ، فوق أريكة طبيعية من العشب متكأها الشجرة وظُلتها الاغصان . وكان الضحى نقى الهواء رفاف الاديم ، والشمس فى سمائها الصافية تمد الهضبة الشجراء بأشعتها المحرقة ، والطبيعة خرساء لا تلغو فيها لاغية ، فلا تسمع الا نثار أوراق الشتاء الجافة المختلفة أسقطها نبض الحياة فى عروق الشجر لتنبت مكانها الاوراق الجديدة ، واصطفاق أجنحة الأطيار حول أعشاشهن فى الاشجار ، وأرانين الذباب أثمله الضوء فهو يبدو ويختفى زمراً كالغبار كلما تموج النبات المزهر

٨٩

كان بين شبابنا وشباب العام وشباب اليوم اتحاد عجيب . وكان بين احساسنا وبين هذا الضوء اللألاء ، وتلك الحرارة المتعة

وذلك السكون المتقطع ، وهذه البهجة الشاملة ، توافق تام ، حتى حسبنا أنفسنا قد امتزجنا بهذا الهواء وهذى السماء ، واستحلنا الى هذه الحياة وذلك الهدوء ، واستولى كل على أخيه تمام الاستيلاء ، ووجد فى فكره وحسه الكفاية والغناء . وما كنا فى حاجة الى الكلمات نترجم بها عن افئدتنا النابضة ، وعواطفنا الفائضة ، لأننا كنا أشبه بالاناء الطافح كلما ازداد فيضه ازداد ركوده . لم يبق فى قلبينا مكان لحس ولا موضع لاختلاجة ، على أنهما عظما حتى وسعا كل شيء ، ولا شيء مما استوعباه يريد أن يخرج . لذلك صمتنا حتى يعييك أن تسمع أنفاسنا تتردد

لا أدرى كم ساعة لبثنا صامتين ساكتين تحت هذه السنديانة قد اعتمد كل منا رأسه بيده وقد مد رجليه فوق العشب الضاحى ، ومدت الافنان على جبينينا ظلها السجسج . الا أننى حين رفعت رأسى كان الظل قد انسحب عن ثوب جوليا وانبسط أمامنا فوق الخضرة . فنظرت اليها ورفعت هى أيضاً رأسها تنظر الى كأنما دفعها الى ذلك ما دفعنى ، وكأنما حاولت الكلام فعيَّ به لسانها فانفجرت باكية . فقلت لها بصوت خافت متهافت مخافة أن أزيد فى تأثرها ، أو أخرجها من تفكرها : مم تبكين ؟ فقالت : من الغبطة !! ثم جرت على شفتيها ابتسامة حلوة كما جرت من عينيها

عبرات كأنداء الربيع فوق الورد . وعاودت الكلام تقول : أجل أبكى من الغبطة ! فان هذا اليوم ، وهذه الساعة ، وهذا المكان الساكن الهادئ ، وهذه الخلوة الصامتة معك ، وذلك التماثل الذى مزج نفسينا فجعلهما نفساً واحدة لا تفتقر الى لغة ولا تختلف فى شعور ، أكبر من أن تتحمله طبيعة بشرية يقتلها فرط السرور كما يقتلها فرط الألم ، وتئن لأنها لا تملك الأنين ، وتبكى لأنها لا تستطيع الشكر

ثم سكتت هنيهة وعلت وجنتيها حمرة ونَضرة ، فارتعد جسمى خشية أن يأتى الموت ساعة تفتحها فيقطفها . ولكننى اطمأننت حين نادتنى بلهجة الجد والعزم كأنما تريد أن تعلن الى خبراً جديداً طال انتظاره . قالت : رفائيل ! رفائيل ! لقد صدقت أن الله موجود. فقلت لها : وما الذى قرر فى نفسك اليوم هذا المعنى أكثر من كل يوم ؟ فقالت : الحب ! نعم هو الحب الذى أشعر بسيوله الآن تتدفق فى قلبى هادرة فياضة . وما عهدت نفسى من قبل قد شعرت هذا الشعور القوى الرضى الهادئ . كلا ! لم يعد فى قلبى موضع للشك . فان الينبوع الذى يفيض منه هذا النعيم على القلوب ليس من ينابيع الأرض ، فلا يعتريه نضوب ولا يدركه عدم . فلا بد من اله ينبثق عنه هذا الحب الخالد ، وما حبنا الا قطرة منه ، وسينتهى

بنا الأمر الى أن نختلط معا بهذا المحيط الآلهى الذى اغترفنا منه ، وما ذلك المحيط الا الله . لقد رأيته وأدركته وفهمته فى هذه اللحظة بفضل سعادتى ومعونة غبطتى . فما أنت يا رفائيل الذى أحبه ، ولا أنا التى تحبها ، وانما هو الله الذى تعبده فىّ وأعبده فيك ، ويعبده كلانا فى هذه العبرات لتى نسكبها من الغبطة الدائمة والنعيم المقيم. فلنمح هذه الاسماء الباطلة التى سمينا بها هذا الميل المتبادل الذى بيننا . فليس بعد اليوم الا اسم واحد يدل عليه ويعبر عنه . ذلك الأسم هو الله ! ! وستكون العاطفة التى تتولانا بعد ذلك هى العبادة لا الحب . وستكون أنت صلاتى الى الله لا معبودى ولا حبيبي . أفهمتنى يا رفائيل ؟ فقمت والقلب يستخفه نوازٍ من الحمية والطرب ، فقبلنا الشجرة وباركنا عليها لأنها كانت مهبط هذا الوحى وموضع ذلك الالهام، ودعوناها بعد ذلك شجرة العبادة . ثم هبطنا منحدر سان كلود وعدنا فانغمسنا فى ضوضاء باريس، ورجعت هى الى منزلها وقد عرفت ربها ، وغمرت بنوره قلبها ، ورجعت أنا مثلوج الصدر قرير العين لاهتدائها الى هذا الضياء ، وظفرها من الله بهذا العزاء .

٩٠

لم يتحمل ثمن الماسة الأخيرة من حلى أمى نفقة الخروج كل يوم مع جوليا الى ضواحى المدينة، فأسرع اليه النفاد فى زمن يسير، ولم يبق منه الا عشر لويسيات . ولشد ما أظلم فى عينى اليأس، واستولى على قلبى الهم، حين عددت فى المساء هذا الباقى الضئيل وعلمت انى لا أنال به غير أيام معدودات من أيام السرور ! ! وما كان أشد خجلى لو بحت الى حبيبتى بسر هذه الفاقة ! ولو انى فعلت لأمدتنى بكل ما تملك وهو لا يفيض من راحتها، ولا يزيد على حاجتها، واذن يتضع حبى فى عينى، وأنا أوثر أن أموت على أن أحقر من شأنه أو أطأطئ من سموه . وكانت حياة القعود التى حييتها طول الشتاء فى ظلام الغرفة، وادمان الدرس، ولجاجة الهوى، ومكابدة الأرق، والوهن الذى أصاب قلبى الضعيف من توقانه الدائم وفيضانه المستمر مدة عشرة أشهر، قد أنحلت جثمانى، وضعضعت كيانى، فلم يبق وراء وجهى الضامر الشاحب غير لهيب يتأجج من غير وقود لا يلبث أن يأكل بعضه ويخبو

فلما رأت ذلك جوليا نشدتنى الله أن أعود الى مسقط رأسى فأستروح نسيمه، وأتذوق نعيمه، وأن أبقى على حياتى ولو على

حساب حي . ثم أرسلت الى طبيبها الدكتور (ألن) لتعزز وسيلة الحب بسلطان العلم . وذلك الطبيب أو بالحرى ذلك الصديق كان من رجال الخير وأهل السمت الذين يحملون الى ما يزورون من أكواخ الفقراء بركة الدين ونور اليقين وعزاء الأمل . أصابته علة فى القلب على أثر غرامه الخفى النقى بامرأة من أجمل نساء باريس ، ووجد نفسه فى كفاف من الرزق يتسع لقضاء حاجاته وإسداء مبراته ، وهو من بعد رجل ورع عطوف نشيط حمول ، فقصر طبه على بعض أصحابه وذوى المتربة ممن يعرف ومن لا يعرف. وصناعة الطب جميلة مالم يشوهها الطمع، شريفة مالم يحقرها الحرص. وهى ألصق الصناعات باحساس الرجل وقلبه ، تبتدئ بالطبع وسيلة من وسائل الرزق ، ثم تنتهى فى غالب الأمر فضيلة من فضائل النفس . وقد أصبحت فى اعتقاد هذا الطبيب أقوى من الفضيلة وأسمى من الواجب ، واستحالت فى قلبه الى هوى ملازم وشغف مُلِح بالتخفيف عن جسوم المرضى ، والترفيه عن نفوس البائسين . فحيثما حل ينكشف سر الحياة ، وينتشر نور الله ، وينبعث فى النفوس الهالكة جمال الوجود ، وجلال الخلود ، حتى فى سياق الموت . ولقد رأيته بعد سنين يموت ميتة الأخيار البررة ، بعد أن طال قيامه وقعوده على أسِرَّة المحتضرين فتهيأ لها وراض نفسه عليها . أثبتته

المرض فى فراشه ستة شهور يعالج الروح ويكابد النزع ويعد بعينيه الساعات التى تفصله عن الأبدية . وكان على مؤخر سريره ساعة معلقة ، وبين يديه المشبوكتين على صدره صليب لا تفارقه عيناه لحظة . فاذا رهقه من الألم ما ضاق عنه طوقه طلب ممن حوله أن يدنوا الصليب من فمه فيفضى اليه بصلاته وشكاته . ثم انتهى أمره الى أن رقد رقدة الخلود بين اخضرار الأمل ، وابيضاض العمل تاركا الى الفقراء والمرضى أن يتقدموه الى الله حاملين ما ادخر من عمل صالح وكلمة طيبة

مات هذا الكريم على حصيرة فى غرفة حقيرة ، وماخلف غير السمعة الجميلة والأثر الحسن . فحمل الفقراء جثته ، ومنحوه مرتهم قبرا من قبور الصدقة فى الأرض المشتركة !

أيتها النفس الطاهرة المطمئنة ! ! لكأنى أنظر اليك الآن تشرقين فى ذلك الوجه المتهلل السموح ! ! هل وجدت عاقبة هذه الفضائل الغر وتلك المحامد المشكورة وهما باطلا وكذبا صريحاً ؟ وهل تفنين فناء ضوء المصباح أنار لى عن وجهك ثم أطفأته ؟ لا لا ! حاش لله أن يخدعك وأنت لم تخدعى فى دنياك طفلا !

٩١

تعلق بى الطبيب وجعلنى موضع اهتمامه ومكان عطفه ، ولم تخف عليه حقيقة دائى وان لم يبح لى بما عرف عنه . الا أنه أمرنى بالرحيل مخافة أن يدركنى الموت . ثم أفضى الى چوليا بما يتوقعه لى من المكروه إن عصيته . واستعان بحنان الحب وسلطانه ، على أن ينتزعنى من بين أحضانه . ثم أخذ يسيغنى مرارة الفراق بحلاوة الأمل، فأمرنى أن أقضى زمنا بين أسرتى لتعود الى صحتى ، ثم ارتد الى حمامات سقوا فانتظر چوليا هنالك أوائل الخريف . وهكذا فصلنا هذا الحكيم التماسا لنجاتنا من عناق كاد يشفى بنا على موت الخناق لو استمر طويلا

قبلت أخيراً أن أرحل أولا ، وأقسمت لى چوليا أن توافينى على سقوا بعد قليل . وكان وا أسفاه من مدامع عينيها ، واصفرار وجنتيها ، وارتجاف شفتيها ، أوثق يمين وأصدق عهد . ثم حُمَّ البين وأفد الفراق وضرب يوم ١٨ مايو موعدا للرحيل . فأصبحنا نعد الدقائق بدل الساعات ، والساعات بدل الايام . وتمنينا على الله أن يجمع السنين فى لحظة ، ويختصر اللغة فى لفظة ، لنتمتع الآن بما سيسلبه الزمن من سعادتنا أثناء الغيبة

لقد كانت هذه الأيام أيام نعيم ولذة ، ولكنها كانت كذلك

أيام عذاب ومحنة ! فقد كنا نحس فى كل مقابلة ، وكل مصافحة ، وكل نظرة ، وكل كلمة ، برودة الغد القريب والبين المحتم . والسعادة على مثل هذه الحال لا تسمى سعادة ، وانما هى لوعة القلب ولذعة الحب وحرقة الجوانح

جعلنا للوداع عامة اليوم السابق ليوم الرحيل ، ثم اخترنا أن يكون فى سكون الخلاء تحت نظر السماء وبين أحضان الهواء ، لا فى ظلام المنازل التى تكظم النفس وتظلم العين ، ولا بين العواذل الذين يفتّون الكبد ويصدعون الفؤاد . والطبيعة شريكة الانسان فى شعوره ، ومشاطرته فى حزنه وسروره

٩٢

وفى صباح ذلك اليوم ركبنا عربة كنت اكتريتها من قبل ، فاجتازت بنا وهى مغلقة النوافذ مرخاة الستائر شوارع الاحياء العليا من باريس تقصد حديقة (مُنسو) . وكانت هذه الحديقة محبوسة اذ ذاك على نزه الامراء الذين يملكونها ، فلا يدخلها داخل الا باذن ، ولا ينال هذا الاذن الا قليل من الغرباء أو المفتونين بسحر هذا الفردوس . نلت هذا الامتياز بمعونة صديق من أصدقاء أمى له بمنزل هؤلاء الأمراء صلة وثيقة . ووقع اختيارى على هذا الروض

لأنى أعلم أن الأمراء غُيَّب ، وأن الدخول اليه الآن منقطع ، وأن البستانيين أنفسهم تركوه ليحتفلوا بيوم عيد وعطلة . ففى هذا اليوم لم يغش هذه الرياض الأريضة ذات الماء السلسال ، والظل السجسج ، والأعمدة المرفوعة ، والاطلال المصنوعة ، إلا نحن وأشعة الشمس ، وحشرات الارض ، وأطيار السماء . ولم تُسق وَوَايلتاه أوراقها ووراقها بمثل ما سقتها مدامعنا الثرّة المنهلّة ! ! على أننا كنا كلما دفؤ الهواء ، وصفت السماء ، وتصارع الظل والنور على العشب المتكهل ، وغرد البلبل تغريد الطروب الثمِل ، وانعكس النّوْر والنُّور على صفحة الجداول الصقيلة ، واستضحكت ثغور الربيع فى هذه الربى الجميلة ، ارتدت هذه البهجة فى نفوسنا كآبة ، وغشيت قلوبنا الحزينة من صفائها سحابة فوق سحابة . ولكم حاولنا فى غير طائل مخادعة أنفسنا بالنشاط والانبساط الى روعة المناظر ، وبهجة الأزاهر ، وعبير النسيم ، وكثافة الظل ، وصلاحية هذا المكان لإيواء عالم المحبين بأسره ! ! فألقينا عليه من باب المجاملة نظرة ذاهلة ، ولكنها سرعان ما ارتدت الى الارض ! وأردنا أن نتبادل كلمات الاعجاب والجذل ، ولكنها أسفرت عن نضوب المعنى وعزوب الفكر . لقد كانت أفكارنا فى مكان آخر ! !

كذلك حاولنا أن نقضى ساعة الوداع الاخيرة تحت ظلال

الأشجار العطرة ، أو فوق قطع الأعمدة الخضرة ، أو على حافة الجداول العشيبة النضرة ، فما استقر لنا حال ولاسكن لنا بال ولا اطمأن بنا خاطر . فما نكاد نختار مكانا حتى يساورنا القلق والضجر فنتركه الى غيره . هنا الظل ، وهناك النور ، وهنالك هدير الشلال أو هديل العندليب ، ولكن هذه الأشياء كانت تحول فى نفوسنا هذه اللذة ألماً ، وتقلب فى عيوننا ذلك المنظر قبحاً . ! متى التاع القلب بجمرة الهم لا تزده الطبيعة كلها الا هماً وسأما ، وجنة الفردوس اذا أصبحت مكاناً لوداع عاشقين كانت أشد من الجحيم عذاباً وألماً . انتهى بنا الكلال من طول المطاف الى أن جاسنا قريباً من قنطرة على جدول . جاسنا متباعدين مسافة غير قصيرة كأن صوت أنفاسنا كان يضايقنا ، أو كأننا أردنا بدافع الغريزة أن يخفى كل عن أخيه هنين نحيبه المكتوم وقد أوشك أن ينفجر

أطالنا النظر فى ذهول الى الماء المخضر الراغى وهو يغور مبطئاً تحت عقد القنطرة ، تارة يحمل معه ورقة بيضاء من أوراق السوسن ، وتارة يكسح عشا خالياً من أعشاش الطيور رمى به الهواء من فوق الشجرة . فرأينا على حين بغتة جثة طير غريق من طيور السنونو قد حملها الماء حتى غيبها رويداً رويداً فى حنية القنطرة . وما كادت تتوارى جثة الطائر حتى أقبل طائر آخر من

جنسه وأخذ يقع ويقوم، ويسف ويحوم، حول القنطرة وهو يئن أنين الحزين ويضرب بجناحيه أحناء العقد. فتبادلنا النظر عن غير عمد. وما أدري ماذا قالته عيوننا حين التقين. غير أن يأس هذا الطائر المسكين قد صادف منا جفوناً مترعة، وقلوباً موجعة، فأدار كل منا ظهره لأخيه ثم انفجرنا بالبكاء. كانت العَبرة تبعث العبرة، والفكرة تجر الفكرة، والطِّيرة تجلب الطِّيرة، والزفرة تستتبع الزفرة. ولقد عالجنا الكلام مراراً فتكسرت نبراته فى حلوقنا حتى عاد أنيناً وحشرجة. فنزلنا على حكم الطبيعة وظللنا نذرف صامتين كل ما فى مآقينا من دموع، حتى تخضَّل النبات وتبلل الثرى، وحتى لم يبق من الدمع قطرة فى عيوننا، ولا من الهم نقطة فى قلوبنا. ذلك كان وداعنا: صورة محزنة، ودمعة هاطلة، وصمت أبدى! ثم افترقنا وكلانا لا يستطيع معاودة النظر لأخيه مخافة أن يخر الى الارض من صدمة النظرة.

حرام على هذه الحديقة بعد أن شهدت وداعنا، وفرقت اجتماعنا، أن تشهد ثانية وفودى اليها، أو ترى آثار قدمى عليها!!

٩٣

وفى صباح اليوم التالى كانت العجلة تدرج بى على هضاب

(ميدى) الجذبية والعقل شارد ، والجسم هامد ، واللسان صامت ، والرأس مدثر في معطفي، وحوالى خمسة أو ستة من دهماء النـاس يتحدثون فرحين عن نوع النبيذ وثمن الغداء في الخان . فقطعت هذه المرحلة الطويلة الثقيلة دون أن تأبه أذناى لحديث، أو تنفرج شفتاى عن كلمة . ولما بلغت عرين الأبوة وعش الأمومة لقيتنى أمى بحنانها البشوش الذى يرد الشقى سعيداً . وماذا لقيت معى ؟ لم تلق وا أسفاه الا جسما ناحلا ولونا حائلا وقلباً ذاهلا وشباباً عاطلا ويأسا قاتلا عزته هى الى سأم الفراغ وسقم الخيال ، وأخفيت أنا مبعثه الحقيقى حتى لا أضيف الى آلامها ألماً لا طب له ولا برء منه . فلم تجد بدا من أن تبعث بى الى واد من الأودية الخلاء لنا فيه مزرعة مستأجرة تعمل فيها أسرة نشيطة، رجاة أن أجد فى هواء الجبال متنفساً من الهم ، وبين هذه الأسرة متلمساً من العزاء . فقضيت الصيف وحيداً فى هذا المكان لا يشغل ذرعى الا عد الايام التى تفصلنى عن لقاء جوليا فى وادى الألب ، ولا يملأ فراغى الا الرسائل التى أكتبها اليها أو التى أتلقاها منها

وكانت هذه الرسائل الشيقة الرقيقة حرية أن تجلو ما ران على قلبي من صدأ الهم يوم الوداع . ولـكن بعضا من كلمات الأسى والجزع كان يسيل من شق يراعها الحين بعـد الحين عن غير قصد

ولا روية فتكون أشبه بالورقة الذابلة بين أوراق الربيع الغضيرة النضيرة . وأراها تناقض ما تحدثني عنه من هدوء بالها ووفور صحتها . فكنت أعزو هذا التنافر النادر الى شجون الذكرى أو الى أبطاء الزمن

ثم كان من جفاف الهواء فى الجبل ، وطيب الرقاد فى الليل ، ولذة الاستراضة بالنهار ، والعمل البدنى فى الحديقة أو فى المرج ، فضلا عن اقتراب الخريف ودنو اللقاء ، أن مسح الله ما بى من ضنى الجسم وشفوف الألم . فلم يبق من آثار السقم إلا انقباض لطيف يبدو على ملامح وجهى بدوّ الضباب الرقيق على حاشية الصباح الجميل ، وصمت عميق كصمت الخفاء وعمق السر ، وعزلة عن الأنس أوهمت المشعوذين منهم أنى مؤاخ للجن . لقد أمات الحب فى نفسى كل مطمح ، فرضيت من الحياة الدنيا بالنصيب الأخس من خمول وفقر ، وأصبح كل ما أتمناه على الله أن أعمل بيدى أو بقلمى عشرة أشهر فى السنة ، فأجمع من المال ما يمكننى من العيش بجانب جوليا شهرين فى كل عام . حتى اذا ما فجعها الموت فى الشيخ جعلت نفسى فى خدمتها ، وقمت لها مقام روسو للسيدة دفرنس ، وعشت معها تحت ظلال الحب فى كوخ من أكواخ هذه الجبال ، أو فى جوسق من جواسق سفوا ، غير

آسف على هذا العالم الفارغ ، ولا مبتغ من الحب جزاء غير السعادة بأنى أحب ! . . . . .

٩٤

على أن شيئاً واحداً كان يوقظنى من هذه الغفوة ، ويزعجنى أثناء هذا الحلم ، ذلك ما كانت تكابده الأسرة من الفقر المدقع ، والضيق الموجع ، مما أعقبته نفقاتى الضائعة ، ونقص الثمرات أعواماً متتابعة . فكنت كلما ذهبت يوم الاحد أزور أمى كشفت لى بدمعها الهاطل وألمها القاتل عن اشتداد الأزمة واستحكام اليأس مما تسر نبأه عن أبى واخواتى . وكنت أنا فى تلك الآنة قد بلغت الغاية القصوى من العوز والفاقة . فأنا أعيش فى المزرعة على الخبز الأسود مأدوما باللبن والبيض ، ولم أجد أجرة البريد عن رسائل جوليا الا ببيع ما أملك من متاع وكتب . ومع ذلك فقد شارف ستمبر تمامه ، وكتبت الىّ جوليا تقول إن قلقها على زوجها العليل يحبسها بباريس أكثر مما كانت تظن ، وتطلب الىّ أن أبادر بالسفر الى سڤوا فانتظر قدومها اليه آخر أكتوبر . وتلك كانت خدعة من خدع الحب الطاهر عمدت اليها اخفاء لآلامها واقصاء لهمى . وكانت رسائلها مشرقة السطور بنصائح الأخت الحنون

للأخ العزيز : تأمرنى بدالة الحب وسلطانه أن آخذ حذرى من داء يكمن فى إهاب الشباب النضر فلا يزال يذويه ويضويه حتى يفتك به فى الساعة التى يرجو فيها الظفر به والانتصار عليه . وبين مطاوى هذه الرسالة اشارة من طبيبها وطبيبى الدكتور الشفيق (ألن) ينذرنى فيها بسوء العقبى اذا لم أقض مدة طويلة فى ربوع إكس وحماماتها . فأطلعت أمى على هذه الاشارة لتكون ذريعة لى الى السفر . فلما قرأتها بدا عليها القلق ونال منها الهم ، وضمت رجاءها الى أمر الطبيب . ولكن وا أسفاه ما كان فى مقدورى أن أجد النزر اليسير من نفقات الرحلة ، ولا التافه الحقير من متاع السفر . على أن أمى فى ليلة واحدة وجدت فى قلبها مورداً لهذا المال ، وما يستطيع غير قلب الأم أن يهتدى الى هذا المورد !

٩٥

كان فى زاوية من زوايا الحديقة التى تكتنف بيت الأسرة ايكة صغيرة مؤلفة من ثلاث شجرات من شجر الزيزفون وسنديانة خضراء وثمانى دوحات من باسق الشجر ، وهى كل ما بقى من غابة قديمة العهد اجتثوا أشجارها ليخطوا فوقها البستان ، ويرفعوا عليها البيت . كانت هذه الاشجار الجميلة الظليلة منتدى الأسرة

ومتفيأها أيام الصيف ؛ وكانت براعمها فى الربيع ، واختلاف ألوانها فى الخريف ، وسقوط أوراقها فى الشتاء ، تعين لنا أوقات الفصول ؛ وكان ظلها وهو يتقلص تحت جذوعها ، أو يمتد بعيداً عن فروعها ، أتم دلالة على ساعات النهار من الساعة . وكانت أمى تغذينا وتناغينا وتهدهدنا وتدربنا على المشى تحت ظلالها . وكان أبى اذا ما عاد من الصيد جلس تحتها وكتابه فى يده وبندقيته اللامعة معلقة على غصن من أغصانها ، وكلابه اللاهثة راقدة فى ركن من أركانها . وأنا نفسى قضيت ألذ ساعات الحداثة فى فيئها ، أنعم بقراءة هومير أو تليماك ، وألذ بالاستلقاء على العشب الدافئ وأمامى الصفحات منشورة تثب عليها من حين الى حين عظاية أو ذبابة . وكانت البلابل تطرب البيت بأغاريدها الرخيمة العذبة دون أن يعرف أحد مبعث أصواتها ، أو يقف على مكان أعشاشها . كانت هذه الايكة مجد الأسرة وذكرى الجدود ومهوى الافئدة ، فتحويلها الى كيس من الدنانير لا تبعث ذكرى ، ولا تسر نفساً ، ولا تظل أسرة ، لا يخطر على قلب أحد . اللهم الا الأم التى اذاب الهم لفائف قلبها ، اشفاقا على حياة وحيدها وفلذة كبدها . خطرت هذه الفكرة ببال امى فلم تكد تستيقظ من النوم حتى أسرعت بحكم غريزتها وصدق عزيمتها الى دعوة الحطاب وأمرته أن يجتث هذه الشجرات بسرعة

قبل أن تعلمنى مخافة أن يبدولها ، أو أحول أنا بينها وبينها . ورأت بعينها الباكية فأس الحطاب تعمل فى جذور هذه الشجرات ملجأ صباها ، وشاهد لهوها وهواها ، فأشاحت بوجهها ، وجعلت أصابعها فى أذنهـا ، حتى لا تسمع أنينها ولا ترى سقوطها على أرض الحديقة العارية الجديبة

٩٥

وفى يوم الأحد التـالى بينما كنت عائدا الى (ميلى) بحثت بعينى من فوق الجبـل عن لفيف الشجر الذى كان يجمّل الهضبة ويظلل البيت فلم تقع عيناى منه الا على جذور مبتورة ، وجذوع منشورة ، وأغصان منثورة ، وآلات منصوبة كآلات العذاب ، ونشارين يجذونها جذ الرقاب ، فخيل الى انى فى حلم ، وهرولت الى السور ، وفتحت باب الحديقة الصغير بيـد ملتهبة ، وأعصاب مضطربة ، ونظرت فلم أر قائما والهفتاه غير السنديانة وشجرة واحدة من شجر الزيزفون ودوحة من الأدواح الثمان جعلوا تحتها المقعد . ورأتنى أمى فأقبلت الى وارتمت بين ذراعىّ وهى تنهنه دمعهـا المصبوب وتقول : حسبنا هذا ! ان فيما بقى كفاية ! وإن ظل شجرة واحدة ليعدل عندى ظلال غابة بأسرها ، ولـكن ليس فى ظلال

الأرض قاطبة ما يساوى ظلاك . ولقد كتبت الى أبيك أقول له إن الشجر قد آف ولا بد أن يعدى البستان ويؤذى الزرع اذا ترك . فلا تلمنى على شىء ، ولا تلحنى فى واجب ، ولا تحدثنى هذا الحديث بعد ! ! . . ثم قادتنى الى البيت وفتحت خزانتها فأخرجت منها كيساً من الدنانير مملوءا الى نصفه وناولتنى إياه وهى تقول : خذ هذا المال يا ولدى وسافر ! واذا ردك الله علىَّ موفور الحظ من العافية ، معمور القلب بالسعادة ، كان لى من ذلك الثمنُ الأوفى لهذا الشجر . فمددت يدى خجلان ولهان باكيا ، وأخذت الدنانير منها وفى عزمى أن أردها اليها ، تخفيفاً من عبء الهم على وعليها

٩٦

سافرت على قدمىَّ فى لبسة الصائد . فعلى الساقين (دُزلاك) من الجلد ، وفوق الكتف بندقية من بنادق الصيد . ثم أخذت من الكيس مائة فرنك وخلفت الباقى سراً فى المزرعة حتى أرده الى أمى متى عدت ، فعزيز علىَّ أن أكلفها هذا العنت وأحرمها هذا المال ، وهو ثمن قطعة من كبدها . ومضيت أطعم وأنام فى الفنادق الحقيرة من كل قرية ، وسبق الى ظن الناس انى طالب سويسرى فقير يعود من جامعة استرسبورج فلم يكلفونى غير الضرورى من

ثمن الخبز والنور والفراش ، ثم تحققوا صحة مازعموا حين رأونى اقرأ فى كل مساء أمام الدار (آلام ڤرتر) بالالمانية ، وما كنت أحمل من الكتب غيره

على هذه الحال اجتزت مضايق (بورجى) وعبرت الرون لدى صخرة (بيير شاليه) وتسلقت جبل القط من شعاب صيادى الوعول . فلما علوت قمته اطلعت فى الحضيض فرأيت أودية اكس وشمبيرى وأنيسى ، وأبصرت البحيرة قدرقطتها أشعة الاصيل الخفاقة بصبغ الورد ، فتمثل فى نفسى وأُشرب حسى أن صورة واحدة تملأ رحب هذا الأفق ، فهى تبدو من جواسق الجبل ، ومن حديقة الطبيب ، ومن تين (بون بور) ، ومن كستناء (تريسرڤ) ومن غابات (سنت انوسنس) ، ومن جزيرة (شاتيلون) ، ومن الزوارق الداخلة فى المرسى ، ومن كل ما أرى من أرض وجو وموج

فجثوت أمام هذا الأفق المعمور بهذا الخيال ، وفتحت ذراعى وضممتهما كأنى أعانق نفسى بعناق النسيم الهاب على مسارح سعادتنا ، ومواطئ أقدامنا . ثم جلست خلف صخرة أتأمل وأتخيل وأتمثل حتى مست الشمس قمم الثلج من (نيڤولكس)

لم أرد أن أعبر البحيرة ولا أن أدخل المدينة فى ضوء النهار ،

فان خشونة ملبسى وجشوبة عيشى وضيق ذات يدى كانت تبدو للقاطنين فى منزل الطبيب والنازلين به شاذة غريبة ، وتناقض كل المناقضة ما كنت عليه فى العام الماضى من أناقة الملبس وحسن الشارة وخفض العيش

فوطنت نفسى وعقدت عزمى على أن اتسلل بالليل الى قرية صغيرة من أرباض المدينة أعرف بها خادمة فقيرة تدعى (فنشيت) قد أعتدت فى كوخها الحقير سريراً أو سريرين لتعول فيهما مريضاً أو مريضين من ذوى المتربة بأجر زهيد . وكان صديقى لويس قد سبق الى هذه الفتاة فاحتجز لى سريراً فى الكوخ وكرسيا على المائدة ، ثم وعدنى أن يتلقى رسائل باريس على عنوانه فى شمبيرى ، ثم يبعث بها الى مع سائق من ساقة المركبات التى تتنقل على الدوام من مدينة الى أخرى . وكنت مضطراً أثناء مقامى فى اكس أن احتبس طول النهار فى الكوخ أو فى البساتين القريبة . فاذا أرخى الليل سدوله خرجت فصعدت الى بيت الطبيب من وراء المدينة فأدخله من باب الحديقة المفتوح على الخلاء ثم أقضى به ساعات المساء فى خلوة حلوة وتأمل لذيذ . لو أننى عانيت أضعاف ما أعانى من ذلة وقلة لكان فى هذه الساعات المباركة جزاء أوفى عن مهانتى ، وعوضاً أسمى من فاقتى

٩٧

حررت خطاى فى طريقى من جبل القط الى دير الهتكمب على أن أصل اليه يوم جمع الله قلبينا برباط الحب فى منزل الصياد . فمن الضفة العمودية التى تنحدر من قنة الجبل نحو البحيرة لاح لى من على الشمال أطلال الدير وظلاله مرقومة سوداء على صفحة الماء . ولم يكن غير دقائق معدودة حتى بلغته ، وكانت الشمس قد غرقت وراء الألب ، وشفق الخريف قد سحب على الجبال والوديان والشطئان والأمواج ذيله الضافى المذهب

لم أقف على الاطلال ، بل أجزت البستان الذى جلسنا فيه تحت كومة المرعى وكانت لا تزال على حالها تلك ، الا أنك لا تبصر ضوء النار من زجاج البيت ، ولا الدخان من فوق السطح ، ولا الشبّاك معلقة على سور الحديقة . قرعت الباب فلم يجب أحد ، فعالجت الرتاج فانفتح من نفسه ، ودخلت القاعة فاذا الموقد مكنوس ، واذا الأثاث ، مرفوع ، واذا البلاط مغطى بالقش والريش المتناثر من اعشاش السنونوا الخاوية . صعدت السلم الخشبى الى الغرفة التى أفاقت فيها جوليا من الاغماء ، واستجمت من الاعياء ، ودخلتها دخول العابد المحراب ، ثم أجلت فيها النظر فاذا السرير والخزانة والكرسى

مفقودة ، واذا طائر من طيور الليل أفزعته خطاى فحرك جناحيه وضرب بهما الحائط ثم استقلهما ناجياً بنفسه من النافذة . تلمست المكان الذى جثوت فيه بجانب چوليا وهى مغمى عليها من الغرق فمن بعد لأى عرفته فقبلته . وأخذت عينى تطلب فى جنبات الكوخ انسانا اسائله عن مصير أهل هذه الدار فما وقعت على أحد . فغلب على ظنى أن تأخر الحصاد عاقهم فى الجواسق العليا من الجبل ، وأنهم لا ينزلون منها الا فى الشتاء . فصح عزمى على أن أقضى الليلة بهذا الكوخ فى الموضع الذى كانت تكابد چوليا فيه الموت . فجئت بضغث من العشب الطرى وبسطته على أرض الغرفة ، ثم أخرجت من جرابى رغيفاً من الخبز وقطعة من الجبن وذهبت اتعشى على حافة الينبوع الذى كان يجرى ثم يقف على التعاقب كأنه النفس المتقطع

٩٨

لقد كان من حفافى هذه الهضبة ومن اشراف هذا الدير فى وقت الأصيل منظر ساحر هولقلوب المختلين ، ومشاعر المفكرين ، ونفوس المحبين ، مستراد وفتنة . فهنا ظلال الجبل الأخضر الندىّ ، وخرير الينبوع الحلو الشجى ، وحفيف الورق الظليل الرخى ؛

وهناك اظلال الهيكل أوحشها البلى ، وصدوع الحوائط غشاها اللبلاب ، واروقة الدير عمها الظلام وكمن فيها السر ، وأمواج البحيرة المزبدة تموت واحدة فواحدة على سحيق الرمل أو على وعر الصخور ؛ وهنالك على العدوة الأخرى تجد الجبال الزرق تكسوها الظلال الشفافة ، وترى على اليمين لدى رجع البصر ذلك الدرب المستنير خلعت عليه شمس الاصيل حلة أرجوانية !

غصت بنفسي وحسي في هذه الظلال والأنوار والأمواج والسحب ، وامتزجت بهذه الطبيعة ، وامتزجت بي صورة الحبيبة ، حتى أصبحت هي الوجدان والزمان والمكان والمنظر : فهذا هو المكان الذى لمحت فيه زورقها يصارع الموت ، وذاك هو البستان الذى تساقطنا فيه شهى الحديث وتبادلنا به حبيّ النظر ، وهناك أعالى الحور تظلل ذلك الطريق اللاحب الذى ينساب فى الأرض انسياب الأرقم الأخضر قد خرج من الماء ، وهنا الجواسق والمخاضر وأدواح القسطل والطرق الجبلية التى كنت اقطف من حفافيها الزهور وأجنى الفريز والكستناء ثم املأ بها ميدعتها ، وفى هذه البقعة حكت لى خبراً من الأخبار ، وفى تلك بحت لها بسر من الاسرار ، وتحت هذا اللفيف من شجر الحور السليب اذ ذاك من ورقه ودعتنى ووعدتنى أن ترانى قبل اصفرار الاوراق الجديدة . وهاهى الاوراق

أوشكت أن تصفر، وكذلك چوليا أوشكت أن تعود . فان الحب صادق الوعد مسئول العهد . على أنني أراها الآن ! ألست هنا فى انتظارها، ومن انتظر فكأنه نظر ؟ ! !

٩٩

على أن الليل كان قد نشر ذوائبه على البحيرة فلم تعد العيون تبصر الماء الا من خلال ضباب أدكن قد رصص[1] وجهه . ففى ذلك الصمت العميق الشامل الذى يسبق الظلمة قرع سمعى صوت مجدافين يدنوان من الشاطئ، ثم مالبثت ان رأيت فى عرض البحيرة نكتة تتحرك على وجه الماء، فتبينتها فاذا هى زورق ينساب نحو الخليج المجاور لمنزل الصياد، فظننته أياه عائدا من شاطئ سقوا الى بيته المهجور، فهبطت من الطلل الى الساحل مسرعا الى لقائه . فلم أكد أبلغه حتى رأيت الزورق يرسو، والنوتى ينزل، وهو يصيح بى قائلا : « لعلك ياسيدى الفتى الفرنسى النازل فى بيت (فنشيت) ! ان كنت إياه فدونك هذه الرسالة فقد كلفت بحملها اليك »

دلنى ثقل الرسالة على أنها تتضمن رسائل كثيرة . ففضضت الغلاف الأول عن رقعة قرأتها فى ضوء القمر فاذا هى من صديقى لويس كتبها الى فى صباح اليوم يقول فيها : إنه أعد لى المسكن عند

---

(١) رصص وجهه : طلاه بالرصاص أو لونه بلونه Plomber

الخادم (فنشيت) وأنه لم يقدم أحد من باريس الى الآن، وأنه حين علم منى بقرب وصولى الى دير الهتكمب كلف هذا الرجل الثقة أن يلقى الى وهو مار بالدير هذه الرسائل التى وردت الى من باريس منذ يومين فلا ريب انى شديد الظمأ اليها. ثم أضاف الى ذلك أنه قادم غدا الى بنفسه لنعبر البحيرة معا ولندخل المدينة تحت جنح الليل

١٠٠

كنت أمسك بيدى وأنا اقرأ هذه الرقعة رزمة الرسائل فأحسستها ثقيلة على أناملى، ثقل الهم والشؤم على كاهلى. فنقدت الملاح وصرفته بعد أن التمست منه عقباً من الشمع اقرأ على ضوئه هذه الكتب. ثم عدت الى الغرفة العليا وأنا أطفر من الفرح وأنزو من النشوة، وفى اعتقادى اننى سأمتع نظرى بخط الحبيبة، وأسر نفسى برقيق كلامها وخبر قيامها. فجلست على ضغث العشب الذى فرشته، وأشعلت القنديل وتناولت الرسالة الأولى فاذا هى مختومة الغلاف بالسواد، مكتوبة المنوان بخط الدكتور (الن)، واذا بدلائل النعى فى مواضع البشرى!. فمشت فى جسمى رعدة الخوف، وجاشت فى صدرى غصة الهم، وسقطت من يدى على ركبتى اضمامة

الرسائل الأخرى وكانت على حدة ، ولم اجرؤ على أن اقرأ منها كلمة مخافة أن أجد فيها وا أسفاه ما لا تستطيع محوه الحيلة ولا البكاء ، ولا الدمع ولا الدعاء ، ولا الأرض ولا السماء . . . وهو الموت . . . على أنني قرأت مع فرط مابي ، من شدة اضطرابي ، واختلاج أعصابي هذه الكلمات :

كن رجلا ! وفوض أمرك الى الله الذى لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه ! ! لا تنتظر أحدا . . . ! ولا تطلبها على الأرض ، فقد صعدت الى السماء لاهجة باسمك . . . . . . فى مشرق يوم الخميس أفلت شمسها المنيرة ، وفاضت نفسها الكبيرة . . . . لقد أفضت الى بمكنون سرها وجملة أمرها قبل أن تموت . . . . . وكلفتنى أن أبعث اليك بآخر آثارها ونهاية أفكارها ، فقد ظلت تكتب اليك حتى جمدت أناملها على القرطاس فوق اسمك . . . . أحبَّهـا فى المسيح الذى أحبنا حتى الموت ، وتعز عنها عزاء جميلا ، وعش لأمك طويلا ! !

(الن)

١٠١

سقطت على الفراش هامد الجسم فاقد الرشد لا أرتمز ولا أعي . ولم يثب إليَّ حسى الا بنفخات الهواء الصرصر عند نصف

الليل . وكان القنديل لا يزال مضيئا ، وأصابعى لا تنفك معقودة على كتاب الطبيب ، واضامة الرسائل ساقطة من حجرى على أرض الغرفة . ففتحتها بشفقة كأننى خشيت عليها من يدى أن تلمسها فتدنسها . فانتثرت منها على ركبتى طائفة من الرسائل الضافية منمقة بيراعة جوليا ، ومرتبة على حسب تواريخها

وهاك ما حوته أولاها :

رفائيل ! أى رفائيل ! أخى رفائيل ! إغفر لأختك خديعتها اياك هذا الزمن الطويل ! . . . . فما كان فى أملى ولا مرجوّى أن أراك ثانية فى سثوا . . . ! لقد كنت أعلم أنه لم يبق من عمرى الا أيام معدودة ، ولا من نفسى الاحشاشة مجهودة ، فهيهات أن أعيش حتى أحظى بهذه السعادة ! . . . أتذكر يارفائيل ساعة قلت لك : (الى اللقاء) لدى باب حديقة منسو ؟ إنك لم تفهم ماذا كنت أعنى بهذه الجملة . لقد كنت أريد أن أقول : « الى اللقاء ! الى الهناء ! الى الحب الأبدى فى ملكوت السماء ! ! . . . . »

لقد أوصيت الطبيب أن يخدعك هو أيضاً ليحملك معى على ترك باريس ، فقد كنت أريد حتما أن أقيك هذه الفجعة المحرقة تجد مسها من قرب فتقطع حشاك ، وتضعضع قواك . . . كذلك اغفر لى يا رفائيل ما سأعترف لك به الآن ! لقد كنت أكره أن

ترانى أموت ، فضربت بينى وبينك حجابا من البعد حتى لا ترى سريان البلى فى جسمى المعمود ! ! آه ! ما أقسى الموت وما أشد برده ! . . . . . انى أحسه، وأراه ، وأشعر به يدب فى جسمى ويفزعنى من نفسى . . . !

لقد كان متمناى يارفائيل أن أترك فى عينيك صورة من الجمال تتأملها وتعبدها ، ولكن الرجاء خاب ورائد الأمل ضل . . . . فلا تسافر يا رفائيل ! . . . . ولا تنتظرنى فى سفوا . . . فما هو الا يومان أو ثلاثة ثم لا ترى لى أثراً ، ولا تسمع عنى خبرا فى أى مكان . . . . ! سأكون هناك يا رفائيل ! . . . . وسأحل دائما فى كل مكان تحله ! . . . . »

وكان على هذا الكتاب قطرات من الدمع أزالت صقاله وخددت صفحته !

ثم رسالة أخرى كتبتها فى اليوم التالى تقول فيها :

نصف الليل فى . . .

رفائيل ! . . . إن صلواتك ودعواتك أنزلت على من السماء رحمة وبركة. لقد ذكرت بالأمس شجرة العبادة فى سان كلو ، وهى الشجرة التى فى فيئها رأيت الله من خلال نفسك . إن شجرة الصليب أطهر منها وأقدس . . . . فانا طول النهار أعانقها ولا

فارقها . . . . أواه ! ما أجمل أن يظل المرء تحت هذه الدماء وتلك الدموع التي تطهره وتعطره ! ! بالأمس دعوت قسيساً كان يحدثني عنه (الـ) فالفيته كهلا شامل العلم كامل الفهم واسع المغفرة ، فكشفت له عن دخيلة نفسي فعمرها بنور الله وفضله . ما أكرم هذا الوالد وما أعظم عفوه وأقل علمنا به ! ! إنه لا يسخطه أن أحبك وأن تكون أخي ! ويرضى أن أظل أختك في الدنيا اذا عشت ، وملاكك في الآخرة اذا مت . . . فلنحبه يا رفائيل لأنه شاء أن نتحاب كما تحابينا . . . »

وفي ذيل هذا الكتاب رسم صليب صغير ووسم قبلة من حوله!

١٠٣

وثمّ رسالة ثالثة كتبتها بخط متشابك الحروف مطموس الكلمات مختلط السطور تقول فيها :

رفائيل ! اني أريد أن أقول لك اليوم كلمة أخرى . . . فلعلني في الغد لا أستطيعها . . . . ! اذا انا مت فلا تمت أنت ! . . . فانني سأعنى بك في السماء ، وسأكون برة قادرة كذلك الاله الكريم الذي شاء أن يجمعني به ويضمني اليه

أحب بعدى يارفائيـل . . . وسيتيح الله لك أختاً أخرى

تكون خليقة بمؤاخاتك، رفيقة صالحة لحياتك . . . أنا أطلبها لك من الله بلساني وقلبي، فلا تخش يارفائيل أن تؤلم بذلك نفسي في رمسي، فاني لا أغار في السماء من سعادتك في الأرض، ولا أشعر بعد هذا الكلام الا براحة القلب ورضا الضمير

إن صديقي (الن) سيوصل اليك مع هذه الكلمات خصلة من شعري، واني ذاهبة لأنام . . ! »

ثم يلي ذلك الرسالة الأخيرة وهي من سقم الخط لا تكاد تقرأ . فعالجت حروفها المتزايلة، وسطورها المتخاذلة، فاذا فيها :

رفائيل ! رفائيل ! أين أنت ؟ لقد آنست من نفسي القدرة على ترك السرير . . . وصرفت الممرضة التي تسهر على طلبا للوحدة . ثم زحفت على ضوء المصباح انتقل من أثاث لأثاث حتى بلغت منضدة الكتابة . . . ولكني لم أعد أبصر شيئاً . . . إن عينيَّ تغشاهما الظلام فهما تسبحان في ليل داج . . واني ألمح على وجه القرطاس سمادير[1] تطفو وتخفق . . . رفائيل ! اني أراني لا أستطيع الكتابة . . . ولكني اكتب اليك هذه الكلمة إمَّالا ! . . . . »

ثم يلي ذلك كلمتان كتبتهما بحروف غليظة أشبه بتناشير[2]

---

(١) السمادير : نقط سوداء تتراءى للانسان من ضعف البصر

(٢) التناشير كتابة غلمان الكتاب لا واحد لها

الصبية عند أول عهدهم بالخط . فشغلتا كل السطر ، وملأتا ذيل الصحيفة ، وهما : « وداعا يارفائيل ! ! »

١٠٤

تخاذلت أناملي من هول ما قرأت فتناثرت من بينها الرسائل على الأرض . ثم أخذت انتحب من غير صوت ، وأبكي من غير دموع ، حتى وقعت عيناي على رسالة أخرى نمقتها يد زوجها الشيخ ودستها بين الرسائل . فتناولتها ثم فضضتها فاذا فيها :

« لقد انطفأ سراجها ويداها في يدي بعد أن كتبت اليك رسالتها الأخيرة ببضع ساعات . لقد فجعني الموت في ابنتي ، فلتجعلك الحياة ابني مدى الأيام القليلة التي بقيت لي فيها . . . إنها مسجّاة فوق سريرها كالنائمة الحالمة ، وعلى أسرار وجهها سمة المتهلل الباسم رأى من وراء الحياة شيئاً يسره . . أبدا ما رأيتها على هذا الجمال ! وما عهدتها بهذا الحسن ! وان ادمان النظر اليها على هذه الحال ليوحي الى نفسي الشاكة عقيدة الخلود . لقد أحببتك بفضلها ولأجلها فأحبني ! ! »

١٠٥

من سعادة النفس البشرية ألا تعتقد فى الحال بفقدان من تحب جملة واحدة .

فاقد كانت شواهد موتها مبثوثة من حولى ، ولكنى لم أستطع أن أصدق بفنائها ، واستحالة لقائها ، طول الأبد . فان فكرتها ، وصورتها ، وملامح وجهها ، ونبرات صوتها ، وذكاوة حديثها ، وصباحة محياها ، كانت ماثلة فى عينى ، حاضرة فى ذهنى ، حتى ليخيل الى أنها أتم من قبل وجوداً ، وأقوى على الحياة شهوداً ، وانها لاتزال تملأ كيانى ، وتشغل وجدانى ، فهى تحدثنى وتدعونى ، واننى اذا مانهضت سعيت اليها فسلمت عليها . تلك فترة يفصل بها الله بين اليقين بالخسارة وبين الشعور بالحقيقة ، كما تفصل الحواس بين رؤية العين لِهُوِيّ الفأس فوق الجذع وبين سماع الاذن لضربتها ترن طويلا بعد ذلك . تلك الفترة تخفف سورة الحزن ، وتكفكف غرب الألم بالمغالطة والخديعة . ! انك اذا فقدت من تحب فلن تفقده مرة واحدة ، وانما يحيا فيك ردحا من الزمن . وشبيه ذلك أن العين اذا أطالت النظر الى الشمس وهى تغرب بقيت فيها اشعتها بعد افولها وذهاب نورها ، لأنها لاتزال متلألئة فى نفسك ، مشرقة

٢٤٩

فى حسك . وهيهات أن تدرك الفقدان التام والحرمان المطلق الا اذا ادرك شعورك القصور ، وحدده الفتور ، فتستطيع حينئذ أن تقول : « لقد ماتت فىَّ !! »

ذلك لأن الموت لا يتم بالفقدان ، وانما يتم بالنسيان !!

١٠٦

كابدت حزازة هذا الألم طول تلك الليلة على أشد ما تكون لوعة وحرقة ! ولم يشأ الله أن أشتف كأس الألم فى جرعة واحدة مخافة أن تهلك نفسى غرقاً فيه . وانما ابتلانى ثم آسانى بأن جعلنى أتمثل فىَّ ومن حوالى وبين يدىَّ حضور تلك المخلوقة التى لم يرنى الله اياها تلك الفترة القصيرة إلا ليوجه انظارى وأفكارى إلى المكان الذى نقلها اليه وأنزلها به

ولما احترقت ذبالة الشمعة ضممت رسائلى الى صدرى ، وقبلت ما استطعت أرض هذه الغرفة التى كانت لغرامنا مهداً ، فأصبحت له اليوم لحداً . ثم تنكبت بندقيتى وخرجت اقتحم أفواه الجبال ومخارم الشعاب موله العقل ، شارد اللب ، لا اهتدى لطريق ، ولا أسير الى غاية . وكان الظلام شديد الحلك ، والريح عاصفة الهبوب ، والبحيرة تقذف الصخور بأمواجها الهوج ، فتحدث أصداء كأصداء

الغيران ، وأصواتاً كأصوات الانسان ، حتى وقفت مراراً وأنا مكروب النفس ، مقطوع النفَس إذ وقع فى حسى أن أحدا يدعونى باسمى

أواه ! أجل ! لم يخدعنى حسى ، ولم تكذبنى نفسى ، فقد هتف باسمى هاتف ولكنه كان فى السماء !!

١٠٧

أنا لا أذكر شيئاً عن ذلك الذى لقينى صباح تلك الليلة سادماً هائماً على شفا الهاوية فى ضباب الرون فأنقذنى وأعاننى وأعادنى الى أحضان امى المسكينة ، فحسبه جزاء الله على معروفه وفضله !

. . . .

. . . .

والآن وقد أتى على هذه الناجعة عشر سنين لا أجد من نفسى القدرة على استذكار هذه السنة العظيمة التى مازها القدر من سنى صباى . على أن الله قد أنجز لى وعد جوليا فأتاح لى مخلوقة (١) فتحت فى وجهى أبواب الرجاء ، ومسحت على جواى

---

(١) يريد بها لامرتين زوجته فقد كانت على قيد الحياة أيام نشر رفائيل

بيد العزاء، فكنت كثيراً ما أزور معها وادي شمبيرى وبحيرة إكس . فاذا ما علوت ربوة (تريسرف) وجلست تحت سرحات الشاهبلوط التى أحس لحاؤها بوجيب قلب جوليا وهى تحضنها ، ثم أبصرت هذه الجبال والثلوج ، وتلك الأشجار والمروج ، وهذه الأسنان الصخرية تغوص فى جو حار كأنما ينضح الأرض بسائل معطر معنبر ، ثم سمعت الأوراق تخف ، والنسيم يرف ، والحشرات تطن ، والأمواج تئن ، ثم رأيت ظل قرينتى يرتسم بجانبي على الرمل أو على العشب ، وجدت فى صدرى سعة لا تنقصها رغبة ، ودعة لا تشوبها رهبة ، واعتقدت حينئذ أنى أرى روح تلك الفتاة الراضية السامية تبدو فى كل ناحية من نواحى هذا الافق مشرقة الوجود ، محققة الخلود ، فتملأ هذه السماء وهذا الفضاء وذلك الماء ، كأنها بركة الله أفاضها على هذا الوادى الجميل !

(الى هنا إنتهى مخطوط رفائيل)

مراثى لامرتين لجوليا

كان حب لامرتين أو (رفائيل) لجوليا من أقوى الاسباب فى صفاء نفسه ودقة حسه فتفتقت قريحته فى رثائها عن شعر كنضور الزهر وأفواف الوشى . من ذلك ست قصائد بدأ بها ديوانه (التأملات) وهى من عيون الشعر الفرنسى وغرره . نترجم منها اليوم قصيدة (البحيرة Le Lac) وقصيدة (الوحدة L'Isolement واعدين أن نترجم باقيها فى الطبعة الثانية

البحيرة

نظم لامرتين هذه القطعة الخالدة فى بحيرة بورجيه من سفوا وقد وفد على اكس عام ١٨١٧ ينتظر قدوم جوليا اليها كما مر بك فى سياق القصة ، وجوليا يومئذ كانت تكابد غصص الموت على سرير المرض فلم تلب نداءه ولم تستطع لقاءه . فزفر لامرتين هذه الزفرة وأرسل هذه العبرة من صدر مكروب وعين قريحة ثم عاد الى (ميلى) شارد اللب مضطرم الجوانح وهذه هى :

أهكذا قضى الله أن نخر فى عباب
الحياة مدفوعين فى ظلام الأبد من شاطئ
الى شاطئ ، دون أن نملك الرجوع الى

ملجأ ، أو الرسوّ ذات يوم على مرفأ ؟

* * *

أنظري أيتها البحيرة ! ها هو الفلك
قد أوشك أن يتم دورته ، والعام قد كاد
يشارف تمامه ، وأنا وحدي بجانب أمواجك
الحبيبة أرتقب عبثاً عودة چوليا اليها ،
جالساً فوق الصخرة التي كنت ترينها جالسة
عليها !!

* * *

كذلك بالأمس كنت تهدرين فوق
هذه الصخور المعلقة ، وتتكسر أواذيك
على جوانبها الممزقة ، ويقذف هواؤك
الزبد على قدميها المعبودتين

* * *

أتذكرين ليلة كنا فوق صفحتك
بين الماء والسماء نجدف في سكون وصمت
وقد ضرب الله على آذان الطبيعة ، وختم

على أفواه الخليقة ، فلا نحس حركة ولا
نسمع رِكزاً غير ايقاع المجاديف على أنغام
الموج ؟

* * *

واذا بصوت لا عهد للآذان بمثله
ينبعث من ضفتك الجميلة ، فشق حجاب
السكون ، واطلق لسان الصدى ، وهنالك
أنصت الموج ، وأصغى الهواء ، وأخذ هذا
الصوت الحبيب الى يُساقط هذه الكلمات:

* * *

أيتها الارض قفى دورانك ! وأنت
أيتها الساعات قفى جريانك ! ودعينا نتمتع
بعاجل لذاتنا ، وننعم بأجمل أيام شبابنا

* * *

ان كثيراً من صرعى الحياة وفرائس
البؤس يتضرعون اليك أن تسرعى بهم ،
لتخففي من كربهم ، فاستجيبي اليهم ، وكرى

مسرعة عليهم ، وخذى مع عمرهم الذاهب ،
ألم عذابهم الواصب ، واتركى السعداء
والناعمين غارّين فى غفلات العيش وظلال
الامن !

* * *

على أنى واويلتاه كلما لججت فى
الطلب لج الزمان فى الهرب ، فأنا أتمنى
عايه المنى فلا تحقق ، وأستزيده البرهة
اليسيرة فلا أوفق ، فسألت هذه الليلة أن
تكون أطول وأمهل ، ولكن السؤل
خاب وبازى الصبح قد افترس غراب الليل !!

* * *

فلنتساق اذن كؤوس الهوى دهاقاً ،
ولنقض مآربنا عجالا ، فليس لسفينة الانسان
مرفأ ، ولا لخضم الزمان ساحل . ان الزمن
ليتدفق وإنا مع تياره نمر ونمضى !

* * *

أيها الزمن الحاقد الحاسد ! أكذلك

قضيت أن تمضى لحظات الانس وسكرات الحب سراعا كما تمضى أيام الشقاء والبؤس ؟؟

* * *

ويلك ! أما نستطيع على الاقل أن نتبين آثارها ! ونلمح أنوارها ؟ وكيف ؟ أتراها قد ذهبت الى غير رجعة ، وماتت الى غير بعث ؟ واويلتاه ! هل انقضى كل شىء ؟ وهل الزمن الذى منحها وأعطاها ، والذى طمسها وعفَّاها ، لا يردها ثانية علينا؟؟

* * *

حدثنى أيها الأبد ! أيها العدم ! أيها الماضى ! أيهـا الغور العميق ! ماذا تصنع بهذه الايام التى تغيبها فى أحشائك ، وتطويها فى أثنائك ؟ ؟ أما تُرجع الينا ما سلبتنا من سكرات نبيلة ؟ ومسرات جميلة ؟ ؟

* * *

أيتها البحيرة الصاخبة ! أيتها الصخور

الصامتة ! أيتها الغيران الموحشة ! أيتها الغابات المظلمة ! أنتن اللاتى يبقى عليهن الدهر ، فيُجِدُّهن بعد البلى ، ويخصبهن بعد المحل ! فاحتفظن من هذه الليلة السعيدة على الاقل بذكراها ، واندمجن على شذا أرجها وطيب رياها !

***

لتبق ذكراها أيتها البحيرة فى هدوئك الشامل ، وعواصفك الهوج ، وهضباتك الضحوك ؟ لتبق فى هذا الصنوبر الذاهب فى السماء ، وفى وعر الصخور المعلقة فوق الماء ! لتبق فى النسيم العابث بوجهك ، وفى الهدير المردد بين ضفافك ، وفى الكوكب الفضى يضىء سطحك بأنواره الناعمة الزهية !

***

وليقل الهواء الذى يصفر ، والقصب الذى يزفر ، والنسيم المعطر الذى يضوع !

ليقل كل ما نرى وما نسمع وما نتنسم :
« لقد كانا عاشقين ! ! »

الوحدة

استسلم لامرتين بعد فجيعته فى حبيبته الى الهم ، واستأنس بالوحدة ، واستكان للعبرة ، وخلا الى الحزن فى خلوات (ميلى) ومن هناك بعث الى صديقه (فريو) بهذه القصيدة فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨١٨ وهى :

جلست محزون القلب ، مستطار اللب ، على قلة الجبل ، وتحت ظلة السنديانة العتيقة ، أشيع شمس النهار وهى تغرب ، وأسرح بصرى فى وجوه السهل وهى تتغير:

* * *

فهنا النهر صخاب الموج ، جياش الزبد ، ينساب فى جوف الوادى ، ثم يضل فى ظلام البعد ! وهناك البحيرة راكدة السطح ، راقدة الماء ، تتراءى فى جوانبها نجوم الليل !

* * *

والطفل لا يزال يلقى على رءوس الجبال الشجراء ومضا من شعاعه ، وملاك الليل قد أخذ يصعد الى عرش السماء فى محفته الندية ، فأشرقت جوانب الارض وازدهرت حواشي الافق

* * *

وناقوس الكنيسة النوطى ، قد بدأ يقرع الهواء برنينه الدينى ، فكف الفلاح عن العمل ، ووقف السائر عن المسير ، واختلطت هذه الارانين المقدسة بما بقى من ضوضاء النهار وصخبه !

* * *

ولكن نفسى كانت من كل هذا خلية ، فما تبعث فيها هذه المناظر الجليلة ، ولا تلك الصور الجميلة ، نشوة ولا بهجة ! لقد كنت أتأمل الارض وكأنها ظل منتقل أو خيال طائف !

إن شمس الاحياء لا تدفىء الموتى !

* * *

فكنت أنقل عينى من الربى الى الجبال ، ومن الجنوب الى الشمال ، ومن ظلمة الغسق الى حمرة الشفق ، وأنفض[1] السهل والوعر ، والمأهول والقفر ، عسى أن أجد لنفسى سعادة فى مكان ، أو أتوسم لقلبى راحة فى انسان ، فلا أعود بطائل !

* * *

وما تصنع لى هذه الوديان والأكواخ والقصور ما دمت لا أجد لجمالها فى عينى روعة ، ولا لسحرها فى قلبى فتنة ؟؟

أيها الانهار والاحجار والغابات والخلوات العزيزة على !! ان غيبة مخلوق واحد من ربوعكن جعل عامركن خرابا ، وردّ أنسكن وحشة !!

* * *

سواء على أتطلع الشمس أم تغرب ،

(١) نقض المكان : نظر الى كل ما فيه ليعرفه

وتصحو السماء أم تغيم ، ويظلم الليل أم
ينير الصبح ، فليس لى بغية فى اليوم ولا
رجية فى الغد

* * *

وحينما أرسل عينىَّ تتبعان الشمس فى
مدارها الرحب القصى لا أبصر فى كل
مكان غير الفراغ والخلو ! لا حاجة لى الى من
تظله السماء ، ولا رغبة لى فيما تنيره الشمس !

* * *

ولكن من وراء هذا الفلك الدائر
وهذه الشمس الساطعة أمكنة أخرى
تسطع فيها الشمس الحقيقية ! فلو أتيح لنفسى
أن تخلص من قفصها لرأت فى تلك السموات
حبيبها الذى طالما بكت عليه ، وحنت اليه !

* * *

هنالك أنتشى من رحيق الغبطة ،
وأظفر بالامل والمحبة ، وأنعم بما تاقت اليه
نفسى من متع لا تمر على سمع ، ولا تدور بخلد

* * *

ما أعجزنى أن أطير اليك وأنا مثقل
بقيود المادة خاضع لجاذبية الارض ! !
وليت شعرى لماذا قضى الله أن أبقى الى
الآن فى أرض المنفى وما تربطنى بها رابطة ،
ولا تصلنى بأهلها صلة ! !

* * *

اذا ما ذوت الاوراق فى المرج ،
وأسقطها قر الخريف فى الوادى ، هبت عليها
الشمال فذهبت بها أباديد ! وأنا بهذه
الاوراق الذابلة أشبه ! فاحمليني أيتها الريح
كما حملتها ، وانثرينى فى وجوه الفضاء كما
نثرتها ، فما بعد الصباح الا المساء ، وما بعد
اليأس والوحدة الا الفناء !

الإشراف اللغوى : حسام عبد العزيز

الإشراف الفنــى : حســن كامــــل

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

صدرت ترجمة رفائيل سنة 1926م اى فى العام نفسه الذى شهد أزمة معركة كتاب د/ طه حسين فى الشعر الجاهلى وقبلها بشهور كانت هناك معركة كتاب على عبد الرازق الإسلام وأصول الحكم. كانت مصر قد دخلت عهد دستور 1923م وبدأت المرحلة التى ستعرف لاحقا باسم المرحلة الليبرالية فى مصر، وكان العقل المصرى يشق طريقه فى اتجاهين مترابطين متكاملين، التعامل النقدى مع الأفكار القديمة المتوارثة والمرتبطة بالتراث الإسلامى، وكذلك الانفتاح بوعى وبروح نقدية على الأدب والفكر الغربى. تمثل ذلك فى صدور أعمال متميزة فى التراث العربى تحقيقا وشرحا وانتقادا بالإضافة إلى ترجمة عدد من الاعمال والدراسات المهمة عن بعض اللغات الاجنبية خاصة الفرنسية والإنجليزية وفى هذا الصدد قام الزيات بالإضافة إلى رفائيل بترجمة عمل آخر لا يقل أهمية وهو للشاعر الألمانى المعجب بالشرق الإسلامى وحضاراته جيته. وقد ترجم الزيات آلام فرتر عن اللغة وليس عن الاصل الألمانى، وانقطعت صلته بالترجمة بعد ذلك حيث شغل بالتأليف العربية إلى أن أصدار "الرسالة" فى 1933م.

Bibliotheca Alexandrina
0750030